نوابغ الفكر الغربي

١٦

جون لوك

بقلم

عزمى إسلام



دار المعارف بمصر

جون لوك

نوابغ الفكر الغربي

١٦

جون لوك

بقلم

عزمي إسلام



دار المعارف بمصر

١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

دفعنى إلى الاهتمام بفلسفة جون لوك عدة عوامل . منها أنه كان أول من وضع مشكلة المعرفة الإنسانية فى تاريخ الفكر الفلسفى موضع البحث المستقل المنظم فى كتابه « مقالة فى العقل البشرى » الذى يعتبر بمثابة أول محاولة جدية فى هذا الصدد . وأنه كان بمثابة مرحلة انتقال ضرورية فى تاريخ الفكر الفلسفى فى القرن السابع عشر — تترجم لروح العصر — وهى الروح العلمية ، فى مختلف الميادين — سياسية كانت أو فلسفية . وذلك لاستيعابه للاتجاهات التجريبية عند فرنسيس بيكون . ونتائج العلوم الطبيعية عند كل من بويل ، جاليليو ، نيوتن . وتقديمها فى فلسفته التجريبية النقدية تعبيراً تمهيدياً تطورياً لفلسفة جديدة اتضحت معالمها عند هيوم ، رسل ووليم جيمس .

هذا بالإضافة إلى ما امتازت به فلسفته من تحليل للفكر وعملياته تحليلا دقيقاً . وإلى ما قدمه لمعاصريه من دراسات هامة وقيمة — خاصة فى التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية وتحليل فكرة الجوهر . وتحليل اللغة ... إلخ.

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقوم بدراسة تحليلية لفلسفة لوك ، لإظهار ما تقوم عليه من أسس ومبادئ — متتبعاً هذه الأسس والمبادئ لأوضح كيف أقام لوك عليها نظريته فى المعرفة . معتمداً فى ذلك على مؤلفاته نفسها . وكذا الخطابات المتبادلة بينه وبين أصدقائه أمثال كلارك ، كولينز ، ستيلنج فليت — التى كانت تتناول كثيراً من المشكلات الفلسفية بالتحليل أو الرد والدفاع .

كما اتبعت فى هذا الكتاب منهجاً نقدياً مقارناً . وحاولت فيه إبراز الملامح الأساسية للاتجاه التجريبى بصفة عامة ، وفى فلسفة لوك بصفة خاصة . ومدى أصالة هذا الاتجاه عنده — وجعلت نقدى لفلسفته فى ضوء هذا الاتجاه —

مبيناً كيف أنه ينتهى أحياناً إلى بعض النتائج التى قد تختلف عن البداية التجريبية التى بدأ بها — مناقشاً أسباب ذلك . مثل تأثره ببعض الفلسفات العقلية ، والتراث الفكرى المدرسى الذى تلقاه فى أكسفورد .

وقد توخيت ألا تكون المقارنات التى عقدتها بينه وبين غيره من الفلاسفة منفصلة عن سياق البحث — فلجأت إلى المقارنة كلما سمح المجال بذلك — إلا أننى أفردت جزءاً خاصاً لمقارنة تجريبية لوك بصفة عامة بثلاثة اتجاهات فلسفية كبرى . متمثلة فى الاتجاه التجريبى ، بعد أن تطور على يد كل من هيوم ، رسل ، جيمس وفى الاتجاه العقلى عند ليبنتز . وفى الاتجاه النقدى عند كانت — كما أننى لجأت إلى العرض التاريخى بالنسبة لبعض المشكلات الفلسفية كمشكلة الجوهر . والعلة . والأفكار الفطرية — موضحاً كيف كان رأى لوك فيها نتيجة لتطورها التدريجى .

عزمى إسلام

الباب الأول

حياته وأهميته فى تاريخ الفكر

(ا) حياة الفيلسوف

ولد جون لوك فى رينجتون بمقاطعة سومرست فى ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢ بإنجلترا أثناء حكم الملك شارل الأول . وكان أبوه محامياً من جماعة البيوريتان (المتطهرين) اشترك فى صفوف البرلمان حين اندلعت الحرب الأهلية[١] ولم يكن الابن الصغير جون لوك يتجاوز العاشرة من عمره — فكانت هذه البيئة المكافحة التى نشأ فيها لوك من أكبر العوامل التى أدت إلى تفتح ذهنه على بعض الأفكار السياسية السائدة فى ذلك الوقت ، وتوجيه نظره إلى الاشتغال بالسياسة فيما بعد بحيث جعلت منه بعد ذلك فيلسوف الحرية لا فى إنجلترا وحدها — بل فى أوربا كذلك .

وقضى لوك فترة طفولته فى سومرست حتى بلغ الرابعة عشرة — ثم أرسل إلى مدرسة وستمنستر فى سنة ١٦٤٦ واستمر بها حتى التحق بجامعة أكسفورد فى سنة ١٦٥٢[٢] .

ومما هو جدير بالذكر أن لوك لم يتأثر كثيراً بالمناهج التى كان يدرسها فى وستمنستر والتى كانت تتلخص فى دراسة القواعد والترجمة المتعلقة باللغتين

---

(١) قامت الحرب الأهلية فى إنجلترا بين أتباع الملك شارل الأول وأتباع البرلمان . وانتهت بفوز أوليفر كرومويل وإعدام الملك وقيام الجمهورية عام ١٦٥٣ .

(٢) O'connor, D.J., John Locke, p. 14, London, 1952 (A Penguin Book No. A 267).

اليونانية واللاتينية[١] كما أنه لم يحب ذلك النظام القاسى الذى كان يسود المدارس الإنجليزية فى ذلك الوقت ، وراح ينتقده ويحاول أن يضع أسساً جديدة لتربية تقوم على شيء من الحرية والمرونة وقد وصف لوك تلك الطريقة القديمة . ومقترحاته لتربية أخرى جديدة فى كتابه (أفكار عن التربية) عام ١٦٩٣[٢].

كما خاب ظنه كذلك حين التحق بجامعة أكسفورد لدراسة الفلسفة . إذ وجدها خليطاً من فلسفة القرون الوسطى والفلسفة الأرسطية — ممتزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة — ومع ذلك فقد استمر فى دراسته للفلسفة ، ولم يكن مرجع اهتمامه بها إلى دراسته الأكاديمية فى أكسفورد — إنما إلى قراءاته الشخصية . وخاصة لديكارت — الذى وجد فى كتاباته الواضحة وأفكاره السهلة الدقيقة نوعاً من الثورة على تلك الفلسفة المدرسية القديمة التى لم تكن لتشبع العقل أو ترضيه ، والتى جعلته يوقن أن الفلسفة يمكن أن تكون شيئاً أكثر من مجرد التحدث بألفاظ ضخمة براقة . أو عبارات صعبة لا يمكن فهمها[٣].

واستمر فى دراسته الفلسفية فى أكسفورد مع قراءاته الخاصة مدة أربع سنوات حصل بعدها على درجة البكالوريوس .B.A عام ١٦٥٦ ثم على درجة الماجستير .M.A فى الفلسفة بعدها بعامين ١٦٥٨ . ثم عين عام ١٦٦٠ محاضراً فى الفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق فى مدرسة الكنيسة بأكسفورد مع استمراره فى متابعة دراسته للمنطق الأرسطى وللميتافيزيقا متزوداً بدراسة التاريخ والفلك والطبيعة وبعض اللغات[٤] .

وفى تلك الأثناء اجتذبت العلوم الطبيعية انتباهه واهتمامه . ويبدو ذلك الاهتمام من صداقته لأكبر علماء عصره مثل إسحق نيوتن وبويل .

كما بذل لوك مجهوداً كبيراً فى دراسة الطب واستطاع أن يحصل على درجة

---

(١) Sterling P. Lamprecht, Locke — Selections, introduction p. VII (Scribners impression) New York, 1956.

(٢) Aaron, R.I., John Locke, Oxford university press, London 1937, p. 3.

(٣) O'cannor, D.J., John Locke, p. 15.

(٤) Aaron, R.I., John Locke, p. 5.

علمية B.M. من أكسفورد عام ١٦٧٥ تؤهله لممارسة الطب عملياً، وبدأ يمارسه فعلا من حين لآخر – إلا أنه لم يشتغل به مهنة أساسية ولا بطريقة منتظمة أو دائمة[١] .

ومما يروى عنه أنه أنقذ حياة صديقه لورد شافتسبرى بواسطة عملية جراحية أجراها له[٢] . وكان هدفه من دراسة الطب هو الرغبة فى تطبيق الطريقة التى كان يستخدمها كثير من العلماء أمثال جاليليو ونيوتن وبويل فى العلوم الطبيعية على الأمراض التى تصيب الإنسان[٣] إلا أن لوك استطاع أن يتبين اتجاهه الحقيقى الذى لم يكن الدين ، ولا الطب ولا السياسة بل الفلسفة .

هذا عن حياة لوك الدراسية والعلمية . أما عن حياته العملية فكانت خصبة فيها كثير من النشاط والتغيير – حياة ديناميكية فعالة . لم يكتف فيها بتعلم الفلسفة ولا بدراسة الطب ومزاولته من حين لآخر . بل كانت له فى الميادين السياسية والاقتصادية والتربوية جهود واضحة تبلورت فى شكل مؤلفات قيمة تشرح رأيه وتعبر عن وجهة نظره الإصلاحية فيما يتعلق بمشكلاتها .

ويرجع سبب اهتمام لوك بالسياسة والتنظيم الاجتماعى إلى ظروف حياته وبيئته التى نشأ فيها .

ثم كانت الفرصة التى أتيحت له بعد ذلك للاشتغال بالسياسة عملياً حين أرسل سكرتيراً لبعثة دبلوماسية تحت رئاسة سير والتر فين عام ١٦٦٥ إلى حاكم براندنبرج يعرضون عليه التحالف معهم أو الوقوف على الحياد فى حرب هولنده، فابتدأ وعيه يتفتح على أفكار جديدة لم تكن له بها خبرة من قبل[٤].

إلا أن التأثير المباشر الذى أثر فى لوك وجعله يشعر بالحاجة إلى تكوين أفكار واضحة واتجاهات محددة ومفهومات أساسية لتنظيم اجتماعى وسياسى جديد يقوم على الحرية – كان يرجع إلى صحبته وعمله مع لورد أشلى – الذى

---

(١) O'connor, D.J., John Locke, p. 15.

(٢) Sterling P. Lamprecht, Locke, Selections, p. XI.

(٣) Aaron, R.I., John Locke, p. 6.

(٤) O'connor, D.J., John Locke, p. 16.

عرف بعد ذلك باسم لورد شافتسبرى – والذى كانت له مساهمة كبيرة فى ميادين السياسة والأخلاق – وكان يعتبر من أكثر الأشخاص تأثيراً فى الحياة السياسية فى إنجلترا أثناء حكم شارل الثانى ، وذلك لكراهيته العميقة للاستبداد بكل أنواعه سياسيًا كان أم فكريًا أم دينيًا . وقد انتقلت كراهيته تلك بدورها إلى صديقه لوك الذى أصبح بمثابة المدافع عن الحريات فى المجتمع الإنجليزى [١].

إلا أن الدفاع عن الحرية لم يكن أمراً هيناً فى ذلك العصر . إذ لم تكن مناصرة الحرية إذ ذاك تفسر إلا بمعنى الإباحية فى السياسة والدين . وكان حتما على أشياعها أن يلاقوا أحد اثنين كلاهما مر . فإما النفى أو التشريد وإما القتل . ولكن لوك استطاع أن يظل فى إنجلترا زمناً طويلا رغم مبادئه الحرة بفضل حماية ومساعدة صديقه لورد شافتسبرى .

ثم سافر لوك إلى فرنسا عام ١٦٧٥ حين بدأت صحته تسوء . وظل يتردد بين مونبيليه وباريس وبقية أجزاء فرنسا مدة أربع سنوات قابل خلالها كثيراً من الأصدقاء والفلاسفة [٢] مثل مالبرانش وبيرنيه أحد تلامذة الفيلسوف الفرنسى جسندى [٣] وتوماس هيربرت الذى أصبح فيما بعد إيرل أوف بمبروك والذى أهدى إليه لوك كتابه « مقالة فى العقل البشرى » [٤] .

ثم رجع إلى إنجلترا وظل يمارس نشاطه الفكرى والسياسى بمصاحبة صديقه لورد شافتسبرى الذى قبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة العظمى ففر هارباً إلى هولندة حيث مات هناك .

فى تلك الأثناء أحس لوك بأن موقفه فى إنجلترا أصبح مهدداً لأن الشخص الذى كان يعتمد على مساعدته وحمايته اتهم بالخيانة ومات – فآثر أن يتبع نفس الطريق الذى سار فيه صديقه من قبل وهرب إلى هولندة عام ١٦٨٣ التى

---

(١) نفس المرجع السابق . ص ١٧ .

(٢) Leslie Paul, The English Philosophers, p. 115, Faber edition, London, 1952.

(٣) O'connor, D.J., John Locke, p. 17.

(٤) Aaron, R.I., John Locke, p. 18.

كان يسودها فى ذلك الوقت نوع من التسامح والحرية بالنسبة لبقية أجزاء أوربا .

إلا أن هذا الهرب لم يحقق له الهدوء والاستقرار الذى كان ينشده خاصة بعد أن وضعت الحكومة الإنجليزية اسمه فى القائمة السوداء [١]. وطلبت تسليمه أو طرده — فاضطر إلى التستر والتخفى تحت اسم مستعار هو دكتور فان درلندن [٢] .
Dr. Van Der Linden

ولم يستمر هذا التخفى طويلا لأن أصدقاءه فى إنجلترا بذلوا أقصى جهدهم لمساعدته ، وطلبوا عفو الملك جيمس الثانى عنه الذى وافق فعلا — إلا أنه رفض هذا العفو ، وأرسل إلى صديقه إيرل أوف بمبروك مبيناً له أسباب ذلك الرفض قائلا إن العفو لا يصدر إلا عن جريمة بينما هو لم يرتكب جريمة — لأن الدفاع عن الحرية لا يعتبر كذلك [٣] . وفضل البقاء فى هولندة حتى يتمكن كذلك من مواصلة كتاباته التى لم يكن قد ظهر منها شىء له أهمية كبيرة حتى ذلك الوقت ١٦٨٦ الذى كان قد بلغ فيه الرابعة والخمسين من عمره [٤].

وفى تلك الأثناء ظهرت بوادر الثورة ضد الملك جيمس الثانى آخر ملوك أسرة استيوارت الاستبدادية الذى كان مكروهاً من الشعب لإعلانه مذهبه الكاثوليكى صراحة ولتمسكه بنظرية حق الملوك المقدس فى الحكم .

فبدأ لوك نشاطه وانتقل إلى روتردام حيث كان يقيم وليم أورانج — الذى أبحر عام ١٦٨٨ إلى إنجلترا واعتلى هو وزوجته العرش الذى تركه جيمس الثانى وهرب إلى فرنسا [٥] ونجحت الثورة الإنجليزية وتحقق حلم جون لوك بزوال الطغيان وأصبح الطريق أمامه ممهداً للعودة إلى الوطن . فرجع إليه وهو آسف لفراقه هولنده وأصدقائه فيها [٦] .

---

(١) Sterling P. Lamprecht, Locke, selections, p. XXII.

(٢) O'connor, D.J., John Locke, p. 19.

(٣) نفس المرجع السابق — ص ٢٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٦) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

وبفوز الأحرار فى إنجلترا بالنصر والغلبة . وباعتلاء وليم أورانج الحكم الذى عرف بعد ذلك باسم وليم الثالث — أصبح للوك مركز مرموق فى إنجلترا باعتباره فيلسوف الثورة والأب الروحى لها والمبشر بمبادئها . وقد عرض عليه الملك وليم أن يكون سفيراً لإنجلترا لدى حاكم براندنبرج أو فى بلاط فينا . ولكنه اعتذر عن عدم قبوله ذلك المنصب لسوء حالته الصحية[١] . وآثر قبول منصب آخر هو مستشار التجارة والمستعمرات فى إنجلترا حتى عام ١٦٩١ حين اعتزل الخدمة وآوى إلى منزل أصدقائه أسرة ماشام [٢].

ثم عاد فقبل مرة أخرى عام ١٦٩٦ نفس المنصب السابق لمدة أربع سنوات اضطر بعدها حين ساءت صحته إلى الاعتكاف فى الريف الهادئ فى صحبة آل ماشام حتى توفى فى ٢٨ أكتوبر عام ١٧٠٤[٣] .

كانت هذه حياة لوك الفيلسوف السياسى الثائر . أما عن لوك الإنسان فكان شخصاً مخلصاً لمبادئه ومتمسكاً بها مدافعاً عنها عاملا على تنفيذها فى شىء من التصميم الواعى وفى شىء من الحزم والتعقل . متمسكاً بقيم خلقية عالية ومفهومات إنسانية واسعة . على درجة كبيرة من الذكاء الذى ساعده على تفهم مجتمعه وألوان الاستبداد والضغوط الموجودة فيه وعلى معرفة الاتجاهات التطورية الجديدة فى المجتمع . وبلورة هذه الاتجاهات فى مؤلفاته المتعددة . وعلى وضع مقترحات سريعة فعالة لمعالجة تلك الأوضاع . ومحاولة تغييرها بشىء من السهولة والمرونة .

وكان لوك شغوفاً بالقراءة لدرجة أن البعض يميل إلى الاعتقاد بأنه كان من أكثر رجال عصره ثقافة وعلماً[٤] إلا أنه كان مع ذلك متواضعاً لا يحب

---

(١) Sorley, W.R., A History of English Philosophy, p. 107, Cambridge University Press, second edition, 1937.

(٢) هم فرانسيس ماشام وزوجته داماريس كودورث — إبنة الفيلسوف — رالف كودورث أحد افلاطونيى كمبردج .

(٣) Aaron, R.I., John Locke, p. 40.

(٤) نفس المرجع السابق ، صفحة ٤٩ .

الظهور — يكره تماماً كل من يتشدق بالفلسفة بدون فهم ، أو من يجد لذة فى انتقاء المذاهب الغريبة أو الغامضة فيها بغية اجتذاب انتباه الناس[١].

كما كانت للوك شخصية قوية صهرتها خبراته وتجاربه المتعددة بحيث أثرت فيمن حوله من الأفراد والأصدقاء حتى لقد شهد له جميع معاصريه بالإخلاص للحق والتفانى فى سبيل الحرية . كما عرف بالاعتدال والحكمة .

وليس أدل على حبه للحق وإخلاصه له من رسائله التى كان يرسلها إلى أصدقائه — فذكر مثلا فى خطاب له إلى مولينو أن ما جعل من كتاباته ومؤلفاته شيئاً ذا قيمة . هو أنه لم يكتب لأى غرض آخر سوى الحق كما ذكر فى خطاب له إلى كولينز أن الشىء الوحيد الذى يمكنه أن يفخر به هو أنه يحب الحق بكل إخلاص ، ويبحث عنه دائماً سواء أكان ذلك يسر البعض أو لا يسرهم[٢].

إلا أن هذا لا يدل على أنه كان بعيداً عن الناس غير مهتم بهم أو مبال بمشاعرهم لأنه كان على العكس يحب الناس إلا أن حبه للحق كان أكثر — ويرجع ذلك إلى أنه كان بطبيعته متقد العاطفة ولكن بلا انطلاق لأنه تعلم كما يروى بيير كوست كيف يسيطر على إحساساته ويضبط عواطفه[٣].

وتتجلى هذه الإحساسات مع أصدقائه من الأطفال والبالغين على حد سواء فالأطفال كانوا يعتبرونه بمثابة الوالد الثالث لهم (أى بعد الوالدين[٤]) . أما أصدقاؤه الكبار فكانوا يعتزون بصداقته .

وأكثر ما يظهر تقدير لوك لعاطفة الصداقة . أن أغلب مؤلفاته كانت إما بوحى من مناقشاته مع الأصدقاء أو مهداة إليهم . فكتابه « مقالة فى العقل البشرى » كان نتيجة لمناقشاته لبعض الزملاء فى إحدى الأمسيات وخطابه عن التسامح كان مرسلا إلى صديقه ليمبورخ — وكتابه « أفكار عن التربية » كان

---

(١) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع .
(٢) نفس المرجع السابق ، نفس الموضع .
(٣) نفس المرجع السابق ، صفحة ٥٠ .
(٤) نفس المرجع السابق ، صفحة ٥١ .

فى حقيقته خطابات مرسلة إلى صديقه كلارك – وكما يروى البعض أن نقده للكتاب المقدس كان نتيجة لمناقشاته المتعددة مع السيدة ماشام[١] .

وكان يغلب عليه الحرص والتسامح والصبر والهدوء – يعتقد إلى حد كبير يصل إلى درجة الإيمان بالعقل الإنسانى . ويكره كراهية متأصلة كل استبداد فى أى صورة من صوره – متشيعاً مناصراً للحرية فى كل ميادينها وبكل أشكالها [٢] .

---

(١) نفس المرجع السابق ، صفحة ٥٢ .

(٢) O'connor, D.J., John Locke, p. 22.

(ب) أهمية لوك فى تاريخ الفكر الإنسانى

١ - أهميته فى حركة التنوير

إذا كان مؤرخو الفلسفة يعتبرون كتاب « مقالة فى العقل البشرى » للوك بمثابة أول محاولة منظمة لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الإنسانى وعملياته وطبيعته — فلنا الحق كذلك فى القول بأن أهمية لوك لم تكن مقصورة فقط على ميدان الفلسفة بل تعدته وانتقلت بطريقة طبيعية تطبيقية إلى ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعى .

فحركة التحرير الكبرى التى سادت أوروبا فى القرن الثامن عشر — لم تكن سوى امتداد طبيعى لفلسفة لوك — تلك الفلسفة التى كانت تقوم على احترام القيم الإنسانية والحرية الفردية سواء فى الدين أو الفكر أو السياسة ، وتنادى بتحرير الفرد الذى كان قد انطمست شخصيته فى ظل من استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت فى نار من طغيان الملوك وتعصبهم فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق .

فقد كان لوك نصيراً لسيادة الشعوب . ولما كانت هذه الشعوب مكونة من أفراد . فإنه من الواجب أن يستمتع كل فرد منهم بكافة حقوقه وأهمها حق الحياة وحق الملكية الخاصة وحق الحرية . وهذه حقوق تقوم على الإنتاج كما يقول لوك وليست منحة من الحكام أو الملوك(١) .

وكل فلسفة تنادى بالفرد . تقتضى الحرية . لأن الحرية هى الشخصية والشخصية هى أساس الفردية(٢) .

---

(١) John Locke, An Essay .. of Civil Government, ch. V, p. 79. (in the World's great thinkers — Political Philosophers, edited by Saxe Commins, New York, 1954).

(٢) ربيع الفكر اليونانى — للدكتور عبد الرحمن بدوى ، صفحة ١٦٨ — الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٦ .

هذه الصرخة المدوية التى أطلقها لوك فى إنجلترا فى القرن السابع عشر تجاوبت أصداؤها فى أوربا كلها — وكان لها تأثير مباشر فى نجاح الحركات التحريرية التى قامت بها الملايين المكافحة والشعوب التى كانت تسخر لخدمة الاستغلال والإقطاع الاجتماعى والاقتصادى والدينى .

فكان لها تأثير مباشر مثلا فى نجاح الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر وذلك نتيجة لتأثير آراء لوك فى فلاسفة التحرير الفرنسيين مثل فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو .

فقد تبنى فولتير أفكار لوك عن الحرية والتسامح . وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الدينى منه وينادى بالحرية[١].

بينما أخذ مونتسكيو عن لوك نظريته فى فصل السلطات[٢] . وأخذ روسو عنه نظرية العقد الاجتماعى[٣] .

إلا أن أهمية لوك وتأثيره السياسى لم يقتصر على فرنسا ولا أوربا فقط بل تعدتها كذلك إلى أمريكا — إذ أنه يعتبر مصدر التفكير السياسى الذى ساد الولايات المتحدة إبان ثورتها — وهو الفيلسوف الذى أخذ عنه قادة الثورة الأمريكية أفكاره حين وضع وثيقة الاستقلال[٤].

فحين نادت الثورة الأمريكية بحرية الفرد الشخصية إنما كانت فى الواقع تردد نفس أنغام الحرية التى طالما رددها لوك ، وثار من أجلها والتى تبلورت بعد ذلك فى المناداة بالديموقراطية باسم الحرية والمساواة . وظهرت فى شكل مقالتيه فى الحكومة المدنية . والتى ظهرت فى آراء جيفرسون وتوماس بين . وفى نص وثيقة الاستقلال الأمريكية . تلك الوثيقة التى لم يكن مضمونها من ابتكار واضعيها — بل كانت مجرد تعبير عن آراء جون لوك[٥]. وذلك بنص اعتراف

---

(١) Paul Janet & Gabriel Seaille, Histoire de la Philosophie les Problemes et les ecoles, p. 1050 (Paris 1928).

(٢) O'connor, D.J., John Locke, p. 208.

(٣) Paul Janet & Gabriel Seaille, Histoire de la philosophie p. 1051.

(٤) حياة الفكر فى العالم الجديد — دكتور زكى نجيب محمود . ص ١٥ .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٦ .

جيفرسون أحد المشتركين فى إعلانها حين قال إنه لم يشعر بضرورة تدعو إلى ابتكار أفكار جديدة لم يسبق إليها [١].

٢ — أهميته فى تاريخ الفلسفة

ترجع أهمية لوك فى تاريخ الفلسفة إلى عدة اعتبارات أهمها :

١ — أنه يعتبر أول من وضع مشكلة المعرفة بمعناها المعروف لدينا الآن تقريباً موضع البحث والتعمق — وليس هذا معناه أن هذه المشكلة لم تكن معروفة فى الفلسفة من قبل — إنما معناه أننا لا نكاد نلحظ قبل لوك أى محاولة جدية واضحة لدراسة مسائل المعرفة دراسة مستقلة منظمة [٢] .

٢ — وأنه وجه أنظار الناس فى عصره لكى يفكروا بطريقة أكثر تعمقاً فى المشكلات التى كانوا يتناولونها من قبل بطريقة سطحية [٣] وخاصة مشكلات المعرفة من حيث أصلها ومداها ودرجة اليقين فيها . وأنه بين أوجه النقص فى طريقة التفكير القديمة التى كانت تدرس وتعالج بها المشكلات الفلسفية . وتساءل عن مدى تقبل الناس لبعض الأحكام كما لو كانت شيئاً مسلماً بصحته [٤]. مثل المبادئ الفطرية التى كانت فى نظرهم واضحة بذاتها لا تحتاج إلى دليل أو برهان على صحتها .

٣ — وأنه قدم لمعاصريه دراسات هامة وقيمة وخاصة فى التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية . وتحليل فكرة الجوهر — وتحليل اللغة ومعانى الكلمات [٥].

٤ — أنه طبق الاتجاه التجريبى فى الفلسفة على بحثه فى نظرية المعرفة بالذات .

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الصفحة .

(٢) نظرية المعرفة — دكتور فتحى الشنيطى . ص ٢٣ — القاهرة . ط — ١ .

(٣) Aaron, R.I., John Locke, p. 307.

(٤) نفس المرجع السابق — ونفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق — ونفس الموضع .

٥ ـ كما ترجع أهميته كذلك فى تاريخ الفلسفة إلى المنهج الذى استخدمه فى بحثه لنظرية المعرفة . إذ أنه اضطر لا تجاهه التجريبى أن يستخدم فى أبحاثه الفلسفية منهجاً آخر غير المنهج القياسى الذى كان سائداً فى الفلسفة القديمة . فحاول أن يطبق فى كتابه « مقالة فى العقل البشرى »ـ المنهج الاستقرائى على أصل المعرفة الإنسانية . وكان هذا الاتجاه منه جديداً لأن المنهج الذى كان متبعاً منذ القدم فى الفلسفة كان منهجاً استنباطياً ـثم بدأ تطبيق المنهج الرياضى فى الفلسفة منذ ديكارت .

والمنهج القياسى منهج هابط يهبط من العام إلى الخاص ـ من الكليات إلى الجزئيات ـ بينما المنهج الاستقرائى على العكس منهج صاعد يصعد من الخاص إلى العام ـ من الجزئيات إلى الكليات . لذلك فالمنهج الأول يناسب الاتجاه العقلى الذى يضع أمامنا قضايا عامة مسلماً بصحتها . أو أحكاماً أولية صادقة بذاتها ويقيس بناء عليها كل ما يصادفه من قضايا جزئية . بينما المنهج الثانى يناسب الاتجاه التجريبى العلمى الذى يبدأ بملاحظة الجزئيات ـ ويستنتج منها قوانين عامة تشملها وتنطبق عليها .

فإذا كان التفكير العلمى هو السائد فى ذلك الوقت . وإذا كان ذلك المنهج هو الذى أثر فى لوك تأثيراً كبيراً ـ فإننا نستنتج من ذلك أن تطبيق لوك للمنهج الاستقرائى فى الفلسفة كان نتيجة لتأثره بالتفكير العلمى وصبغته التى سادت الفكر الإنسانى فى ذلك الوقت . بل وما زالت حتى عصرنا الحاضر . على أن التفكير العلمى لم يكن وحده المؤثر فى تفكير لوك بل كان إلى جانبه عوامل أخرى مختلفة ومتعددة تتلخص فيما يلى :

أولاً : الفلسفة اليونانية والرومانية

(١) أرسطو

فقد تأثر لوك بأرسطو الذى ذكر صراحة أنه لا يوجد شىء فى النفس أو العقل ما لم يكن من قبل فى الحس [١] ويبدو ذلك المعنى من قوله كذلك

(١) كتاب النفس لأرسطو ـ نقله إلى العربية ـ دكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ١٢ ، ط ١ ـ القاهرة ١٩٤٩ .

فى كتاب « النفس » « إننا فى غيبة جميع الإحساسات لا نستطيع أن نتعلم أو نفهم أى شىء »[١].

وهذا ما ذهب إليه لوك وخاصة فى الكتاب الأول من « مقالة فى العقل البشرى » من رفض الأفكار الفطرية .

وكان تأثر لوك بأرسطو كذلك واضحاً فيما يتعلق بوظيفة العقل . فمن أقسام النفس عند أرسطو ما سماه بالعقل المنفعل وبالعقل الفعال . بحيث كان الأول هو الخاص بتلقى الانطباعات الحسية والذى يجب أن يكون الأمر فيه كالحال فى اللوح الذى لم يكتب فيه شىء بالفعل[٢] بينما كان الثانى هو القادر على التفكير والتذكر والتخيل إلخ » إذ أنه بدون العقل الفعال لا يمكن أن نعقل[٣] .

فإذا ما رجعنا إلى لوك عرفنا أن وظيفة العقل فى نظره كذلك قسمان :

الوظيفة الأولى سلبية، وهى تلقى الانطباعات الحسية من الخارج وتتمثل فى الصفحة البيضاء التى تشبه إلى حد بعيد اللوح الذى لم يكتب فيه شىء بالفعل أو العقل المنفعل عند أرسطو — بينما الوظيفة « الإيجابية » للعقل فشبيهة بالعقل الفعال عند أرسطو الذى هو سبب جميع العمليات العقلية كالتفكير والتخيل والتذكر . . . إلخ والتى بناء عليها نعرف ما نعرفه .

(ب) أبيقور

ويبدو أن تأثر لوك بأبيقور كان كبيراً، إذ أننا نلاحظ أن نفس الفكرة التى ذكرها لوك عن تكوين الأفكار . تكاد تكون موجودة بشكل مبسط أولى عند أبيقور الذى يذكر أن الإحساس . . .يؤدى إلى تكوين الأفكار فى الذهن — فإذا ما تكرر هذا الإحساس أحدث فى الذهن معنى كلياً ثبتناه فى لفظ . وعلى ذلك فالإحساس هو أساس المعرفة .

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ١١١ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ١١٣ .

(ج) الرواقية

وقد تأثر كذلك لوك بالفلسفة الرواقية التى تسلم بيقين المعرفة الحسية ، وترى أنها تتوافر فيها عناصر القوة والثقة والوضوح . لدرجة أنهم كانوا يعتبرون أن الأفكار الحقيقية الآتية من المعرفة الحسية هى الدرجة الأولى من المعرفة[1].

(د) شيشيرون

وقد تأثر كذلك لوك بالفلسفة اللاتينية وخاصة شيشيرون[2] الذى كان تلميذاً مخلصاً للاتجاهات الحسية عند أبيقور ، وللتصور المادى للعالم الذى نادت به الرواقية[3]

٢ ـ الفلسفة المدرسية

إلا أن تأثر لوك بفلسفة العصور الوسطى كان أكثر من تأثره بالفلسفة اليونانية أو اللاتينية . وذلك يرجع إلى أن أول تعليم تعلمه فى وستمنستر وفى أكسفورد كان تعليماً مدرسيًّا مما ترك أثره واضحاً فى كثير من كتاباته وأفكاره الفلسفية . فأغلب أفكار لوك الفلسفية الرئيسية مأخوذة أساساً من الفلسفة المدرسية التى أخذ عنها تخطيطها المنطقى للفلسفة ـ جوهرها وأعراضها وماهيتها أجناسها وأنواعها . جزئياتها وكلياتها . كما نجد هذا الأثر كذلك واضحاً فى ميتافيزيقاه . وخاصة فى فكرته عن الله وصلة الله بالعالم . وكذلك فكرته عن الإنسان ومراتب وجوده[4] حقيقة أن لوك قد خرج على الفلسفة المدرسية . ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بها على الإطلاق . لأنه لم يبدأ بداية جديدة

---

(١) المعرفة ـ دكتور محمد فتحى الشنيطى . ص ٤٢ . طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) Aaron, R.I., John Locke, p. 8.

(٣) Paul Janet & Gabriel Seaille, Histoire de la Philosophie, p. 985.

(٤) Aaron, R.I., John Locke, p. 8.

ولأنه لم يكن ليستطيع ذلك . شأنه فى ذلك شأن أى إنسان آخر لابد وأن يتأثر بالعوامل الثقافية التى ترسبت فى نفسه وذهنه منذ طفولته . لذلك بدأ لوك يبنى فلسفته على التراث الفكرى الذى تعلمه من قبل . وكان هذا التراث مدرسياً [١].

وقد صادف لوك كثير من العقبات حين حاول التوفيق بين هذه الأفكار الميتافيزيقية وبين الاتجاه التجريبى الذى بدأ به فى كتابه « مقالة فى العقل البشرى » — ثم انتهى إلى تفسيره لهذه الأفكار الميتافيزيقية بأنها فى حكم اللامعرفات — أو التى لا يمكن تعريفها [٢].

وأهم هذه الأفكار التى تأثر بها لوك من الفلسفة المدرسية فكرة الجوهر — بمعنى أنه ذلك الموجود بذاته أو الواجب الوجود . باعتباره حاملا لكل الخصائص والصفات والأعراض وكذلك فكرة الماهية أو الوجود الحقيق للشىء — بمعنى أنها ذلك التركيب الداخلى الحقيق للأشياء الذى تعتمد عايه كل الصفات الحسية فى وجودها [٣] .

٣ — ديكارت

لا ينكر لوك تأثره بديكارت ويعترف بذلك فى رسائله إلى ستيللنجفليت فيقول : « إن الفضل فى تحرره من الطريقة العتيقة التى كانت تتبعها الفلسفة المدرسية فى معالجة مشكلات الفلسفة والتى كانت سائدة فى عصره إنما كان يرجع إلى كتابات ديكارت ومؤلفاته » [٤] وقد أكد هذا المعنى كذلك ما ذكرته السيدة ماشام من أن لوك أخبرها بأن مؤلفات ديكارت كانت أول ما جعله يتذوق الفلسفة ويستمتع بها [٥] .

---

(١) نفس المرجع السابق — ص ٩ .

(٢) Gibson, J., Locke's Theory of Know Ledge, p. 190, Cambridge, University Press, Second edition, 1931.

(٣) نفس المرجع ، صفحة ١٩٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ، صفحة ٢٠٥ .

(٥) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

ويتلخص تأثير ديكارت فى فلسفة لوك فيما يأتى :

(ا) فى طريقة البحث :

وتناول مشكلات الفلسفة . فقد كتب ديكارت يقول فى كتابه « قواعد لهداية العقل » :

« يبدو لى أنه لن يكون هناك شيء أكثر فساداً أو إخفاقاً من أن يناقش الإنسان بكل اندفاع أسرار الطبيعة وتأثير النجوم وخفايا المستقبل قبل أن يسأل نفسه عن مدى ملاءمة العقل الإنسانى وقدرته على مناقشة مثل هذه المشكلات »[١]

وهو نفس المعنى الذى ذهب إليه لوك حين رأى أنه يجب على الإنسان قبل أن يبحث فى مشكلات الطبيعة أن يبدأ بدراسة قدراته العقلية لكى يعرف لأى الموضوعات تصلح وأيها لا تصلح[٢] .

(ب) فى المعرفة الحدسية

وهى بالنسبة لهما واضحة يقينية — مع اختلاف كل منهما عن الآخر فى أصل هذه الأفكار التى نعرفها بالحدس .

(حـ) فى معرفة الذات

وقد تأثر لوك بديكارت فى معرفة الذات معرفة حدسية ، فكما قال ديكارت فى الكوجيتو « أنا أفكر إذَنْ أنا موجود » وأن هذه أول معرفة يدركها الإنسان بحدسه — ذهب لوك إلى أن اليقين بوجود الذات — متضمن فى كل عملية من عمليات العقل — ولذا فمعرفتنا بوجودها (أى الذات) تكون معرفة ضرورية يقينية وذلك لأنها معرفة حدسية[٣] .

هذا ويبدو تأثير ديكارت فى فلسفة لوك فى أكثر من موضع فى كتابه

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٢١٠ .

(٢) John Locke, The Epistle to the reader, p. X.

(٣) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 222.

« مقالة فى العقل البشرى » وفى الكتاب الرابع منه على وجه الخصوص الذى تناول فيه أنواع المعرفة ودرجاتها وخاصة المعرفة الحدسية والمعرفة البرهانية .

إلا أن هذا لا يعنى أن لوك قد تأثر بديكارت كلياً أو تماماً — بل على العكس نجده يعارضه فى كثير من أفكاره الرئيسية فى الفلسفة . وخاصة فى نقده للمعرفة الفطرية وإنكاره لقول ديكارت بأن الروح دائمة التفكير وأن الجسم ماهيته الامتداد فقط . أو عدم وجود الخلاء[١] .

٤ — أفلاطونيو كمبردج

وهى عبارة عن مدرسة دينية ازدهرت فى كمبردج فى منتصف القرن السابع عشر وأهم ممثليها بنيامين ويتشكوت وجون سمث وهنرى مور ورالف كودورث الذين نقدوا مادية هوبز . وكانوا بصفة عامة عقليين فى نظرتهم الدينية والفلسفية[٢] وخاصة فى محاولتهم التوفيق بين الاتجاه الأفلاطونى العقلى، وبين الفلسفة الدينية المسيحية[٣] ويمكننا أن نلخص أهم ما تأثر به لوك من أفكار أفلاطونيى كمبردج فى الآتى :

(ا) تأثره بكمبرلند فى كتابه De Legibus Naturae الذى ذهب فيه إلى أن الأفكار أو المفهومات البسيطة Apprehensions التى تتكون المادة الأولى للمعرفة منها — إنما ترجع إلى مصدرين هما الإحساس الداخلى والإحساس الخارجى ثم يقوم العقل بعملية التجريد لتكوين الكليات أو الأفكار العامة[٤] ويبدو ذلك الأثر فى فلسفة لوك حين رد المعرفة إلى الأفكار البسيطة التى ليس لها مصدر أو سبيل إلا الإحساس أو التأمل الذاتى .

(ب) تأثره بالتفرقة التى ذهب إليها أفلاطونيو كمبردج وخاصة هنرى مور — بين الجسم والمكان . أى بين المادة الممتدة وبين المكان الذى يمكن أن تشغله[٥]

---

(١) نفس المرجع السابق ، صفحة ٢٢٠ .

(٢) Aaron, R.I., John Locke, p. 27.

(٣) Leslie Paul, The English Philosophers, p. 94.

(٤) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 242.

(٥) نفس المرجع السابق — ص ٢٤٦ .

(ج) فى تصورهم للجوهر الروحى . وخاصة فكرتنا عن الله[١] .

(د) تأثره بأفلاطونى كمبردج حين ذهبوا إلى حاجة الإنسان إلى التصورات الدينية لكى تساعدهم على فهم وتفسير الظواهر الطبيعية[٢] وإلى ضرورة الوحى لاستكمال المعرفة . وذلك لأن العقل لا يمكن الركون إليه إلا فيما يتعلق بما هو داخل فى حدود مجاله وإمكانياته . وفى أنه لا يوجد مجال للنزاع بين العقل والإلهام لأن كلا منهما يكمل الآخر[٣] .

(هـ) وتأثير أفلاطونيي كمبردج لا يظهر فقط فى أفكار لوك الفلسفية بل كذلك فى فلسفته الدينية مثل خطابات فى التسامح . ومعقولية المسيحية . بل إنه دعا إلى قراءة كتب ومؤلفات رالف كودورث فى كتابه « أفكار عن التربية »[٤] . إلا أن القول بأن لوك قد تأثر بأفلاطونيي كمبردج إلى هذا الحد لا يزيل ما بينه وبينهم من اختلاف واضح يمكن تلخيصه فيما يأتى :

١ – إن أغلب أفلاطونيي كمبردج كانوا يؤمنون بوجود الأفكار الفطرية[٥] التى أنكرها لوك .

٢ – إنهم كانوا يؤمنون بأن هناك عالماً خارجياً قوامه معقولات – بينما كان لوك حين يتحدث عن الكليات أو الأفكار العامة . لا يعتقد أنها أشياء موجودة فى عالم عقلى حقيقى . بل على أنها من صنع عقولنا نحن . وبالتالى فليس لها وجود خارج الأذهان[٦] .

٥ – جسندى

وقد تأثر لوك كذلك بأفكار الفياسوف الحسى[٧] الفرنسى جسندى الذى

---

(١) Aaron, R.I., John Locke, p. 29.

(٢) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 258.

(٣) Aaron, R.I., John Locke, p. 29.

(٤) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٥) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 241.

(٦) Aaron, R.I., John Locke, p. 30.

(٧) Paul Janet & Gabriel Seaille, Histoire de la philosophie, p. 1015.

كان من أشد المعارضين للفلسفة المدرسية التى كانت تدرس فى الجامعات فى ذلك الوقت . والذى كان معروفاً بنقده لديكارت والديكارتية ، وخاصة بالنسبة لفطرية المعرفة . ويبدو تأثير جسندى فى لوك بوضوح فى قوله « إن كل فكرة توجد فى العقل إنما يكون أساسها راجعاً إلى الحواس . فبالنسبة للشخص الذى يولد وهو أعمى لا يمكن إطلاقاً أن تتكون فى ذهنه أية فكرة عن اللون ما دامت حاسة الإبصار التى تؤدى إلى تكوين هذه الفكرة ناقصة فيه — وكذلك الشخص الذى يولد أصم لا يمكن أن يكون فى ذهنه أية فكرة عن الصوت — ما دامت تنقصه الحاسة التى تؤدى إلى تكوين هذه الفكرة وهى حاسة السمع . وبالتالى إذا وجد شخص فاقد لجميع حواسه . فإنه لن يتمكن من تكوين أية فكرة على الإطلاق أو أن يتخيل أى شىء[1] .

وعلى ذلك فلن يكون هناك شىء فى عقل الإنسان ما لم يكن من قبل فى حواسه . إذ أن العقل عبارة عن صفحة بيضاء ليس عليها أى انطباع أو أى شىء سابق على خبرة الحواس[2].

٦ — المنهج العلمى وتقدم العلوم

وهو أهم العوامل التى تركت أثرها فى فلسفة لوك ، وصبغت أفكاره بالصبغة التجريبية العملية — والذى كان يمثله ثلاثة . اثنان من العلماء والثالث من الفلاسفة وهم : إسحق نيوتن ، روبرت بويل ، فرانسيس بيكون .

فهو قد تأثر بالطريقة العملية فى التفكير التى نادى بها بيكون فى كتابه الأورجانون الجديد Novum Organum ومن قوله « إننا كى نعرف شيئاً أكثر فيما يتعلق بالعالم الطبيعى الذى يعرفه الإنسان يجب علينا أن نزيد من ملاحظاتنا لقوانين الطبيعة نفسها بحيث تكون هذه الملاحظة إما منصبة على الأشياء نفسها أو بواسطة العقل — لأنه بغير ذلك لا يمكننا أن نعرف شيئاً أكثر[3].

---

(١) Aaron, R.I., John Locke, p. 37.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٨ .

(٣) نفس المرجع السابق — ص ١٣ .

وهو نفس الاتجاه الذى ذهب إليه لوك من بعد – حين جعل أساس المعرفة الإنسانية ، أو أصلها مستمداً من التجربة الحسية والعقل – أى الإحساس والتأمل الذاتى . وهذا ما سأتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وقد استفاد لوك من التقدم العلمى الهائل الذى كان يتمثل فى أبحاث جاليليو ونيوتن وبويل – إذ أنه كان فى طليعة من استخرجوا النتائج الفلسفية للعلم الحديث – وحللوا مضمونه تحليلا ينتزع مدلوله بالنسبة إلى الفلسفة والسياسة والدين[١] . وذلك لأنه :

أولا : تلقى عن العلم الحديث . وخاصة عن جاليليو ونيوتن التفرقة بين الظواهر كما هى فى الأشياء الخارجة عن الإنسان (أى المحسوسات) وبين الظواهر كما تقع فى إدراك الإنسان (أى الإدراك الحسى عنها) – أى التفرقة بين صفات فى الأشياء – تكون جزءاً من طبيعتها (أى أولية) وبين صفات تحسها وليست جزءاً من طبيعتها (أى عرضية أو ثانوية) الأولى كالحجم والشكل . والثانية كالألوان والطعوم والروائح . . .[٢] – ثم طبق ذلك المعنى فى فلسفته قائلا إن للأشياء صفات وخصائص مختلفة منها ما هو أولى – أى ذاتى فى الشىء نفسه بحيث لا يمكن تصور الشىء بدونها لأنها ملازمة له على أى وضع كان وثابتة مهما حدث فيه من تغييرات وسماها لوك بالصفات الأولية – ومنها أيضاً ما هو ثانوى . بمعنى أنها ليست ذاتية فى الشىء ولا أساسية فيه . بل هى مجرد قوى تحدث فينا إحساسات مختلفة بواسطة الخصائص الأولية فى الأشياء – وسماها لوك بالصفات الثانوية[٣] .

وكانت هذه التفرقة بين الصفات الأولية والثانوية للأشياء – هى التى أدت به إلى القول بفكرة الجوهر – باعتباره حاملا لهذه الأعراض أو الصفات الثانوية .

وقد طبق لوك فكرته عن الجواهر فى ميدان الدين حين قسم الجواهر إلى

---

(١) حياة الفكر فى العالم الجديد ، للدكتور زكى نجيب محمود ، صفحة ١٧ .

(٢) نفس المرجع السابق – ص ١٨ .

(٣) Essay, B. II, ch. VIII, secs. 8-9-10, pp. 85-86.

نوعين — مادى ، روحى — والروحى إلى قسمين — متناه كالنفس ، غير متناه وهو الله .

فإذا كان هذا التقسيم للصفات التى تتصف بها الأشياء صحيحاً كما يقول العلم عند نيوتن وبويل . فإن هذا يستتبع السؤال عن الذات المدركة وعلاقتها بتلك الأشياء المادية التى تدركها — أى عن العلاقة بين الإنسان والطبيعة .

وقد أجاب لوك على هذا التساؤل . بأن الصفات الثانوية ليست موجودة فى الأشياء بل هى نتيجة لصفاتها الأولية . هى فى الواقع مجرد إحساسات (كالألوان والطعوم والروائح . . .) تنتج عن تأثر الإنسان بالمؤثرات المادية — وعلى ذلك فطبيعة الذات المدركة لا يمكن أن تكون هى أيضاً مادية فقط . أى لا يمكن تفسير طبيعة الإنسان على أنه كومة من الذرات المادية التى فسر بها نيوتن وبويل الطبيعة المادية[1] .

إنه لابد وأن يكون مغايراً فى طبيعته لطبائع تلك الأشياء المادية بحيث إذا تأثرت طبيعته بطبائع الأشياء المادية . أحدث هذا التأثر الصفات التى قيل عنها إنها تكون فى الإنسان ولاتكون فى عالم الأشياء. وعلى ذلك فالإنسان بطبيعته عنصر عقلى بالإضافة إلى جسمه المادى[2] .

بمعنى أن طبيعة الإنسان لابد أن تكون شيئاً أكثر من المادة — إذ أنها لو كانت مادية فقط لما أحس بما حوله من أشياء مادية . ولكان هناك فقط تأثير بين مادة وأخرى كتأثير النار فى الذهب والمغناطيس فى الحديد .

وكذلك طبيعة الإنسان ليست عبارة عن الإحساس فقط — بل هى أكثر من ذلك . لأن مجرد انطباع الإحساسات فى الإنسان لا يعنى فهمها .

إذ أن هناك فرقاً كبيراً بين الإحساس وبين الإدراك الحسى . والإنسان يتميز عن غيره من بقية الكائنات الحساسة بأنه يدرك معنى هذه الإحساسات وذلك عن طريق العقل .

---

(١) Leslie Paul, The English Philosophers, p. 88.

(٢) حياة الفكر فى العالم الجديد — دكتور زكى نجيب محمود . ص ٢٦ .

وهذا العقل فى نظر لوك عنصر أولى بسيط التكوين – لا يتجزأ ولا يتحلل . كما هو الشأن فى الشيء المادى . ولهذا استحال فساده وتحلله بعد الموت . إنه صوت الله فى الإنسان[١] .

وقد طبق لوك فكرته هذه فى مجال الدين قائلا إن العقل هو الذى يهدى الإنسان إذا ما استوحاه وأنصت إليه فى إملاء عقيدته فيذكر لوك فى رسالته عن التسامح أن الطريق الضيق الذى لا طريق سواه والذى يؤدى إلى السماء . لا يعرفه القاضى بأكثر مما يعرفه كل إنسان . لذلك لا أستطيع أن أتخذ من هذا القاضى وأنا مطمئن هادياً يهدينى لأنه قد يكون على جهل بالطريق مثل جهلى . واليقين هو أنه أقل اهتماماً بنجاتى منى بنجاة نفسى – لهذا كان روح الفرد من شأن صاحبه وحده دون سواه ولا بد أن يترك وشأنه فيه[٢] .

ثم طبق لوك فكرته هذه على السياسة متخذاً من فكرة الفردية أساساً لفكرة الحرية . لأن كل فلسفة تنادى بالفرد تقتضى الحرية . قائلا إن القانون المدنى سنده الوحيد هو قبول العنصر العقلى فى الإنسان . ولما كان كل عنصر عقلى منفرد مستقلا عن زميله كانت أغلبية الآراء هنا هى السند الذى يستند إليه القانون المدنى – وهكذا يقوم المجتمع بموافقة جميع أفراده[٣] . إذ ليس الفرد الواحد حجة على زميله[٤].

ثانياً : وكذلك لأن لوك أخذ عن نيوتن وبويل نظريتهما الذرية الطبيعية فى أن المادة تتركب من ذرات صغيرة بحيث إذا ما اختلفت طريقة ترتيب تلك الجزئيات الصغيرة . تبعها اختلاف فى نوع المادة ، وبالتالى فى صفاتها الثانوية[٥]

---

(١) Leslie Paul, The English Philosophers, p. 123.

(٢) حياة الفكر فى العالم الجديد – دكتور زكى نجيب محمود . ص ٢٦ .

(٣) John Locke, Essay of Civil Government, B. II, ch. 8, Sec. 96, p. III.

(٤) حياة الفكر فى العالم الجديد – دكتور زكى نجيب محمود . ص ٢٧ .

(٥) Leslie Paul, The English Philosophers, p. 90.

واستنتج منها أن التركيب الداخلى للمادة هو الذى يتوقف عليه صفاتها الثانوية كاللون والطعم والرائحة . . . إلخ .

فإذا كان العلم الطبيعى فى ذلك الوقت يجعل من الظواهر المحسوسة شيئاً غير حقيقة الأشياء . فالطبيعة التى تقع فى حس الإنسان إنما تقع على غرار واحد فى الناس جميعاً على السواء [١] بمعنى أن ما هو محسوس – يمكن أن يحسه الناس جميعاً لأن الطبيعة ساوت بينهم حين أعطت لكل منهم فرصة مساوية للآخر – بواسطة الحواس – أى أن الإنسان حين يدرك شيئاً إنما يدركه من الطبيعة بحواسه . إذ ليس هناك شىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس .

وقد طبق لوك ذلك فى مجال الفلسفة – فرفض الأفكار الفطرية الموجودة فى عقول الناس منذ القدم . قائلا إن مصدر المعرفة لا يمكن أن يخرج عن الإحساس والتأمل الذاتى .

وهذا معناه فى ميدان السياسة أن الناس جميعاً يولدون وهم متساوون فى طبائعهم الواعية – أى العقل – كل يدرك ما يدركه الآخر من ظواهر الأشياء بواسطة الحس[٢] .

أى أن الناس جميعاً يولدون وهم متساوون فى عدم المعرفة – وبالتالى فى جهلهم السابق على كل تجربة حسية .

فإذا كانوا كذلك . فلم لا يكونون متساوين فى حقوقهم وواجباتهم . إن الطبيعة التى قررت ذلك . هى التى تقرر مساواة الناس بلا تفرقة أو تمييز . إذ أن أساس المساواة عند لوك يرجع إلى أن الله قد وهب لكل إنسان عقلا خالياً من كل معرفة سابقة كى يفهم حياته وينظمها بطريقة تناسبه[٣] .

فكان لرفض الأفكار الفطرية عند لوك أثرها الكبير فى التبشير بالمساواة بين الأفراد من الناحية الاجتماعية والسياسية والدينية . وذلك بناء على تساويهم

---

(١) حياة الفكر فى العالم الجديد – دكتور زكى نجيب محمود . صفحه ٢٨ .

(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٩ .

(٣) Leslie Paul, The English Philosophers, p. III.

فى الطبائع الواعية

* * *

بذلك استخرج لوك من النظريات الطبيعية ما طبقه فى ميدان الفلسفة وما استغله فى ميدان السياسة والتنظيم الاجتماعى فيما بعد .

ويمكننا أن نذكر بكل حذر أن جون لوك لم يكن مبتكراً أو مبدعاً خلاقاً لهذه الآراء بقدر ما كان مطوراً للاتجاهات العلمية فى ذلك العصر مستنتجاً منها — مطبقاً لها فى مختلف الميادين . وأقول بكل حذر — لأن ذلك لا يقلل على الإطلاق من قيمته وأهميته وتأثيره فى عالم الفلسفة وميدان السياسة والأخلاق — فشأنه فى هذا شأن أى إنسان أو أى فيلسوف أو مصلح اجتماعى آخر . . يتأثر دائماً بالمجال الاجتماعى الذى يعيش فيه وبالتراث الفكرى والفلسفى والعلمى والثقافى الذى تلقاه عن الأجيال السابقة — ثم بظروف البيئة الموجود فيها . وحاجة تلك البيئة إلى تغيير ذلك التراث وتطويره بطريقة تتناسب وحاجة المجتمع إلى ذلك .

وما المصلح الاجتماعى إلا شخص استطاع بصفاء ذهنه ، ودقة إحساسه وعمق تفكيره وتفتح وعيه على المفهومات التى تنقص المجتمع وعلى الاتجاهات الكامنة فيه — أن يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الاتجاهات وأن يبلورها ويعبر عنها فى شكل مفهومات جديدة تتناسب مع حاجة المجتمع إليها .

ولقد استطاع جون لوك أن يفعل ذلك — فهو قد استطاع أن يلحظ الاتجاهات الجديدة فى المجتمع التى صاحبت التقدم العلمى الكبير — واستطاع أن يقدم لعصره هذه الاتجاهات فى شكل نوع جديد للفهم الإنسانى وطبيعته ومفهوم جديد لاتجاهاته التطورية فى إطار من فلسفة الحرية مستمداً أساس ذلك من العلوم الطبيعية عند كل من جاليليو ، نيوتن ، بويل .

الأساس التجريبي فى فلسفة لوك

(١) رفض الأفكار الفطرية

يمكن تلخيص أهم العوامل التى أثرت فى فلسفة لوك فى اتجاهين رئيسيين :

١ – اتجاه تجريبي علمى مصبوغ بالصبغة الحسية[١] .

٢ – اتجاه عقلى مصبوغ بالصبغة المثالية الميتافيزيقية .

إلا أن الاتجاه الأول الذى تأثر فيه بنيوتن وجاليليو وبيكون وهوبز – كان هو الاتجاه السائد فى أغلب مؤلفات لوك وأفكاره الفلسفية . فهو قد استطاع أن يبلور العناصر التجريبية فى الفلسفة اليونانية القديمة ، والاتجاهات التجريبية العلمية عند فرانسيس بيكون والاتجاهات الحسية عند جسندى وهوبز والمنهج الشكى المصبوغ بالصبغة العقلية عند ديكارت وصبغها بالصبغة العلمية السائدة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر – والتى كانت تتمثل فى فلسفة الطبيعة أو (الفلسفة الجديدة) فى ذلك الوقت – وقدمها فى شكل فلسفة تجريبية نقدية جديدة .

وكان أول ما ذهب إليه لوك . تطبيقاً لذلك الاتجاه التجريبي فى الفلسفة – هو رفضه لأهم مبادئ الاتجاه العقلى . أى إنكاره أن تكون المعرفة الإنسانية أولية فى العقل أو مفطورة فيه سابقة على كل تجربة .

كما كان الحال بالنسبة لأفلاطون الذى يعتبر الممثل الحقيقى لنظرية المعرفة الفطرية .

والذى ذهب فى محاورة فيدون إلى أن النفس أزلية أبدية – بمعنى أنها كانت قبل أن تهبط إلى هذا العالم وترتبط بالجسد – موجودة فى عالم آخر

---

(١) Morris, C.R., Locke, Berkeley and Hume, p. 8, (Oxford University Press, 1931).

أسمى من عالم المحسوسات ، هو عالم الخير والجمال والحق — عالم المثل الذى عرفت فيه جميع أنواع المعرفة[١] ثم حين ارتبطت بالجسد . أصبح الجسد بمثابة الغلالة التى حجبت عنها كل معرفة سابقة[٢] أى أن المعرفة ليست اكتشافاً لجديد بل مجرد تذكر لما كانت تعرفه من قبل[٣] .

« ولذا فإنك إذا ألقيت على شخص سؤالا بطريقة صحيحة — أجابك من تلقاء نفسه جواباً صحيحاً — فكيف استطاع ذلك ما لم تكن لديه من قبل به معرفة ومنطق مصيب[٤] » « لابد أن يكون قد تعلمها فى وقت آخر . طالما هو لم يكتسبها فى هذه الحياة . وهذا يعنى أن نفسه تعرف كل هذه الأشياء وغيرها معرفة أولية »[٥] .

ولذا فالتذكر كما يعرفه أفلاطون ليس سوى عملية لكشف ما قد طواه النسيان بفعل الزمن والإهمال[٦] .

* * *

وقد أيد أرسطو كذلك وجود المعرفة الأولية فى العقل حين أكد وجود المبادئ العقلية الأولية — وهى المبادئ الضرورية الواضحة بذاتها — والتى لا تحتاج إلى أى دليل أو برهان على صحتها[٧] فأكد وجودها فى العقل وجوداً ضرورياً أولياً .

وأرسطو بالرغم من أنه كان يميل إلى الاعتماد على الحواس والتجربة الحسية

---

(١) The Dialogues of Plato, Phaedo, p. 71 — (from the third Jowett translation, Oxford University Press, 1927).

(٢) نفس المرجع السابق — ص ٥٩ .

(٣) نفس المرجع السابق — ص ٦٧ .

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق — محاورة مينون ، صفحة ١٦٣ .

(٦) نفس المرجع السابق — محاوره فيدون ، صفحة ٦٨ .

(٧) Aristotle, Metaphysics, Book T, ch. IV, p. 125 (translated by John Warrington, London, 1956, Everyman's Library No. 1000).

على أنها هى السبيل الذى تستمد منه المعرفة وجودها[١] إذ لا شىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس [٢].

إلا أن هذه التجربة الحسية فى نظره لا تعتبر فى ذاتها غاية بقدر ما هى وسيلة توصل إلى المعرفة الحقيقية . وهى المعرفة بالماهيات [٣].

وحيث إن الماهيات ليست سوى تجريدات ذهنية يجردها العقل من الجزئيات فهى لن تكون موجودة إلا فى الذهن فحسب[٤] ويقوم الذهن بالبرهنة على صحتها وصدقها بالاستدلال أو الاستقراء .

ولما كان من المستحيل أن نجد برهاناً لكل شىء – وإلا فإن التسلسل فى البرهان سيستمر إلى ما لا نهاية[٥] فلا بد أن تكون هناك مبادئ كلية تعم جميع الموجودات بحيث نقف عندها أو نبدأ منها – يقينية واضحة بذاتها بحيث لا تحتاج إلى أى دليل أو برهان على صحتها أو صدقها[٦] هى المبادئ الأولى First Principles التى لا يمكن أن تستخلص من المحسوسات[٧] والتى لا يمكن أن يقام على صحتها البرهان لا بالقياس ولا بالاستقراء، لأنها أولية ولأنها ستكون الأساس الذى نبدأ به للبرهنة على أية معرفة[٨] .

وأهم المبادئ الأولية – مبدأ الذاتية ومبدأ التناقض ومبدأ الوسط المرفوع أو (الثالث المرفوع) [٩] .

ويتلخص مبد التناقض فى القول بأن الصفة الواحدة يمكن أن تحمل – وأن

---

(١) أرسطو – دكتور عبد الرحمن بدوى – ص ٦٥ – ٢٧ القاهرة ١٩٤٤ .
(٢) كتاب النفس لأرسطوطاليس – نقله إلى العربية دكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ١٢٠ط١
(٣) أرسطو – دكتور عبد الرحمن بدوى – ص ٦١ .
(٤) نفس المرجع السابق – ص ٢٤٨ .
(٥) نفس المرجع السابق – ص ٦٢ .
(٦) Aristotle, Metaphysics, Book T, ch. IV, p. 125.
(٧) أرسطو – دكتور عبد الرحمن بدوى – ص ٦٣ .
(٨) Aristotle, Metuphysics, Book T, ch. I, p. 116.
(٩) أرسطو – دكتور عبد الرحمن بدوى – صفحة ٦٥ .

لا تحمل – على نفس الموضوع فى نفس الوقت ومن نفس الجهة[١] .

فلا يقال مثلا إن الشىء الواحد موجود وغير موجود فى نفس اللحظة . . وهذا القانون يتضمن فعلا مبدأ الذاتية – فنحن إذ نتكلم عن الموضوع إنما نعنى به شيئاً معيناً لا يمكن أن يكون إلا هو نفسه . وهذا ما أوضحه أرسطو فى فكرته عن الجوهر .

أما قانون الثالث المرفوع فيتلخص فى أنه « لا وسط بين نقيضين وأن الصفة إما أن تكون مثبتة فى الموضوع أو منفية عنه »[٢] مثل قولى إن الوجود إما موجود وإما غير موجود . ولا وسط بينهما – وهذا القانون يعتمد على المبدأ السابق إذ ليس هو إلا مبدأ عدم التناقض فى صيغة شرطية[٣].

* * *

وكانت الفلسفة المدرسية كذلك تعترف بوجود الأفكار الفطرية . إذ كان البحث فى نظرية المعرفة من وجهة نظر الفلسفة المدرسية يعتمد على إظهار ما فيها من مبادئ فطرية – وكانت تستخدم تبعاً لذلك القياس منهجاً علمياً تعتمد عليه كل معرفة من حيث هو استخلاص نتائج معينة من مجموعة من البديهيات أو المبادئ المسلم بصحتها مثل المبادئ الرياضية (الكل مساو لمجموع أجزائه – أو أن الكل أكبر من أى جزء من أجزائه) – ومثل قوانين الذاتية وعدم التناقض . التى كانت تعتبر كلها مبادئ معروفة معرفة فطرية أولية . ex praecognitis ومتفق عليها من الجميع Praeconcessis والتى لم تكن بمثابة الحقائق أو البديهيات التى يعتمد عليها علم من العلوم فقط ، بل المعرفة الإنسانية بصفة عامة[٤] .

كما عرف الفلاسفة المسلمون كذلك نظرية الأفكار الفطرية – فيذكر الغزالى مثلا فى الرسالة اللدنية « أن العلوم مركوزة فى أصل النفوس بالقوة

---

(١) Aristotle, Metaphysics, Book T, ch. III, p. 124.

(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ١٤٢ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم – صفحة ١٧٣ – ط ٢ القاهرة ١٩٤٦ – .

(٤) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 186.

كالبذر فى الأرض والجوهر فى قعر البحر أو فى قلب المعدن »[١] بحيث تعلم النفوس أنها كانت عالمة فى أول الفطرة وصافية فى ابتداء الاختراع وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف . والإقامة فى هذا المنزل الكدر ، والمحل المظلم . وأنها لا تطلب بالتعلم إيجاد العلم المعدوم . ولا إبداع العقل المفقود . بل إعادتها العلم الأصلى الغريزى . . . وقد احتاجت النفس فى أثناء العمر إلى التعلم طبقاً لتذكارما قد نسيت . وطمعاً فى وجدان ما قد فقدت»[٢] وهو بهذا يقترب كثيراً من أفلاطون ونظريته فى التذكر .

وكان أفلاطونيو كمبردج يؤيدون فطرية المعرفة . فأرجع سمث فطرية الأفكار أو الحقائق الخالدة إلى طبيعة الروح الغير مادية ومعرفتها بها . وكان يرجعها هنرى مور إلى أن النفس كانت موجودة قبل أن يولد الإنسان وذلك حين كانت الروح تعيش فى عالم أرقى وأكثر صفاء[٣] مثل أفلاطون .

فإذا ما انتقلنا إلى الفلسفة الحديثة وجدنا أن ديكارت قد أيد وجود المعرفة الأولية حين اعترف بوجود الأفكار الفطرية . ويبدو ذلك جلياً من تقسيمه للأفكار إلى ثلاثة أنواع فطرية Inneés وعارضة أو طارئة Adventices ومؤلفة . مصنوعة Factices فيقول « هذه الأفكار يبدو بعضها مفطوراً فىّ ، وبعضها غريباً عنى ومستمداً من الخارج . والبعض الآخر وليد صنعى واختراعى» .[٤]

والأفكار الفطرية عند ديكارت غريزية بمعنى أنها ليست مستفادة من الحواس . ولا مركبة بالإرادة — إنما مرجعها إلى ما فينا من قوة على الفكر ولذا فهى أحوال ذهنية موجودة فى النفس قبل أى تجربة[٥] إلا أنها ليست

---

(١) الجواهر الغوالى — من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى — من الرسالة اللدنية ص ٣٢ — جمع وتحقيق محيى الدين الكردى — ط ١ — القاهرة ١٩٣٤ .

(٢) نفس المرجع السابق — ص ٣٨ .

(٣) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 241.

(٤) التأملات فى الفلسفة الأولى — التأمل الثالث — ترجمة دكتور عثمان أمين — ص ١٢٩ — القاهرة ١٩٥١ .

(٥) نفس المرجع السابق — هامش ص ١٢٩ .

مطبوعة فى الذهن أو مرتسمة فيه كأبيات الشعر فى الديوان . ولكنها فيه بالقوة كالأشكال فى الشمع — إنها فى عقل الطفل على نحو ما هى فى عقل الراشد حين لا يفكر فيها [١].

ويضرب ديكارت مثلا للأفكار الفطرية بالكوجيتو أو بمعرفة الإنسان لذاته فهوحين يقول أنا أفكر إذن فأنا موجود **Cogito ergo sum** إنما يعنى حقيقة عقلية ثابتة ضرورية لا يمكن الشك فى صحتها لأنه مهما شك فإن مجرد الشك يعنى التفكير . وبالتالى يعنى وجود الذات المفكرة .

إنها معرفة فطرية عند ديكارت لأننا لم ندركها بالحواس، ولم نبرهن على صحتها بالقياس أو الاستقراء — بل لأننا أدركناها بنوع من الغريزة العقلية هى النور الفطرى أو الحدس العقلى [٢] .

وحيث إن العقل السليم عند ديكارت هو أعدل الأشياء قسمة وتوزعاً بين الناس [٣] فإن هذه المعارف الفطرية بالإضافة إلى أنها ثابتة وضرورية فهى كذلك لابد وأن تكون عامة — بمعنى أن كافة العقول الإنسانية يكفى أن تعرفها بهذا الحدس العقلى — أما لوك فقد رفض هذه النظرية . وأفرد لذلك الغرض الكتاب الأول من « مقالة فى العقل البشرى » . إلا أن رفضه لها لم يكن رفضاً دوجماطيقياً لمجرد إحلال مذهب محل آخر . بل كان رفضاً واعياً يقوم على أساس من المناقشة وتفنيد الحجج والبراهين حتى إذا استبعدنا من أذهاننا ما هو باطل — استطعنا أن نتبين ما هو حق . وأن نبنى ما هو قائم على الحق .

ولم يكن عمل لوك هيناً . خاصة وأن نظرية المعرفة الفطرية — كانت قد ازدادت قوة بالرغم من اعتراضات جسندى وتابعيه أثناء القرن السابع عشر

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة — يوسف كرم — ص ٦٩ — القاهرة ١٩٤٦ .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) **Descartes, Discourse on Method, part I, p. 163 (in the world great thinkers, Philosophers of Science New York, 1954).**

سواء فى القارة الأوربية أو فى إنجلترا[١].

ويرجع ذلك إلى سيادة فلسفة ديكارت فى هذه الفترة . بالإضافة إلى ما ذهب إليه أفلاطونيو كمبردج من تأكيد فطرية الأفكار – وإلى ظهور فلسفة ليبنتز العقلية امتداداً للاتجاه العقلى الديكارتى ، وتأييده لوجود المعانى الفطرية فى عقل الإنسان .

وقد بدأ لوك فى الكتاب الأول من « مقالة فى العقل البشرى » بمناقشة هذه النظرية – فاستعرض الآراء القديمة والحجج والبراهين التى استخدمت لتدعيم هذه النظرية مفنداً إياها واحدة بعد الأخرى قائلا « إن هناك اعتقاداً قوياً ثابتاً عند بعض الناس يقول بوجود المبادئ الفطرية أو الأفكار الأولية كما لو كانت محفورة فيه أو مطبوعة عليه . تلقتها الروح منذ وجودها القديم وجاءت بها إلى هذا العالم »[٢] ويستطرد قائلا « ويكفى لكى أقنع القارئ غير المتحامل بكذب هذا الاعتقاد أن أبين له – كيف أن الناس يمكنهم أن يصلوا إلى كل مالديهم من معرفة بواسطة استخدام قدراتهم الطبيعية فقط ، وبدون الحاجة إلى أى انطباعات فطرية – بل يمكنهم كذلك أن يبلغوا اليقين بدون الاعتماد على مثل هذه الأفكار أو المبادئ الأولية »[٣] ولكن من هم هؤلاء الذين يقصدهم لوك بقوله إنهم كانوا يعتقدون فى فطرية المعرفة ؟ لم يشر لوك إلا إلى اللورد هيربرت أوف شيربورى[٤] الذى ذكر فى كتابه « فى الحقيقة» "De Veritate" إن هناك خمسة مبادئ عملية معروفة للجميع معرفة فطرية[٥] ولذا راح كثير من الكتاب يفسرون ما كان يعنيه لوك بهؤلاء الناس–فيقول فون هيرتلج Von Hertling إن لوك كان يقصد بعض أفلاطوني كمبردج حينما تكلم عن مؤيدى فطرية

---

(١) Aaron, R.I., John Locke, p. 70.

(٢) Essay, B. I, ch. II, Sec. I, p. 12.

(٣) نفس المرجع السابق – نفس الموضع

(٤) O'connor, D.J., John Locke, p. 39.

(٥) Aaron, R. I., John Locke, p. 74.

المعرفة [١] مستشهداً على ذلك بأن بعض أفلاطونيي كمبردج كانوا يعتقدون فى فطرية المعرفة — مثل المبادئ الفطرية التى ذكرها هنرى مور [٢] واعتبروا معرفتنا بها معرفة أولية . وأنها كانت هى ذاتها — نفس المبادئ التى ناقشها لوك فيما بعد مبيناً فسادها[٣] .

ويرى جيبسون أن لوك إنما كان يقصد مدرسى الجامعات فى ذلك الوقت بهجومه [٤] والدليل على ذلك أن هؤلاء وخاصة الذين حملوا التراث المدرسى منهم ودافعوا عنه كانوا يعتقدون أن المعرفة تبدأ بمبادئ أولية Maxims يمكننا أن نستنتج منها بقية الحقائق استنباطاً وأن هذه المبادئ معروفة للناس جميعاً معرفة فطرية أولية بحيث لا يمكن أن يرقى إليها الشك[٥] بينما رأى فولتير فى رسائله الفلسفية أن لوك لم يكن يقصد سوى ديكارت والديكارتية بهجومه[٦] وخاصة بعد أن نسب فولتير إلى ديكارت قوله إن الروح حينما تدخل الجنين عن طريق الأم، إنما تحمل معها بعض الحقائق مثل مبدأ الذاتية بالإضافة إلى امتلاكها القدرة على التفكير [٧].

ومن المرجح أن نقد لوك كان موجهاً إلى أفلاطونيي كمبردج ، وكل من تأثر بالأفلاطونية بالذات — إذ أن قوله « بأن الاعتقاد الثابت عند بعض الناس هو أنه توجد فى العقل بعض المبادئ الفطرية والأفكار الأولية — كما لو كانت مطبوعة عليه — تلقتها الروح منذ وجودها القديم وجاءت بها إلى هذا

---

(١) نفس المرجع السابق — ص ٧٦ .

(٢) أحد أفلاطونيي كمبردج — الذى ذهب فى الفصل السابع من كتابه An Antidote against Atheism إلى أن الأفكار الفطرية — لا بد وأن تكون موجودة فى النفس بالفعل ولكن بطريقة ضمنية .

(٣) Aaron, R. I., John Jocke, p. 81.

(٤) نفس المرجع السابق — ص ٧٦ .

(٥) نفس المرجع السابق — ص ٨١ .

(٦) نفس المرجع السابق — ص ٧٧ .

(٧) نفس المرجع السابق — ص ٧٩ .

العالم[١] » يتفق تماماً مع ما ذهب إليه أفلاطون فى محاورتى « مينون » و « فيدون » ومع نظريته فى المثل وفى التذكر .

ومما يؤيد ذلك ما ذهب إليه فندلباند[٢] من أن نقد لوك لدعاة المعرفة كان موجهاً إلى الأفلاطونية الجديدة الإنجليزية — أكثر من كونه موجهاً لديكارت والديكارتية — وخاصة لمناقشة لوك للمبادئ التى ذهب إليها أفلاطونيو كمبردج واعتقدوا فى فطريتها — سواء النظرى منها أو العملى مثل المبادئ التى أيد فطريتها هنرى مور .

وبعد أن ينتهى لوك من عرض مشكلة المعرفة الفطرية — يبدأ فى مناقشتها باستعراض مختلف الحجج والبراهين التى ذكرت لتأكيدها وإثبات صحتها — مبتدئاً بحجة الإجماع General Assent فيقول «أن ليس هناك شيء مسلم به أكثر من القول بوجود مبادئ معينة — نظرية وعملية — متفق عليها بين جميع أفراد الناس . وهم لهذا يزعمون أنها لابد أن تكون انطباعات دائمة تلقتها أرواح الناس وأحضرتها معها إلى هذا العالم[٣] » .

ويرفض لوك هذه الحجة فيقول : « إن هذا الدليل الذى يسوقونه للبرهنة على وجود أفكار فطرية فى الإنسان بناء على وجودها عند جميع أفراد الناس — واتفاقهم أو إجماعهم عليها ، ليست صحيحة»[٤] . إذ ليست هناك أفكار يتفق عليها كل الناس ويجمعون على صحتها . ويضرب لذلك مثلا ببعض المبادئ التى كانت تعتبر فى نظرهم أولية غير مكتسبة . وقد لخص لوك هذه المبادئ الأولية فى قسمين . عملية ، نظرية . أما العملية فهى الخاصة بالأخلاق والدين مثل «أنه تجب عبادة الله God is to be worshipped وهو أحد مبادئ هيربرت

---

(١) Essay, B. I, ch. II, sec. I, p. 12.

(٢) Windelband, W., A History of Philosophy, Vol. 2, p. 450, (Harper Torchbook edition, New York, 1958).

(٣) Essay, B. I, ch. II, sec. 2., p. 12.

(٤) Ibid, B. I, ch. II, sec. 3, p. 12.

أوف شيربورى العملية الخمسة التى ذكرها فى كتابه « فى الحقيقة »[١]
وأما النظرية فهى مثل مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض اللذين ذكرهما أرسطو فى ميتافيزيقاه — ويبدأ لوك بمناقشة المبادئ النظرية مثل أن الشىء هو نفسه دائماً . وأنه من المستحيل على الشىء الواحد أن يكون وألا يكون فى نفس الوقت، على أساس أنها مبادئ أساسية مشهورة متفق عليها من الجميع لدرجة أننا ندهش أحياناً حين يناقشها أحد أو يتساءل عن مدى صحتها . قائلا « إننى أعتقد أن هذه المبادئ لا تحظى بالموافقة الإجماعية لأنها ليست معروفة لعدد كبير من الأفراد »[٢] .

ويستشهد على ذلك بأن المجانين والأطفال لا يعرفونها[٣] وهذا كفيل فى نظره لنقض تلك الحجة السابقة — إذ كيف لا يدركها هؤلاء ما دامت مطبوعة فى عقولهم فيقول « إنه ليبدو لى شيئاً متناقضاً . حين أقول إن هناك شيئاً مطبوعاً فى العقل، وهو فى نفس الوقت غير مدرك . لأن هذا الطبع imprinting إن كان يعنى شيئاً فلن يعنى أكثر من وجود حقائق معينة فى العقل بحيث لابد وأن يدركها ويكون بها واعياً . لذلك نجد أنه من الصعب علينا أن نفهم أن يكون هناك شىء فى العقل مطبوع فيه أو مفطور — والعقل فى نفس الوقت لا يدركه .

فإذا كان للأطفال والمجانين عقول طبعت عليها هذه الانطباعات . فهم لابد أن يدركوها ويوافقوا على صحتها بالضرورة بينما الواقع على خلاف ذلك . لذا نقول أن ليس هناك مثل هذه الانطباعات لأنها إذا لم تكن أفكاراً مطبوعة فى العقل بطبيعتها . فكيف تكون فطرية ؟ وإذا كانت مطبوعة فيه بطبيعتها فكيف تكون غير معروفة ؟ إن قولك إن هناك فكرة مطبوعة فى العقل . ثم قولك فى نفس الوقت إن العقل جاهل بها جهلا تامًّا ولم يلحظ وجودها

---

(١) Aaron, R. I., John Jocke, p. 74.

(٢) Essay, B. I, ch. II, sec. 4, p. 13.

(٣) Essay, B. I, ch. II, sec. 5, p. 13.

أو يلتفت إليها بالمرة — معناه أن هذه الفكرة أو هذا الانطباع ليس شيئاً على الإطلاق »[١] .

ثم يعرض لوك لحجة ثانية يذكرها دعاة المعرفة الفطرية الذين يزعمون « أن جميع الناس يعرفون هذه المبادئ ويوافقون عليها حين يبدءون فى استخدام العقل . . وهذا وحده كاف لإثبات فطريتها فى نظرهم . . »[٢] .

والواقع أن هذه الحجة قريبة الشبه بفكرة القوة والفعل عند أرسطو — فالأفكار بهذا المعنى موجودة بالقوة فى عقل الإنسان — لذلك لا يكون الطفل مدركاً لها أو واعياً بوجودها . وحالما يبدأ الإنسان فى استخدام عقله . يبدأ فى معرفة هذه الأفكار أو المبادئ فيصبح وجودها فى العقل بالفعل .

إلا أن لوك يرد عليهم اعتراضهم بقوله : إن هذا يعنى أحد أمرين :

١ — إما أن الإنسان حالما يبدأ فى استخدام عقله فإن هذه الانطباعات المفروض فطريتها تظهر فيعرفها العقل ويلحظ وجودها .

٢ — وإما أن استخدام الناس لعقولهم يساعدهم على اكتشاف هذه المبادئ ويجعلها معروفة معرفة أكيدة لديهم . . .[٣]

وهو يرفض كلا الفرضين « لأن عقل الإنسان لا يكتشف تلك المبادئ — وحتى لو كان كذلك فهذا لا يثبت فطريتها»[٤] فيقول « لو فرض أن العقل قد اكتشف بعض المبادئ الرياضية الأولية التى يزعمون فطريتها مثل أن الشىء هو هو . وأنه لا يساوى إلا نفسه — ثم استنتج منها بعض النظريات الرياضية — فهذا يعنى أن الإنسان قد اكتشف فى عقله ما كان مفطوراً فيه من مبادئ ونظريات ما دامت وظيفة العقل على حد زعمهم هى اكتشاف ما كان موجوداً فيه من مبادئ وما كان مفطوراً فيه من أفكار .

وهذا يعنى ألا فرق هناك ولا اختلاف بين المبادئ الأولية للرياضة وبين

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) Ibid, B. I, ch. II, sec. 6, p. 14.

(٣) Ibid B. I, ch. II, sec. 7, p. 14.

(٤) Ibid., B. I, ch. II, sec. 8, p. 14.

النظريات المستنتجة منها . حيث إن كلا منهما فطرى . . . وهذا خطأ كبير لأن الاختلاف واضح بين هذه وتلك »[١] .

وهو بهذا يؤكد خطأ القول بأن اكتشاف العقل لهذه المبادئ يدل على فطريتها ، بل إنه يؤكد أن العقل لا يكتشفها على الإطلاق « لأن العقل نفسه ليس إلا قدرة أو وظيفة تقوم باستدلال حقائق غير معروفة — أى مجهولة — من مبادئ أخرى معروفة من قبل . . فكيف يظن هؤلاء الناس أن استخدام الإنسان لعقله سيؤدى به بالضرورة إلى اكتشاف مبادئ يفترضون فطريتها ؟ »[٢]

إن الإنسان حين يستخدم عقله ويعرف هذه المبادئ والأفكار هو فى الواقع يستنتجها استنتاجاً أو يستدلها من بعض الأفكار الأخرى — وبالتالى فلن يكتشف العقل ما كان فيه من قبل ، وبالتالى فلن تكون هذه الأفكار فطرية فيه[٣] .

ومن الواضح أن وجه الاختلاف بين هؤلاء وبين لوك . إنما يرجع إلى فهم كل منهم لمعنى العقل ووظيفته — لأنها عندهم الاكتشاف . بينما هى عنده الاستنتاج . . . هى عندهم اكتشاف ما كان موجوداً فيه من قبل أولياً مفطوراً بينما هى عند لوك استنتاج أشياء لم تكن معروفة من أخرى كانت معروفة .

ويدلل لوك على هذا قائلا من جديد « لأنه إذا كانت هذه المبادئ مطبوعة فى الإنسان قبل أن يستخدم عقله . فأحد أمرين :

١ — إما أن يكون العقل بها عالماً أو جاهلا — فإذا كان بها عارفاً . . فباستخدام الإنسان له سيعرف ما كان يعرفه من قبل . وهو فى هذا لن يكتشف شيئاً جديداً .

٢ — أما إذا كان العقل بها جاهلا ثم عرفها بعد ذلك فهذا إما :

(ا) يدل على أنها ليست فطرية لأنه من المستحيل أن تكون هناك أفكار فى عقلى أنا ولا أعرفها .

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) Essay, B. I, ch. II, sec. 9, p. 15.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(ب) أو يدل على أن العقل يعرف هذه المبادئ ولا يعرفها فى نفس الوقت »[١] وهذا خلف .

وقد أدرك لوك أهمية تحديده لمعنى العقل – والنتائج التى ترتبت على ذلك فنراه يقول « إن من يلحظ بشىء من الاهتمام عمليات العقل سوف يجد أن قابلية الإنسان العقلية للموافقة على بعض الحقائق – لا ترجع إلى وجود انطباعات فطرية فيه – ولا إلى اكتشاف العقل لها حين يبدأ الإنسان فى استخدامه . إنما ترجع إلى وظيفة العقل نفسه وهى مستقلة تماماً عن الفرضين السابقين» .[٢]

وكما رفض لوك فطرية المبادئ النظرية – رفض كذلك العملى منها [٣] ضارباً مثلا بأحدها وهو مبدأ هيربرت القائل « بأن الله تجب عبادته » مؤكدا أن فكرة العبادة ليست فكرة مفطورة – أما فيما يتعلق بفكرة الألوهية فيبين أن هناك كثيراً من الأفراد بل والأمم لم تدرك أو لم تصل بعد إلى فكرة الله . بل وحتى بين هؤلاء الذين يدركونها – نجد أن هناك اختلافاً فى طبيعة هذه الفكرة .

فكيف يكون هذا – إذا كانت فكرتنا عن الله مطبوعة فى عقول الناس منذ البداية ؟ أنه من المؤكد ألا تكون هذه الفكرة مفطورة فى نفوسنا . وبناء على ذلك – إذا لم تكن فكرتنا عن الله مفطورة – فمن غير المعقول أن تكون هناك أى أفكار أخرى فطرية[٤] وعلى ذلك فهذه المبادئ سواء كانت نظرية أو عملية ليست مفطورة فى الإنسان .

وإلا فهل يستطيع أى شخص أن يقول بأن فكرتى الذاتية والاستحالة impossibility فكرتان مفطورتان فى نفوسنا ؟ هل هما موجودتان فى عقول الأطفال أولياً بحيث يسبق وجودهما وجود جميع الأفكار الأخرى المكتسبة ؟

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٢) Essay, B. I, ch. II, sec. II, p. 16.

(٣) Ibid, B. I, ch. III, sec. I, p. 26.

(٤) Aaron, R. I., Jahn Locke, p. 74.

هل يستطيع الطفل أن يكون أية فكرة عن حقيقة الذاتية أو الاستحالة قبل أن يعرف الأبيض والأسود والحلو والمر ؟[١]

إذن من أين جاءتنا هذه الأفكار الموجودة فى عقولنا . والتى بناء عليها أمكننا أن نقول إننا نعرف كذا وكذا ، ما لم تكن مفطورة فى عقولنا ؟ يقول لوك إننا استنتجناها واستدللنا عليها من أفكار أخرى سابقة معروفة لدينا . طالما كانت وظيفة العقل هى الاستدلال لحقائق غير معروفة من مبادئ أخرى معروفة من قبل[٢] وهذه نستنتجها من أخرى أسبق . . . وهكذا .

ولكن لابد وأن تكون هناك بداية لهذا الاستدلال . أى لابد من وجود حقائق أو أفكار . تكون بمثابة الحلقة الأولى فى هذه السلسلة الطويلة من الاستنتاجات . . . من أين أتت إذن هذه الأفكار التى تبدأ منها معرفتنا — إذا لم تكن مفطورة فينا ؟

يذكر لوك صراحة أن أى فكرة تتولد فى الذهن إنما ترتد إلى مصدر واحد فقط هو التجربة أو الخبرة Experience[٣].

فالإنسان يولد وعقله يشبه الصفحة البيضاء الخالية من أى معان أولية أو أى أفكار فطرية . وحالما يبدأ فى الإحساس ، تنتقش عليه الانطباعات الحسية المختلفة « ويبدأ فى تكوين أفكار عنها » وعلى ذلك فالعقل يستمد كل خبراته ومعلوماته من التجربة وبها وحدها — لذلك يقول لوك إذا سألنا سائل عن شخص ما « متى بدأ يفكر . فلا بد وأن يكون الجواب — حالما بدأ يحس[٤] » .

وعلى ذلك فالإحساس سابق على التفكير وليس هناك شىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس .

---

(١) Essay, B. I, ch. IV, sec. 3, p. 42.

(٢) Ibid B. I., ch. II, sec. 9, p. 15.

(٣) Ibid, B. II, ch. I, sec. 2, p. 59.

(٤) Ibid, B. II, ch. I, sec. 23, p. 69.

إلا أن هذا لا يعنى أن تكون فلسفته فلسفة حسية بحتة . فهو حين يتكلم عن معرفتنا بالمبادئ النظرية أثناء مناقشته لها — واضح جداً أنه لا يعنى بهذه المعرفة أن تكون معرفة حسية بالمعنى الدقيق[١] . إذ بجانب هذه المعرفة الحسية — هناك المعرفة الحدسية .والبرهانية[٢] .

إذن فكيف نفسر التعارض بين رفضه للمعرفة الأولية وبين قوله بأن هناك نوعاً من تلك القضايا المنطقية سواء كانت فكرية أو لغوية تعرف باسم المبادئ الأولى Maxims خارجة عن نطاق العلم أو البحث العلمى — واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى أى دليل أو برهان على صحتها للدرجة أن البعض يعتبرها مبادئ عامة فطرية مسلم بصحتها[٣] — بين مقدماته التى توحى بإنكار الفطرية من حيث هى مبدأ فلسفى للمعرفة — فى الفصل الثانى من الكتاب الأول من « مقالة فى العقل البشرى » وبين إمكان المعرفة بالنسبة لبعض المبادئ أو البديهيات والقضايا ، معرفة واضحة بذاتها بحيث لا تحتاج إلى دليل أو برهان — فى الفصل السابع من الكتاب الرابع من « مقالة فى العقل البشرى » — يمكن تفسير ذلك فى ضوء فهمنا لمعنى فكرة الأولية a priori عند لوك . فهو يرفض رفضاً باتاً كل معرفة أولية بمعنى أن تكون موجودة فى عقولنا أو مطبوعة عليها قبل أن نولد أو أن تكون سابقة على التجربة الحسية ، إذ العقل فى نظره صفحة بيضاء ساعة الميلاد ليس فيه أى معرفة سابقة . إنما معنى هذه الأولية هى أن هناك بعض المبادئ أو البديهيات التى يدرك العقل وضوحها وصدقها إما بالحدس أو البرهان — وضوحاً يجعل الناس تظن أنها مفطورة فى العقل ، مثل فكرة الذاتية التى يعتبرها لوك مبدأ أساسياً تعتمد عليه جميع العمليات العقلية — بل هى أول عملية يقوم بها العقل حالما يصبح مزوداً بأى إحساسات أو أفكار[٤].

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 84.

(٢) Essay, B. IV, ch. IX, sec. 2, p. 527.

(٣) Ibid, B. IV, ch. VII, sec. I, p. 505.

(٤) Ibid, B. IV, ch. I, sec. 4, p. 424.

وعلى ذلك فإنكار لوك لمعنى الفطرية . . ينصب على المبادئ نفسها لا على قدراتنا العقلية . بمعنى أن هذه المبادئ الأولية ليست فطرية فينا وليست أولية بمعنى أسبقيتها على التجربة الحسية ولكنها صحيحة وواضحة بذاتها ويقينية لأن عندنا من القدرات العقلية ما يسمح لنا بإدراكها بهذا الوضوح والتسليم بها بهذه الدرجة من اليقين سواء عن طريق الحدس أو البرهان(١) .

وأهمية رفض لوك لفطرية المعرفة أنه جعلها قاعدة عامة يبدأ منها ليبنى ما هو قائم على الحق والصواب . فكانت بذلك أول معول من معاول هدم الاتجاهات المثالية والعقلية القديمة . وأصبحت فى نفس الوقت تدعيماً لأول درجه من درجات سلم الاتجاهات التجريبية والحسية والواقعية الجديدة .

فالبداية التى بدأ بها لوك برفضه لفطرية المعرفة . وقوله بأن الإحساس سابق على التفكير هى نفس البداية التى بدأ بها هيوم فلسفته فى كتابه « مقالة فى الطبيعة الإنسانية A Treatise of Human Nature » ورده لجميع الأفكار الموجودة فى العقل إلى الإحساس(٢) وهو فى هذا الصدد يقول « إن إدراكات العقل البشرى بأسرها تنحل من تلقاء نفسها إلى نوعين متميز أحدهما عن الآخر وسأطلق عليهما لفظى انطباعات وأفكار — وينحصر الفرق بين هذين النوعين فى درجات القوة والحيوية اللتين يطبعان بهما العقل ويلتمسان بهما الطريق إلى فكرنا أو شعورنا . فأما الإدراكات التى ترد إلينا بأبلغ القوة والعنف فلنا أن نسميها « بالانطباعات » وأنى لأجمع تحت هذا الاسم كل إحساساتنا وعواطفنا وانفعالاتنا عندما تظهر للمرة الأولى فى النفس — وأما لفظة الأفكار فأعنى بها ما يكون فى التفكير والتدليل العقلى من صور خافتة لتلك الإحساسات والعواطف والانفعالات » .(٣)

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 71.

(٢) David Hume, A Treatise of Human Nature, B. I, Part I, sec. I, p. II (Everyman's Library No. 548) vol. I.

(٣) ديفيد هيوم — سلسلة نوابغ الفكر الغربى . دكتور زكى نجيب محمود . ص ١٧١ — القاهرة ١٩٥٨ .

فإذا لم يكن هناك فرق بين الانطباعات والأفكار إلا فى الدرجة والقوة والوضوح – فإن الأفكار ترتد فى أصلها إلى الانطباعات الحسية – وعلى ذلك فهيوم يرد كل معرفة إلى الإحساس – والإحساس فقط – وعلى ذلك فهو يرفض أن تكون هناك فى الذهن أية معرفة فطرية سابقة على الإحساس . فإذا كان ذلك كذلك – فلن تكون هناك أية معرفة فطرية مطبوعة على العقل منذ القدم – ولن تكون هناك مبادئ أولية ضرورية مسلم بصحتها بين جميع الناس مثل قانون الذاتية أو مبدأ العلية . إذ لن يكون هناك فى العقل إلا ما هو صادر عن الحس والتجربة الحسية .

(ب) معنى التجربة عند لوك

إذا قلت إن التفاحة فاكهة حمراء مستديرة حلوة الطعم . فإن هذا يعنى أن هناك فى ذهنى مجموعة من الأفكار مثل فكرة الاحمرار أو اللون الأحمر التى تنطبق على التفاحة وغيرها كالوردة مثلا – وفكرة الاستدارة التى تنطبق على التفاحة وغيرها كالبرتقالة والكرة مثلا ، وفكرة الحلاوة فى المذاق التى تنطبق على التفاحة وغيرها كالكمثرى والبرتقال .

ويعنى كذلك أن هذه الأفكار ارتبطت جميعاً فى ذهنى حول محور واحد أو جوهر واحد كان هو العامل المشترك فى ربط هذه الأفكار أو الصفات بعضها مع بعض فى عقلى بحيث أمكننى أن أقول إن التفاحة حمراء مستديرة حلوة الطعم .

فإذا ما تساءلنا :

١ – هل عرفت أن التفاحة تتصف بتلك الصفات السابقة لأن فى ذهنى معرفة أولية سابقة عن معنى الاستدارة والحلاوة والاحمرار بحيث إننى حين أدركت التفاحة تذكرت فى الحال هذه المعرفة السابقة التى كانت مطبوعة فى

عقلى والتى تلقتها الروح منذ القدم وأحضرتها معها إلى هذا العالم فأمكننى بناء على هذه المعرفة السابقة أن أصف التفاحة بما كنت أعرف من قبل ؟

٢ – أو أننى عرفت أن التفاحة تتصف بتلك الصفات لأننى حين رأيت الكرة وأدركت لها شكلا سميته بالشكل المستدير – ثم حين رأيت البرتقالة أدركت أن لها نفس الشكل الدائرى بحيث إننى حين رأيت التفاحة عرفت أن لها نفس الشكل الذى ينطبق على الكرة والبرتقالة فأطلقته عليها أيضاً وقلت إن التفاحة مستديرة . وهكذا بالنسبة لبقية الصفات الأخرى كالاحمرار والحلاوة وغيرها ؟

كانت الإجابة على السؤال الأول بالإيجاب – بمثابة تلخيص للاتجاه المثالى الذى أنكره لوك – والذى يمكن إيجازه فى أن المعرفة قبلية a priori أى سابقة على التجربة الحسية .

بينما يلخص الرد بالإيجاب على السؤال الثانى الاتجاه التجريبى الذى سار فيه لوك والذى يتلخص فى أن المعرفة الإنسانية معرفة بعدية a posteriori أى تأتى فى مرحلة تالية أو متأخرة عن التجربة الحسية .

والواقع أن أى خبرة فى نظره لابد أن ترتد فى أساسها الأول إلى الإحساس وتعتمد اعتماداً مبـــاشراً على التجربة الحسية . وهى ليست أكثر من تلقى الانطباعات الحسية ونقلها إلى الصفحة البيضاء – أى العقل[1] Tabula Rasa .

فأنا حين أدرك أن أمامى زهرة حمراء مثلا . فإن هذا يعنى أننى قد استقبلت عدة انطباعات حسية متتالية مثل شكل ولون ورائحة ودرجة صلابة الزهرة بحيث تجمعت كلها معاً فكونت فى ذهنى صورة لهذه الزهرة .

وشأن العقل فى هذا شأن الصفحة البيضاء فى نظر لوك . . . مثل هذه الصفحة التى أكتب عليها الآن – كانت خالية من كل كتابة – ثم كتبت عليها بعض الحروف ولتكن ك . ل . و . – ووجه الشبه هنا أن هذه الصفحة البيضاء قبل الكتابة عليها تشبه العقل قبل تلقى الانطباعات الحسية . وهذه

---

(١) Essay, B. II, ch. I, sec. 3, p. 60.

الحروف التى كتبتها على الصفحة تشبه الانطباعات الحسية المتتالية المنفصلة التى تنطبع على العقل بفعل الإحساس .

فإذا ارتبطت هذه الحروف المختلفة بعضها مع بعض بطريقة خاصة ولتكن بالشكل الآتى (لوك) أصبحت كلمة لها معنى . وهى أنها تدل على جون لوك الفيلسوف الإنجليزى الذى ولد سنة ١٦٣٢ وتوفى سنة ١٧٠٤ .

كذلك إذا ارتبطت هذه المعطيات الحسية فى العقل بعضها مع بعض فإن هذا الربط يجعل منها شيئاً مفهوماً له معنى أو صورة ذهنية لها مفهوم واضح .

وكما أن هذه الحروف المختلفة لو ظلت مكتوبة على الصفحة البيضاء بلا رابطة تربطها ، منفصلة متباعدة — لما أدت وظيفتها ولما كان لها معنى معلوم .

فكذلك هذه الانطباعات الحسية المختلفة المتتالية ، لوظلت منفصلة متباعدة لما استطعنا أن نكوّن منها صوراً ذهنية أو أفكاراً ، وبالتالى لما أدت وظيفتها ولما كان لها معنى مفهوم .

وما قيمة هذه الصفحة البيضاء إذا لم أكتب عليها كلاماً له معنى ؟ ليس لها قيمة — لأن قيمتها تتحدد حسب معانى الكلمات التى أكتبها عليها . لأحسب الحروف المتباعدة المنفصلة التى لا تؤلف أى كلمة وبالتالى لا تؤدى أى معنى .

وما قيمة هذه الحروف المنفصلة إذا لم تنتظم فتصبح ألفاظاً لها دلالات ومفهومات ؟ كذلك ما قيمة هذا العقل إذا لم أكون فيه صوراً ذهنية وأفكاراً ؟ ما قيمته إذا كان مجرد إناء تزدحم فيه وتتراكم هذه المعطيات الحسية ؟ ليس له قيمة . لأن قيمته تتحدد حسب الصور الذهنية والأفكار التى أكونها فيه ، لا حسب الانطباعات الحسية المتباعدة المنفصلة التى لا تكوّن أى صورة ذهنية أو فكرة .

وما قيمة هذه الانطباعات الحسية المنفصلة إذا لم تنتظم فتصبح إدراكاً حسيًّا له معنى ؟ لابد وأن تنتظم هذه الحروف فتصبح كلمة لها دلالة ولها مفهوم

وبالتالى تكون للصفحة المكتوب عليها هذه الكلمة قيمة .

كذلك لابد وأن تنظم هذه الانطباعات الحسية فتصبح صورة ذهنية أو فكرة لها معنى ولها مفهوم وبالتالى يكون للعقل فى هذه الحالة قيمة .

من هذه المقارنات السابقة يتضح أن لوك قد نجح إلى حد كبير فى هذا التشبيه إلا أن هناك وجهاً للاختلاف واضحاً بين هذه الصفحة البيضاء وبين العقل . لأن العقل هو الذى كوّن من هذه الانطباعات الحسية المنفصلة أفكاراً لها معنى – بينما لم تقم الصفحة البيضاء بربط هذه الحروف المنفصلة وتجميعها فى شكل لفظ له مفهوم .

وهذا معناه أن الصفحة البيضاء وظيفتها مقصورة على الناحية السلبية فقط . أى مجرد تلقى – واستعداد لاستقبال كل ما يكتب عليها فقط – ولذلك فهى مستقبلة .

بينما للعقل وظيفة أخرى . بالإضافة إلى الناحية السلبية التى يقوم فيها بتلقى الانطباعات الحسية – وظيفة أخرى إيجابية يقوم فيها بربط هذه الانطباعات الحسية لتكوين صورة ذهنية أو فكرة عن المدركات الحسية .

ولذلك فتشبيه الصفحة البيضاء الذى شبه به لوك عقل الإنسان لا يكون صحيحاً إلا إذا قصرنا معناه على الناحية السلبية فقط . ثم أضفنا إليه فاعلية التفكير

ولذا فإن أى معرفة لابد أن تعتمد فى نظر لوك على كل من الإحساس والتفكير معاً . ولذلك فالتجربة عنده نوعان :

(ا) تجربة حسية :

تعتمد على الإحساس وتقوم على تلقى الانطباعات الحسية على العقل الذى يشبه الصفحة البيضاء .

(ب) تجربة باطنية :

وتعتمد على التفكير وتقوم على ربط هذه الإحساسات وتكوين أفكار عنها .

وبهذا تختلف معنى التجربة عند لوك — عن معناها عند الفلاسفة الحسيين الذين كانوا يغالون فى اتباع النزعة الحسية باعتبار الحواس مصدراً للمعرفة مثل توماس هوبز فى إنجلترا وكوندياك فى فرنسا وغيرهما ممن كانوا يخضعون كل تجربة وخبرة للحواس فقط — أما لوك فقد توسع فى معناها فجعلها بالإضافة إلى الحس شاملة كذلك للتفكير .

إلا أن توسع لوك فى معنى التجربة بهذا الشكل — أفضى به إلى القول والاعتراف ببعض المفهومات الميتافيزيقية — بالرغم من إنكاره لأغلب مفهومات الاتجاه العقلى ، وخاصة الأفكار الفطرية والمعرفة الأولية كما ذكرت — مثل اعترافه بفكرة الجوهر — سواء المادى منه أو الروحى — تلك الجواهر التى يفترض وجودها مختفية وراء المظاهر الخارجية للأشياء والتى لا يمكن إدراكها بأى حال بالحس — بل بالبرهان العقلى .

ومع ذلك فتلك الأفكار الميتافيزيقية — التى ما قال بها لوك إلا لكى يثبت وجود الله — كانت ضعيفة بجانب الاتجاه العام السائد فى فلسفته « أى الاتجاه التجريبى » — فهو وإن كان قد اعترف بصحة وصدق هذه الأفكار إلا أن مدى هذا الصدق — لم يكن يبدو مريحاً له إلى حد كبير [١] . كما سيتضح ذلك من مناقشة أنواع المعرفة عنده ودرجات اليقين فيها .

---

(١) Russell, B., History of Western Philosophy, p. 633. (London, Allen & Unwin, Fourth edition 1954).

الباب الثانى

تحليل الفكر عند لوك

الفصل الأول

تكوين الأفكار

كان اهتمام لوك كبيراً بتحليل الفكر ورده إلى عناصره الأولى — وقد أفرد لهذا الغرض الأبواب الأولى من « مقالة فى العقل البشرى » .

وحيث إن عقل الإنسان فى نظره يشبه الصفحة البيضاء الخالية من كل الأفكار ، العارية عن كل الخصائص والصفات .

فإن أى فكرة توجد فى الذهن إنما ترجع إلى مصدر واحد فقط هو التجربة أو الخبرة Experience فعليها فقط تقوم كل معرفة ومنها فقط تستمد كل عناصرها[1]

والتجربة بصفة عامة فى نظر لوك تعتمد على الملاحظة التى تنقسم قسمين :

(ا) ملاحظة خارجية وموضوعية External and objective

(ب) ملاحظة داخلية وذاتية Internal and subjective

الأولى تعتمد على إدراك الإنسان للمدركات الحسية الخارجية الموضوعية بينما الثانية تقوم على ملاحظة الإنسان لعملياته العقلية الداخلية ، ولكل ما يدور فى ذهنه من أفكار وانطباعات . . بحيث تكمل كل منهما الأخرى فتتم المعرفة .

والملاحظة الخارجية هى الأسبق فى نظر لوك ، « إذ أن أول مصدر يزود عقولنا بالأفكار هو موضوعات الحس — فحواسنا الواعية بالموضوعات الجزئية المحسوسة ، والمدركة لها — توصل لعقولنا إحساسات مختلفة متعددة عن الأشياء تبعاً لاختلاف

---

(١) Essay, B. II, ch. I, sec. 2, p. 59.

وتعدد الوسائل التى تؤثر بها هذه الأشياء فى تلك الحواس . . .[١] ولذلك يمكنا أن نصل إلى تكوين أفكارنا عن جميع الخصائص والصفات المحسوسة مثل اللون والحرارة والبرودة . . . إلخ التى نقلتها الحواس إلى عقولنا . . . هذا المصدر الكبير الذى يزودنا بأغلب الأفكار . والذى يعتمد اعتماداً كلياً على حواسنا التى تنتزع تلك الإحساسات وتوصلها لعقولنا — هو ما نسميه باسم الإحساس »[٢] .

« أما المصدر الثانى الذى يزود عقولنا بالأفكار فهو إدراكنا لعمليات العقل الداخلية — تلك العمليات التى تقوم بها النفس حين تفكر وتتأمل فى تلك الأفكار التى تكونت فى العقل بواسطة الحواس — فيغذى العقل بأفكار جديدة لم تأت إلينا من الخارج مثل الإدراك الحسى والتفكير والشك والاعتقاد والتعقل والمعرفة والإرادة . . . إلى آخر مختلف العمليات العقلية الأخرى التى نكون واعيين بها مدركين لها و يمكنا ملاحظتها .

وهذه الأفكار على الرغم من كونها ليست إحساساً لأنها لا ترتبط بالموضوعات الخارجية إلا أنها شديدة الشبه لدرجة أننا نسميها بالحس الداخلى Internal sense وما دمت قد أطلقت على المصدر الأول اسم الحس Sensation فإننى أسمى هذا النوع الثانى باسم التفكير Reflection أو التأمل الذاتى »[٣] .

ثم يستطرد قائلا : « وهذان المصدران : الأشياء الخارجية من حيث هى موضوعات للحس — وعمليات العقل الداخلية من حيث هى موضوعات للتفكير . . هما فى الواقع الأساس الذى يمكن أن يبدأ به أو يتوقف عليه تكوين أى فكرة .

وعلى هذا الأساس فلا يمكن أن تقوم فى العقل أى فكرة ما لم تكن صادرة عن أحد هذين المصدرين السابقين ، لأن الإحساس بالموضوعات الخارجية يمد العقل بالأفكار عن الخصائص والصفات الجسمية — بينما يمدنا العقل بالأفكار

---

(١) Essay, B. II, ch. I, sec. 1, p. 59.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Ibid, B. II, ch. I, sec. 4, p. 60.

عن عملياته الداخلية[١] .

والتفكير يأتى فى مرحلة متأخرة عن الإحساس . وبالتالى فالأفكار التى تتكون فى عقولنا بواسطته تأتى فى مرحلة متأخرة عن تلك التى يزودنا بها المصدر الأول — وذلك لاعتماد التفكير على الانتباه »[٢] .

ولوك يذكر الانتباه . لكى يدلل على أهمية فاعلية العقل أو إيجابيته فى تكوين الأفكار الناتجة عن التأمل الباطنى أو الذاتى . . . لأن مجرد تلقى العقل الانطباعات الحسية ، من موضوعات الحس فى الخارج — لا تظهر إلا جانبه السلبى فقط — أما جانبه الإيجابى فيبدو حين يلتفت الإنسان إلى ما يجرى بداخل عقله أو نفسه من عمليات مثل التذكر والتخيل والتفكير . . . إلخ .

وهذا الالتفات لن يتم بطريقة دقيقة أو صحيحة إلا إذا قام الإنسان بحصر نشاطه الذهنى فى اتجاه معين مدة من الزمن . أى إذا ركز الإنسان انتباهه على ما يجرى بداخله حتى يمكنه أن يكون أفكاراً عن هذه العمليات العقلية الداخلية .

وحيث إن الأفراد يتفاوتون فيما بينهم من حيث مدى الانتباه — أى قدرتهم على استيعاب أوسع دائرة ممكنة من الأمور . ومن حيث مدة الانتباه ، أى قدرتهم على حصر الذهن أطول مدة ممكنة من الوقت .

فإنهم سيختلفون بلا شك فى نوع وعدد هذه الأفكار التى تتكون فى عقولهم نتيجة لملاحظاتهم لعمليات العقل الداخلية .

ومما هو جدير بالذكر أن نظرة لوك الموضوعية فى أسبقية الإحساس على التفكير . وتحليله لمعنى هذا التفكير — كانت هذه النظرة ذات أثر بالغ فى الفلسفة الإنجليزية من بعده وخاصة هيوم الذى أنكر مثل لوك وجود الأفكار الفطرية فى العقل — والذى أرجع أساس المعرفة الإنسانية إلى التجربة الحسية حين رد أصل أفكارنا إلى الإحساس . . . إذ أن الأفكار عند هيوم ،

---

(١) Essay, B. II, ch. I, sec. 5, p. 60.

(٢) Ibid, B. II, ch. I, sec. 8, p. 62.

هى ما يكون فى التفكير والتدليل العقلى من صور خافتة لتلك الإحساسات[١]
بل إن المعرفة بأسرها عند هيوم . «وإدراكات العقل البشرى تنحل من تلقاء نفسها إلى نوعين متميز أحدهما عن الآخر هما الانطباعات والأفكار — وينحصر الفرق بين هذين النوعين فى درجات القوة والحيوية اللتان يطبعان بهما العقل . ويلتمسان بهما الطريق إلى فكرنا وشعورنا [٢].

فالفكرة عند هيوم هى تلك الصورة الذهنية الخافتة للانطباع الحسى القوى الحى — أو هى الانطباع الحسى حين نستعيده فيما بعد باهت اللون خافت الصوت ضعيف الأثر [٣].

فإذا كانت كل فكرة من أفكارنا صورة لانطباعاتنا الحسية أو الشعورية . وإذا كان من المستحيل أن نجد بين أفكارنا فكرة واحدة لا يمكن تعقبها إلى الانطباع أو الانطباعات التى أحسسناها وخبرناها — استطعنا أن ندرك مدى أهمية التجربة الحسية عند هيوم . الذى أكد رد أى فكرة فى أصلها إلى الانطباعات الحسية حين قال «إن من حرم حاسة . حرم بالتالى الأفكار التى كان يمكن أن تترتب على انطباعات تلك الحاسة المفقودة فالأعمى لا يعرف ما اللون ، والأصم لا يعرف ما الصوت . ورد للأعمى بصره وللأصم سمعه تفتح لهما طريقاً جديداً تنساب إليهما منه أفكار لم يكن لهما بها عهد»[٤] .

وهذا يعنى كذلك أولية الإحساس وأسبقيته على التفكير . طالما كانت الانطباعات الحسية هى سبب تكوين الأفكار [٥].

---

(١) ديفيد هيوم : للدكتور زكى نجيب محمود (النص رقم ١ ص ١٧١) .
(سلسلة نوابغ الفكر الغربى رقم ٧ — القاهرة ١٩٥٧) .

(٢) نفس المرجع السابق — (النص رقم ١ ص ١٧١) .

(٣) نفس المرجع السابق — ص ٣٥ .

(٤) David Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, sec. II, p. 351 (The speculative Philosophers, New York, 1954, Saxe Commin's edition).

(٥) فلسفة هيوم بين الشك والإعتقاد . للدكتور محمد فتحى الشنيطى . ص ٩٥ — القاهرة ١٩٥٦ .

الفصل الثانى

أنواع الأفكار

يعرف لوك الفكرة Idea بأنها موضوع العقل أثناء التفكير أو هى كل ما يمكن أن يقوم فى ذهن الإنسان أثناء عملية التفكير [1] بمعنى أنها هى مادته . إذ أن العقل لا يمكنه أن يقوم بوظائفه أوعملياته الفكرية بدون وجود هذه الأفكار – التى بقدر ما هى نتيجة عنه – هى أساس لقيامه بوظيفته .

هى أساس لقيام العقل بوظيفته من حيث كونها أفكاراً بسيطة Simple وهى نتيجة عنه من حيث كونها أفكاراً مركبة Complex .

ويوضح لوك الفرق بين الأفكار البسيطة والمركبة بقوله « إن إدراكنا للموضوعات الحسية يتم بناء على تأثير الصفات الموجودة فى الأشياء الطبيعية فى حواسنا . وبالرغم من أن هذه الصفات الحسية توجد فى الأشياء الطبيعية وهى فى حالة ترابط دائم بحيث تكون متحدة بعضها مع البعض بلا انفصال – إلا أن الأفكار التى تحدثها هذه الأشياء فى عقولنا تصل إلينا بواسطة الحواس وهى منفصلة غير مترابطة أو متلازمة [2] .

« فمثلا صفات البياض والبرودة والصلابة فى الثلج . كلها صفات مرتبطة مع بعضها فى شىء واحد هو موضوع الحس – إذ أن قطعة الثلج باردة فى نفس الوقت الذى هى فيه بيضاء وعلى درجة معينة من الصلابة . وبالرغم من كون هذه الصفات مترابطة ومتلازمة فى الوجود الموضوعى الخارجى إلا أن الانطباعات الحسية التى ترد إلى عقل الإنسان عن طريق حواسه – تصل إليه وهى منفصلة غير متلازمة – كل إحساس منها يصل مستقلا ويؤدى إلى تكوين صورة ذهنية

---

(١) Essay, B. I, ch. I, sec. 8, p. 4.

(٢) Ibid, B. II, ch. II, sec. I, p. 70.

أو انطباع عقلى متفصل ومستقل عن الإحساس أو الانطباع الحسى الآخر .

وهذه الانطباعات الحسية المنفصلة حين تنطبع على الذهن فإنه يكون عنها أفكاراً أو صوراً ذهنية واضحة متميزة . هى ما يسميها لوك بالأفكار البسيطة ، التى لا تتكون من أى أفكار أخرى — ولا تتضمن فى داخلها إلا مظهراً موحداً لإدراك العقل[١] . والتى تعتبر بمثابة المادة الأساسية التى تقوم عليها كل معرفة . والتى لا يمكن أن يتزود بها العقل إلا بواسطة هذين الطريقين السابقين — — الإحساس أو التفكير — فإذا أمكن للعقل أن يحصل على عدد كبير منها فإن فى استطاعته بعد ذلك أن يقوم بعمليات أخرى ،فيقارن بينها مثلا أو يربط أو يوحد أو يحكم . . . ويخرج بذلك بأفكار أخرى جديدة نسميها باسم الأفكار المركبة [٢]. وعلى ذلك فالأفكار المركبة تعتمد اعتماداً مباشراً على الأفكار البسيطة — وهذه بدورها تعتمد على الحواس . . فلو أن حواس الإنسان كانت أربعا فقط بدلا من خمس — لكان هذا معناه أن أفكارنا ستكون أقل عدداً مما هى عليه الآن ، وذلك نتيجة لاستبعادنا الأفكار التى كان يمكن أن تتكون تبعاً لإحساسات هذه الحاسة التى استبعدناها »[٣] .

ويمكن توضيح الفرق بين كل من الأفكار البسيطة والمركبة عند لوك بالمثل الآتى :

لنفرض أن أمامى الآن برتقالة. لها شكل ولون وطعم ورائحة، وعلى درجة معينة من الصلابة . . . إلخ — كل هذه صفات موجودة فى البرتقالة أثرت فى حواسى فأدركت أن لونها أصفر وشكلها دائرى ورائحتها جميلة . ثم حين أردت أن أتذوقها وجدتها على درجة من الصلابة . وبعد أن تذوقتها وجدتها حلوة الطعم . كل هذه إحساسات أدركتها منفصلة كل إحساس مستقل عن الآخر — انطبعت على عقلى فتكونت فيه صور ذهنية وأفكار عن كل هذه

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. II, ch. II, sec. 3, p. 71.

المعطيات الحسية ، هذه الصور الذهنية الواضحة المتميزة المستقلة المنفصلة هى ما يسميها لوك باسم الأفكار البسيطة (الحسية) .

ثم يبدأ العقل وظيفته الإيجابية فيقارن بين هذه الأفكار البسيطة وغيرها مما سبق أن أدركه فيتذكر ما سبق — ويميز بين ما هو موجود فيه من قبل وبين تلك الأفكار الجديدة ليخرج بذلك بنتائج أو أفكار أخرى جديدة . . . فى هذه الحالة إذا العقل حاول أن يدرك ما يقوم به من عمليات حول هذه الأفكار — سنجد أنه يقوم ببعض العمليات العقاية التى يمكنه أن يكون عنها أفكاراً مثل فكرتنا عن التذكر أو التمييز . . إلخ ،وهى أيضاً عند لوك أفكار بسيطة (أفكار التأمل الذاتى) .

أما النتيجة التى يصل إليها العقل من مقارنة هذه الأفكار البسيطة الحسية وربطها مثلا كلها حول فكرة واحدة مثل فكرة الجوهر . . أى أن البرتقالة شىء بالإضافة إلى هذه الصفات السابقة . . شىء فى ذاته يتصف بكونه أصفر أو كروى الشكل أو حلو الطعم أو الرائحة . . إلخ ،فهذا معناه أننى كونت فكرة مركبة عن البرتقالة من مجموعة من الأفكار البسيطة السابقة وهى فكرة جديدة لم أصل إليها بواسطة الحواس — وإن كنت قد استنتجتها بالعقل عن طريق بعض الأفكار البسيطة التى زودتنى بها الحواس .

مما سبق يتضح أن الأفكار المركبة تعتمد أساساً على الأفكار البسيطة إذ أنها بحكم تعريفها مؤلفة أو مركبة منها — والأفكار البسيطة تعتمد على الإحساس والتفكير معاً — إلا أنها بحكم تكوينها فى العقل تعتمد على الإحساس من حيث الأسبقية أو الألوية فى العقل .

وعلى ذلك فالإحساس هو الأساس الأول لتكوين الأفكار بكل أنواعها البسيطة منها والمركبة . إلا أن هذا ليس معناه أن الخبرة الحسية هى وحدها أساس تكوين الأفكار — إنما معناه أنها هى الأساس الأول ثم يكملها العقل بعد ذلك بوظيفته الإيجابية أى التفكير .

وهكذا يصل لوك إلى تصنيفه للأفكار فيجعلها فى قسمين رئيسيين :

(ا) أفكار بسيطة — تتكون فى العقل بواسطة الإحساس أو التفكير .

(ب) أفكار مركبة — وتتكون فى العقل بواسطة التفكير فقط .

* * *

(ا) الأفكار البسيطة

وقد قسمها لوك إلى أربعة أنواع فرعية : [١]

١ — أفكار تصل إلى العقل بواسطة حاسة واحدة . . وهى التى تتكون فى العقل نتيجة للانطباعات الحسية التى تصل إلى الذهن بواسطة إحدى الحواس . . . مثل أفكارنا عن الضوء والألوان كالأبيض والأحمر والأصفر والأزرق بجميع درجاتها وظلالها ، كالأخضر والقرمزى إلى آخر تلك الألوان التى يمكن أن تدركها العين . وكذلك جميع الأصوات والنغمات التى تدركها الأذن . . . وهكذا . . . بالنسبة لبقية الحواس — بالإضافة إلى فكرتنا عن الصلابة والبرودة .

٢ — أفكار تصل إلى العقل بواسطة أكثر من حاسة — مثل أفكارنا عن المكان والامتداد والشكل والحركة والسكون . فهذه جميعاً تكونت نتيجة للانطباعات الحسية التى وصلت إلى الذهن عن طريق حاستين هما البصر واللمس[٢] .

٣ — أفكار تتكون فى العقل بواسطة التأمل الذاتى — مثل أفكارنا عن الإرادة والإدراك[٣] .

٤ — أفكار تتكون فى العقل بواسطة الإحساس مضافاً إليه التأمل الذاتى . مثل أفكارنا عن القوة والوجود واللذة والألم[٤] .

(ب) الأفكار المركبة

وقد قسمها لوك إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

---

(١) Essay, B. II, ch. III, secs, 1-2, pp. 74-75.

(٢) Essay, B. II, ch. VI, sec. 1, p. 79.

(٣) Ibid, B. II, cy. VI, sec. 1, p. 80.

(٤) Ibid, B. II, ch. VII, sec. 1, p. 80.

١ – أفكار مركبة عن الأعراض :

وهى قد تكون :

(ا) أعراضاً بسيطة Simple modes أى أفكار مركبة نتجت عن قيام العقل بتكرار أو إضافة فكرة بسيطة واحدة أكثر من مرة . مثل فكرتنا عن (الدستة) أو العشرين التى نتجت عن تكرار أو إضافة فكرة الوحدة العددية ١٢ مرة أو عشرين مرة [١].

(ب) أو أعراضاً مركبة: Compound modes أى أفكار مركبة نتجت عن تجميع أو ربط بعض الأفكار البسيطة مختلفة الأنواع بعضها عن بعض – مثل فكرتنا عن الجمال التى نتجت عن إضافة أفكارنا البسيطة عن الشكل واللون والجسم والصلابة . . . إلخ بعضها مع بعض حول موضوع واحد مما يسبب لى ارتياحاً فى النفس [٢] .

٢ – أفكار مركبة عن الجواهر :

وهى قد تكون :

(ا) جواهر مفردة Single Substances مثل فكرتنا عن إنسان ما .

(ب) أو جواهر جمعية Collective Substances مثل فكرتنا عن الجيش أو الإنسان بصفة عامة [٣] .

٣ – أفكار مركبة عن العلاقات :

مثل أفكارنا عن العلية . والعلاقات الزمانية والمكانية والذاتية والغيرية . . إلخ وفيما يلى تفصيل ما أوجزناه [٤] .

---

(١) Ibid, B. II, ch. XII, sec. 5, p. 109.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) Essay, B. II, ch. XII, sec. 6, p. 109.

(٤) Ibid, B. II, ch. XII, sec. 7, p. 110.

الفصل الثالث

الأفكار البسيطة

١ - أفكار تتكون فى العقل بواسطة حاسة واحدة

مثل أفكارنا عن الألوان والنغمات والأصوات والطعوم والروائح . . . إلخ التى تتكون فى عقولنا نتيجة لإدراك كل حاسة من الحواس للأشياء أو الموجودات الطبيعية .

وحيث إنه من الصعوبة إلى حد كبير أن نذكر بالتفصيل عدد الأفكار البسيطة المرتبطة بكل حاسة على حدة - فإنى سأذكر على سبيل المثال لا الحصر البعض الذى يوضح غرضنا الحالى[١] . ويستشهد لوك على ذلك بفكرة الصلابة كمثل لهذا النوع من الأفكار البسيطة التى تتكون فى عقولنا نتيجة للإحساس بحاسة واحدة .

فكرة الصلابة

وهى تتكون نتيجة لحاسة اللمس . لأنها تنشأ نتيجة للمقاومة التى نحسها فى الجسم حين يحاول أى جسم آخر أن يشغل نفس مكانه[٢] . وهى كما يذكر لوك - أكثر الأفكار التى نتلقاها عن طريق الحواس ثباتاً ودواماً . لأننا سواء تحركنا أو ظللنا ثابتين ، وفى أى وضع كنا عليه - مهما كان هذا الوضع - فلابد أن نشعر بأن هناك شيئاً تحتنا يمنعنا من السقوط إلى أسفل[٣] مثل المقعد الذى أجلس عليه والمكتب الذى استند إليه والأرض التى أقف

---

(١) Essay, B. II, ch. III, sec. 2, p. 75.

(٢) Ibid, B. II, ch. IV, sec. 1, p. 67.

(٣) نفس المرجع السابق - نفس الموضع .

عليها وأضع عليها كل هذه الأشياء — كلها فى الواقع تزودنى أو تمدنى بفكرتى عن الصلابة — لذلك فهى من أكثر الأفكار ارتباطاً بجسم الإنسان[١] لدرجة أنها تكاد تصبح غير ملحوظة لاستمرار وجودها فى ذهنه .

وهذه الفكرة بحكم التعريف الذى عرفها به لوك — تؤدى بنا إلى التفكير فى معنى الامتداد — أى ملء أو شغل مكان ما — وذلك لأن معنى الصلابة هو إحساسنا بوجود شىء صلب — أى شىء يشغل حيزاً — أو مكاناً معيناً بحيث يكون هو وحده الشاغل لهذا المكان أو الحيز — وبحيث يمنع من دخول أى شىء آخر أو اشتراكه معه فى نفس هذا المكان[٢] .

وعلى ذلك يجب علينا أن نفرق بين هذا المعنى . وبين فكرتنا عن المكان . إذ أن المكان هو ما يمكن أن يشغله أى جسم صلب فى وقت معين — بحيث لو تحرك وتركه — أمكن أن يشغله جسم صلب آخر فى وقت آخر[٣] .

ويوضح لوك معنى هذه الفكرة البسيطة — فكرة الصلابة — مفرقاً بينها وبين الصلادة . كما فرق من قبل بينها وبين الامتداد والمكان — فيقول « إن الصلابة ليست هى الصلادة hardness لأن الأولى تعنى مجرد الامتداد فى مكان أو شغل حيز معين — ويستوى فى ذلك قطعة من الحديد أو نقطة من الماء — بينما تعنى الصلادة أكثر من ذلك — تعنى تماسك أجزاء المادة بعضها مع بعض لتكون كتلة متماسكة الأجزاء من الصعب تعديلها أو تغيير شكلها .

ويوضح ذلك قائلا : إن كل كلمة من كلمتى صلد hard ولين Soft إنما هى صفات نسبغها على الأشياء لكى نصف بها العلاقة بين هذه الأشياء وبين أجسامنا — بمعنى أن أطلق كلمة صلد على الأشياء التى إذا لمسناها أو ضغطنا عليها بأى جزء من أجزاء جسمنا لكى نغير من شكلها . فإننا قبل أن نستطيع ذلك التغيير — نحس بألم فى موضع الضغط يدفعنا لرفع ذلك العضو أو الجزء

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. II, ch. IV, sec. 3, p. 77.

الضاغط — ونستعمل كلمة لين بمعنى أننا يمكننا أن نغير من شكل ذلك الشيء الذى نضغط عليه بطريقة لا تجعلنا نحس بأى ألم على الإطلاق[١] . وعلى ذلك ففكرة الصلادة تستلزم فكرة الصلابة وليس العكس لأنه ليس كل ما هو صلب بصلد .

٢ — أفكار تتكون فى العقل بواسطة أكثر من حاسة

مثل أفكارنا عن المكان والامتداد والشكل والحركة والسكون — كلها تكونت فى عقولنا نتيجة لانطباعات حسية وصلت إلى الذهن عن طريق حاستين هما العين واللمس . . وهذه ما سأتناولها بالتفصيل حين أعرض لرأى لوك فى أفكارنا المركبة عن الحالات أو الأعراض modes وخاصة الأعراض البسيطة .

٣ — أفكار تتكون فى العقل بواسطة التأمل الذاتى

وهى تنشأ حين يصبح العقل مزوداً بالأفكار البسيطة التى وصلت عن طريق الحواس — فيتجه إلى داخله لينظر فى نفسه ويلاحظ عملياته التى يقوم بها حول هذه الأفكار بحيث يجعلها موضوعاً لتأملاته — وفى هذه الحالة يبدأ العقل فى التزود بأفكار جديدة لم تكن فيه من قبل .

وأهم عمليتين عقليتين يقوم بهما الإنسان ويمكن لأى شخص أن يلحظهما فى نفسه هما الإدراك أو التفكير — والإرادة أو الرغبة .

فالإدراك يعتمد على قدرة عقلية هى الفهم understanding بينما تعتمد الرغبة على قدرة عقلية أخرى هى الإرادة will .[٢]

ويذكر لوك بالإضافة إلى هاتين الفكرتين الرئيسيتين (أى الإدراك والإرادة) بعض الأفكار الأخرى التى ليست فى الواقع سوى حالات لتلك الأفكار البسيطة الرئيسية السابقة — مثل التذكر والتمييز والتعقل والحكم والمعرفة والصدق[٣]

---

(١) Essay, B. II, ch. IV, sec. 4, p. 78.

(٢) Essay, B. II, ch. VII, sec. 2, p. 80.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

وهى تنتج عن القوى أو القدرات العقلية التى تساعد الإنسان على التقدم بخطوات واسعة فى المعرفة — وهذه ما سأتناولها بالذكر والتعليق فيما بعد .

٤ — أفكار تتكون فى العقل بواسطة الإحساس والتأمل الذاتى معاً

مثل أفكارنا عن اللذة أو السرور وعكسها الألم أو عدم الارتياح وكذلك القوة والوجود والوحدة والتتابع .

فأفكارنا عن اللذة والسرور أو الألم وعدم الارتياح إنما ترتبط بأفكارنا الناتجة عن الإحساس والتفكير معاً — وذلك لأن كل إحساس يأتينا من الخارج ، وكل فكر يمر فى ذهننا فى الداخل غالباً ما يحدث فينا إما حالة من السرور أو الألم بجميع درجاتهما مثل الرضا والسرور والفرح والسعادة من جهة — وعدم الارتياح والتعب والألم والعذاب والحزن والبؤس من جهة أخرى[١] ويضرب لوك لذلك مثلا بالإحساس بالحرارة . . . فيقول إن الحرارة بدرجة معتدلة تعطينا الإحساس بالدفء وبالتالى بالارتياح — أما إذا زادت الحرارة أصبحنا نشعر بعدم الارتياح أو الألم وهكذا [٢] .

أما أفكارنا عن الوجود والوحدة — فإنها تتكون فى أذهاننا فى كل حالة نحس فيها ونتيجة لكل فكرة تعرض لعقولنا . وفى هذا الصدد يقول لوك : « إننا حين نفكر — نحس بوجود الأفكار فى عقولنا ، أو فى داخلنا تماماً كما نحس بأن هناك أشياء محسوسة خارجة عنا . . وعلى ذلك فأى موضوع خارجى نحسه وأى فكرة تعرض لعقولنا — تستتبع دائماً فكرتنا عن الوجود سواء كان وجوداً داخلياً أو خارجياً .

وسواء كان هذا الوجود شيئاً محسوساً أو فكرة فى الذهن — فهو يستلزم فكرة الوحدة لأن كل ما يمكن أن نعتبره شيئاً واحداً — سواء أكان مدركاً حسياً أم فكرة فى الذهن — يوحى إلى الفهم فكرة الوحدة »[٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. II, ch. VII, sec. 7, p. 82.

وكذلك فكرتنا عن التتابع Succession فمع أنها كثيراً ما تعرض لنا بواسطة الحواس كأن نرى الأشياء أمامنا وهى تتتابع كالموضوعات المتلاحقة التى تعرض أمام العين — أو الأنغام المتلاحقة التى نسمعها بآذاننا . إلخ — إلا أنها أوضح ما تكون إذا ما لاحظنا عمليات العقل الداخلية . إذ أننا إذا نظرنا فى داخل أنفسنا سنرى أفكارنا وهى تتلاحق الواحدة تلو الأخرى بلا توقف . بل فى تتابع مستمر[1].

وكذلك فكرتنا عن القوة Power فهى تتكون فى العقل بواسطة الإحساس والتفكير معاً ، فيقول لوك « إننا يمكننا أن نلاحظ ذلك فى أنفسنا إذ يمكننا أن نحرك بعض أجزاء الجسم بعد أن كانت ساكنة — فى حالة الفرح مثلا أو السرور . مثل القفز أو التصفيق » من هذا يمكننا أن نكون فكرة واضحة من معنى القوة التى نحس بها فى أجسامنا وكذلك عن القوة الموجودة فى الأشياء الخارجية — حين أرى بحواسى التغييرات أو التأثيرات التى تحدثها الأجسام الطبيعية بعضها فى البعض الآخر »[2].

* * *

هذا فيما يتعلق بالأفكار البسيطة — وقد ذكر لوك بعض الاعتبارات المتعلقة بها أثناء دراسته للموضوع — وأفرد لذلك الفصل الثالث عشر من الكتاب الثانى من « مقالة فى العقل البشرى » تحت عنوان (بعض الاعتبارات المتعلقة بأفكارنا البسيطة) تكلم فيها عن الصفات الموجودة فى الأشياء من حيث هى قوة قادرة على إحداث هذه الأفكار فى عقولنا . . . وقد قسم هذه الصفات الحسية — إلى صفات أولية . وأخرى ثانوية . وقوى خالصة .

١ — الصفات الأولية :

وهى الصفات الثابتة فى الشىء بحيث لا يمكن أن يكون له وجود بدونها — أساسية فيه ملازمة له دائماً مهما حدث فيه من تغييرات . . . ويضرب لوك

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

مثلا بالشكل والامتداد والصلابة فيقول : « لنأخذ حبة من القمح – قسمها إلى قسمين – ستجد أن كل نصف منها ما زال على درجة من الصلابة والامتداد وله شكل معين . . . إلخ – قسم كل نصف كذلك إلى نصفين . ستجد أن كل جزء كذلك ما زال محتفظاً بنفس الصفات السابقة – استمر فى التقسيم حتى تكاد تصبح هذه الأجزاء غير محسوسة . ستجد أنها ما زالت تحمل نفس الصفات السابقة ، لأن التقسيم لا يمكن أن يزيل صفة الصلابة أو الامتداد عن أى جسم من الأجسام ، إنما يجعل من الجسم الواحد جسمين منفصلين كل منهما يحمل نفس الصفات »[1]. وعلى ذلك فهذه الصفات ثابتة غير متغيرة أولية بمعنى أنها لابد أن تكون ملازمة للشىء . وبحيث لا يمكن تصور الشىء أو وجوده بدونها .

٢ – الصفات الثانوية

وهى ليست أولية فى الأشياء – بل ثانوية بمعنى أنها ليست أساسية فى الشىء ، ولا داخلة فيه أو ملازمة له ولكنها مجرد قوى Powers تحدث فينا إحساسات مختلفة بواسطة صفاتها الأولية مثل الألوان والأصوات والطعوم والروائح . . . إلخ وهى ثانوية لأنها يمكن أن توجد أو لا توجد فى الشىء . وليس من الضرورى أن تكون ملازمة له مثل الكرة – يمكن أن تكون حمراء أو صفراء – فاللون هنا صفة ثانوية لأنه ممكن تصور الكرة باللون الأحمر أو بدونه – ولأن وجود الكرة لا يتوقف على كونها حمراء أو غير ذلك – بعكس الصفة الأساسية مثل الشكل – فالكرة يمكن أن تكون حمراء أو خضراء أو غير ذلك – ولكنها لا يمكن إلا أن تكون مستديرة .

فالشكل هنا صفة أولية أساسية ملازمة للشىء بحيث لا يمكن تصوره بدونها .

٣ – إلا أنه بجانب هذين النوعين من الصفات . أضاف لوك نوعاً ثالثاً

---

(١) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 9, p. 85.

هو فى الواقع نوع من القوى الخالصة Barely Powers ذكر لوك أنه يمكن إضافتها إلى الصفات الثانوية ويضرب لها مثلا بالقوة الموجودة فى النار قائلا : « إنها تحدث تغييراً فى لون الشمع وشكله وصلابته – هى صفة من الصفات الموجودة فى النار القادرة على إحداث فكرة فى ذهنى عن الإحساس بالدفء أو الاحتراق »[١].

والتفرقة بين الصفات الأولية والثانوية ليست فى الواقع من ابتكار لوك إذ سبقته الأبحاث العلمية فى هذا المجال . فجاليليو يؤكد هذه التفرقة على أساس أن الصفات الأولية مثل العدد والشكل والحجم والحركة والوضع – تعتبر صفات ملازمة للأشياء بحيث لا يمكن أن نفصلها عنها مهما فعلنا – بينما جميع الصفات الأخرى وهى غالباً ما ترتبط بالإحساس تعتبر ثانوية لأنها تعتمد على الصفات الأولية . وتكون بمثابة نتائج لها[٢]

ويعتبر بويل أهم من أوضح هذه التفرقة[٣] فى كتابه (منشأ الأشكال والخصائص على مذهب الفلسفة الذرية) [٤] الذى نشره عام ١٦٦٦ وذهب فيه إلى أن الصفات الأولية للمادة موجودة فيها ولابد وأن تظل كذلك مهما قسمناها إلى أجزاء صغيرة . لأن التجربة تظهر لنا أننا مهما قسمنا المادة إلى أجزاء أو دقائق صغيرة – فهذا لابد وأن يكون لها شكل وحجم شأنها شأن

---

(١) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 10, p. 86.

(٢) Burtt, E.A., The Metaphysical Foundations of Modern Science, p. 84., (A Doubly anchor book, No. 41).

(٣) عرفت هذه التفرقة منذ العصور الوسطى . وبخاصة فى فلسفة البرت الأكبر ألا أنها كانت تستخدم بمعنى مغاير إلى حد ما – بل قبل ذلك أيضا منذ أرسطو . فالتفرقة تبعاً للشروح المدرسية كانت بين الصفات المحسوسة والتى كان يعدها أرسطو كيفيات أولية مثل البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة وبين بقية الصفات التى تعتمد فى وجودها على تلك الكيفيات الأولية – إلا أنها جميعا سواء أولية أو ثانوية ، كانت فى نظرهم موضوعية . أى موجودة فى الأشياء وليست ذاتية .
(آرون . ص . ١١ – ١١)

(٤) The Origin of forms and qualities according to the corpuscular philosophy. (1666).

الأجسام الكبيرة[١] .

ويستطرد قائلا : « إن هذه الصفات الأولية كالشكل والحجم حين تؤثر في أعضاء الإنسان تؤدى إلى ما يعرف بالصفات الحسية — تلك الصفات التى غالباً ما تخطئ فننسبها إلى الأجسام نفسها . إذ أننا تعودنا منذ الطفولة على تصور ارتباط الصفات الحسية بالأشياء الطبيعية ووجودها فيها . بينما هذا خطأ . إذ ليس هناك شيء حقيقى فى الأجسام سوى صفاتها الأولية فقط »[٢].

كما ذهب هوبز كذلك فى كتابه التنين Leviathan[٣] إلى إيضاح هذه التفرقة فقال « إن هذه الصفات الثانوية التى قد نعتقد أنها موجودة فى الأشياء — ليست كذلك . لأنه لا يوجد فى الأشياء سوى تلك الصفات الحقيقية (أى الأولية) التى تحدث تلك الصفات الثانوية »[٤] .

٤ — ويسير لوك فى نفس الاتجاه متأثراً بجاليليو وبويل — فيرى ذاتية الصفات الثانوية . وموضوعية الصفات الأولية — إلا أنه يزيد الأمر إيضاحاً . حين يذهب إلى أن الصفات الثانوية ليست هى القوة أو القوى التى تحدث فى الإنسان إحساسه بهذه الصفة — وعلى ذلك فالموضوعى هو القوى لا الصفات الثانوية المحسة .

وعلى ذلك فالعلاقة بين الذات والموضوع — هى علاقة تأثير من الموضوع بقواه وخصائصه المختلفة على الذات التى تكون بناء على هذا التأثير — صوراً ذهنية وأفكاراً تناسب نوع هذا التأثير وقوته ومداه. . . . ولكن كيف يتم هذا التأثير ؟

يذهب لوك فى بداية مقالته إلى أن « حواسنا التى تقابل موضوعات الحس توصل إلى العقل إدراكات حسية مختلفة عن الأشياء تبعاً لاختلاف الطرق التى أثرت بها هذه الموضوعات فى أعضاء الحس »[٥]. على أساس أن الموجودات

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 111.

(٢) نفس المرجع السابق — ص ١١٢ —.

(٣) « اللواياتان » كما وردت فى الإنجيل سفر أيوب . إصحاح ٤١ وهو وحش بحرى خيالى .

(٤) Burtt, E.A., The Metaphysical Foundations of Modern science, p. 130.

(٥) Essay, B. I, ch. I, sec. 3, p. 2.

الطبيعية الموجودة فى العالم تتركب من عدد كبير جداً من الجزئيات ، وهذه الجزئيات تؤثر فى أعضاء حسنا بواسطة قذائف صغيرة تصطدم بأعضاء الحس — ثم ينتقل هذا التأثير إلى المخ فتحدث الأفكار فى العقل بناء على ذلك[١] .

ولنحلل هذه العملية فى ضوء ما ذهب إليه لوك . بالنسبة لكيفية تكوين الأفكار .

١ — يبدأ لوك بالصفات الأولية قائلا : « إننا إذا أدركنا هذه الصفات الأولية فى الأشياء كإدراكات حسية منفصلة تقع تحت حواسنا — فإنها ستؤدى إلى تكوين صور فى الذهن » [٢].

أما كيف يبدأ ذلك . فلابد من وجود حركة معينة تقوم بها أعصابنا أو أرواحنا الحيوانية Animal Spirits تنقل هذه الإحساسات من أجزاء الجسم المتأثرة بالإحساسات إلى المخ أو مركز الإحساس وهناك فى المخ تحدث تلك الصو ر الذهنية أو الأفكار عن هذه الأشياء الحسية[٣] .

٢ — أما عن أفكارنا التى تتعلق بالصفات الثانوية . فإنها تنتج بواسطة تأثير الأجزاء الغير المحسوسة من الأشياء فى حواسنا — فهناك عدد كبير من الأجسام ، كل جسم منها بلغ من الدقة والصغر مبلغاً جعل من المتعذر إدراكه بحواسنا سواء فى حجمه أو شكله أو حركته — كما هو واضح فى جزئيات الماء وذرات الهواء . هذه الجزئيات بحركاتها وأشكالها وأحجامها — تؤثر فى مختلف أعضاء حسنا بحيث يمكن أن تحدث فينا إحساسات مختلفة عن ألوان وروائح الأشياء[٤].

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 97.

(٢) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 12, p. 86.

(٣) فكرة الأرواح الحيوانية حسب هذا الاستعمال تشبه إلى حد كبير معنى فكرة الأرواح الحيوانية عند ديكارت — فقد كان ديكارت يستخدم نفس هذه الفكرة من قبل بمعى «أنها جزئيات لطيفة رقيقة من الدم تتحرك بسرعة خلال الأعصاب فتوصل بين المخ والعضلات من جهة وبين أعضاء الحس والمخ من جهة أخرى . وهذا هو نفس الاصطلاح الذى كان معروفاً عند بعض العرب مثل الجرجانى الذى ذكره فى كتاب التعريفات» . عن كتاب ديكارت . للدكتور عثمان أمين ص ١٩٦ .

(٤) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 13, p. 86.

أما عن كيفية هذا التأثير ، وعن ماهية هذه القوة الموجودة فى الأشياء والتى تجعلها تؤثر فى حواسنا بحيث نشعر بإحساس معين دون الآخر سواء كان لوناً أو رائحة أو طعماً – فهذا فى نظر لوك من قدرة الله . إذ ليس من المستحيل على الله أن يربط بين هذه الأفكار وهذه الحركات بالذات . كما أنه ليس من المستحيل عليه أن يربط بين فكرة الألم التى نحس بها بحركة قطعة صغيرة من الحديد تنغرس فى اللحم أو تغوص فيه[١] .

وعلى ذلك فما هو فى فكرنا حلو أو أزرق أو ساخن ليس أكثر من شكل معين أو حجم معين أو حركة خاصة لهذه الجزئيات الغير المحسوسة فى الأجسام نفسها[٢] .

فقد يظن البعض أن اللهب يتضمن الحرارة والضوء – وأن الثلج يتضمن البياض والبرودة . بحيث تكون البرودة والبياض فى الثلج نفسه كما لو كانت هذه الأفكار فى عقولنا مثل صور الأشياء حين تنعكس على المرآة . إلا أن هذا ليس صحيحاً . فالحرارة فى حد ذاتها ليست موجودة فعلا فى النار بدليل أن النار نفسها لو وضعت بعيدة عن الجسم بمسافة معينة، لن تحدث فينا سوى الدفء . وكلما قربناها من الجسم أحسسنا بدرجات متفاوتة من السخونة والألم . فكيف تكون فكرة الدفء المريحة موجودة فى النار – وكيف تكون فى نفس الوقت فكرة الحرارة والألم موجودة فى النار ذاتها[٣] .

وكذلك فكرة الحرارة أو الضوء التى نحصل عليها باللمس أو بالبصر من الشمس . يعتقد البعض أنها صفات حقيقية موجودة فعلا فى الشمس كما لو كانت شيئاً أكثر من مجرد القوة . ولكننا حين نناقش هذه الفكرة سنجد أنها خاطئة إلى حد كبير – ولنأخذ مثلا لذلك قطعة من الشمع ونضعها تحت الشمس . سنجد أنها تبدأ فى الذوبان ويتحول لونها إلى الأبيض – فهل معنى

---

(١) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 14, p. 86.

(٢) Ibid, B. II, ch. VIII, sec. 15, p. 87.

(٣) Ibid, B. II, ch. VIII, sec. 16, p. 88.

ذلك أن صفة البياض أو صفةالليونة اللتين حدثتا فى قطعة الشمع موجودتان فى الشمس؟ إننا يجب أن لا ننظر إليهما على أنهما كذلك — بل على أساس أنهما مظاهر معينة حدثت فى الشمس نتيجة لتأثير قوى مختلفة موجودة فى الشمس . والواقع أن هذه الصفات عن الحرارة والضوء ، والتى هى عبارة عن إدراكات حسية والتى أحسست بها حين شعرت بالدفء والضوء — ليست موجودة فى الشمس وحالها فى ذلك حال التغيرات التى حدثت فى قطعة الشمع . فهذه كلها ليست أكثر من قوى موجودة فى الشمس يتوقف تأثيرها على الأحوال المختلفة التى تحدث فى الصفات الأولية فيها مثل الشكل والحجم وحركة الأجزاء [١].

ولكى يدلل لوك على أن هذه الصفات الثانوية ليست شيئاً موضوعياً يقول : « إنه لو فرض واستطعنا أن نكتشف الصفات الأولية الموجودة فى الشىء ، لزالت عنه فى تلك اللحظة جميع صفاته الثانوية [٢].

« فالإنسان حين يرى أمامه قطعة من الذهب سيدرك على الفور أن لها لوناً أصفر . فإذا ما وضعناها تحت المجهر لكى يكبرها لنا مئات المرات فسنجد أن هذه الصفات الثانوية — أى اللون الأصفر مثلا — قد اختفت وحل محلها أمام أعيننا نسيج رائع من جزئيات صغيرة ذات حجم معين وشكل خاص — وكذلك الدم — له لون خاص به هو اللون الأحمر . وهذه الصفة الثانوية تظهر فى الدم بالنسبة للعين المجردة . فإذا ما وضعنا نقطة من هذا الدم تحت المجهر ، سنرى رقائق وكرات صغيرة تسبح فى سائل شفاف . وكذلك إذا ما وضعنا تحت المجهر شعر إنسان له لون معين فسنجد أن هذا اللون قد تغير واختفى » [٣].

إلا أن التقسيم الذى قسم به لوك صفات الأشياء إلى أولية وثانوية قد أدى إلى إثارة سؤال على جانب كبير من الأهمية — ألا وهو مدى مطابقة الفكرة

---

(١) I ssay' B. II, ch. VIII, sec. 24, p. 90.

(٢) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 2, p. 213.

(٣) نفس المرجع السابق نفس الموضع .

الموجودة فى الذهن للموضوعات الخارجية .

والتطابق بصفة عامة لا يعنى سوى وجود التماثل بين أى شيئين بشكل يمكن للعقل إدراك العلاقة بينهما مباشرة .

ولتوضيح ذلك نفرض أن أمامى كلين Two wholes من نفس النوع بحيث أمكننى أن أقول إن الجزء (س) من الكلى (ا) يتطابق مع الجزء (ص). من الكلى (ب) — والحكم فى هذه الحالة يمكن أن يعنى أن الجزء (س) يؤدى بالنسبة للتنظيم الداخلى للكلى (ا) نفس الوظيفة التى يقوم بها الجزء (ص) بالنسبة للكلى (ب) أو بمعنى آخر أن س : ا = ص : ب .

فإذا طبقنا هذه الموازنة بالنسبة لبقية أجزاء أو عناصر الكليين فإنه يمكن التأكيد بالقول بأن ا ، ب متطابقان . أو أن ا ، ب متشابهان أو بمعنى آخر أن كل جزء أو عنصر فى ا يرتبط بعلاقة واحد بواحد One-onerel1 tion بالنسبة لكل جزء أو عنصر من ب[١] .

والمطابقة يمكن أن تكون بين عنصرين مختلفين أحدهما موضوعى والآخر عقلى[٢] أى مطابقة الفكرة الموجودة فى الذهن مع الموضوع الخارجى[٣] .

فإذا ما طبقنا هذه الفكرة على نظرية لوك فى التفرقة بين الصفات الأساسية والثانوية . نشأ هذا السؤال :

هل تكون الفكرة البسيطة الموجودة فى الذهن . مطابقة تماماً للشىء بجميع صفاته وخصائصه الأولية والثانوية ؟ أم لأى منهما تكون المطابقة مع الفكرة الذهنية ؟

الواقع أن فلسفة لوك لا تمثل الاتجاه الحسى الخالص كما ذكرت ذلك من قبل — ولذا فهى ليست فلسفة تمثيلية Representationalism خالصة[٤]

---

(١) Harold H. Joachim. The Nature of Truth, p. 10 (London, 1939).

(٢) نفس المرجع السابق — ص ١٨ .

(٣) نفس المرجع السابق — ص ٢٢ .

(٤) Aaron, R. I., John Locke, p. 107.

وبالتالى فليست جميع الأفكار الموجودة فى العقل صوراً أو نسخاً دقيقة لما هو موجود فى الواقع ،

وعلى ذلك فيمكن القول بأن الأفكار التى تشبه تماماً ما هو موجود فى العالم الخارجى — هى أفكارنا عن الصفات الأولية — وذلك لأن هذه الصفات موجودة فى الجسم غير منفصلة منه فى أى حالة من حالاته[١] ولأن نماذج هذه الصفات الأولية موجودة بالفعل ومتحققة فى الأجسام نفسها — بمعنى أن جميع الإجسام تحتوى عليها أو تتضمنها بغض النظر عما يمكن أن تحتويه أو تتضمنه من قوى أخرى وأما بالنسبة لأفكارنا عن الصفات الثانوية فهى لا تطابق الواقع — لأن الصفات الثانوية نفسها ليست موجودة ولا متحققة فى الأشياء الطبيعية — وكل ما يقابل هذه الأفكار هو مجرد قوى Powers فقط فى الأشياء تحدث فينا هذه الإحساسات .

وهنا تبدأ المشكلة — إذ كيف أقارن بين فكرة فى ذهنى عن لون مثلا — فى حين أن هذا اللون ليس له وجود فعلى فى الشىء المدرك ؟

وقد أدى هذا إلى قول لوك « بأن جميع أفكارنا البسيطة سواء أفكارنا عن الصفات الأولية أو الثانوية لا يمكن أن تكون مجرد أوهام أو خيالات . بل هى نتائج طبيعية منظمة نتجت عن تأثير الأشياء الموجودة فى الواقع على حواسنا وبالتالى على عقولنا — لذلك فهى تحمل ضمناً هذا التطابق أو التماثل المطلوب . وهذا التماثل أو التطابق الموجود بين أفكارنا البسيطة وبين حقيقة الأشياء كاف إلى حد كبير لجعل معرفتنا بها معرفة حقيقية[٢] .

« إلا أن فكرة المطابقة بين الصفات الأولية فى كل جزء من أجزاء المادة لا تبدو واضحة تماماً . وإن كان الإحساس قد يجدها فى الأشياء طالما كان لها حجم معين يكفى لإدراكها »[٣] .

---

(١) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 9, p. 85.

(٢) Essay, B. II, ch. IV, sec. 4, p. 77.

(٣) Ibid, B. II, ch. VIII, sec. 9, p. 85.

فيقول لوك : « خذ حبة من القمح واقسمها قسمين . تجد أن كل قسم ما زالت فيه صفات الصلابة والامتداد والشكل والحركة . . . قسمها من جديد تجد أنها ما زالت تحتوى على نفس الصفات – استمر فى التقسيم حتى تصبح هذه الأجزاء غير منظورة أو لا يمكن إدراكها بالحواس insensible فإنه لابد must أن يظل كل جزء منها متصفاً بنفس الصفات »[١] ويقول لوك صراحة إن هذه الأجزاء غير المحسوسة يجب must أن تتضمن هذه الصفات الأولية . . ما مدى هذا الوجوب ؟ ولماذا يجب أن تكون كذلك طالما لم تكن الحواس هى التى عرفتنا بوجود هذه الصفات فى تلك الأجزاء غير المنظورة ؟

لا نجد إجابة كافية أو أيضاً مايبرر ذلك فى فلسفة لوك – ولذا فهو لم يواجه المشكلة الخاصة بالبحث عن التماثل أو المطابقة بين أفكارنا عن الصفات الأولية – وبين الصفات الأولية ذاتها من حيث تحققها فى الأشياء[٢]. والصفات الثانوية يستعملها لوك فى فلسفته كى تدل على معنيين :

أولا : بمعنى أنها القوة المتولدة عن الصفات الأولية فى الشىء الواحد . مثل إدراكى للون الذهب الأصفر .

ثانياً : بمعنى أنها القوة المتولدة عن الصفات الأولية فى شىء معين بحيث لا يكون تأثيرها على الذات المدركة . بل على الأشياء الأخرى بحيث يغير هذا التأثير من صفاتها الأولية .

وبالتالى ستكون أفكارى عن هذا الجسم المتغير مخالفة لأفكارى عنه قبل حدوث هذا التغير . مثل تأثير النار على قطعة من الشمع حين تغير من صفاتها الأولية . وتغير لونها إلى الأبيض – وإدراكى لها بعد هذا التغيير[٣] .

وقد أطلق لوك على النوع الأول اسم الصفات الثانوية المباشرة Immediately Secondary Qualities بينما أطلق على الأخرى اسم الصفات الثانوية غير

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 108.

(٣) Essay, B. II, ch. VIII, sec. 26, p. 91.

المباشرة Mediately Secondary Qualities .

* * *

وبعد أن انتهى لوك من عرضه للأفكار البسيطة والاعتبارات المتعلقة بها وخاصة الصفات الأولية والثانوية ــ خصص فصلا كاملا ــ وهو الحادى والعشرون من الكتاب الثانى من « مقالة فى العقل البشرى » للحديث عن أهم القوى أو القدرات العقلية التى تجعله قادراً على فهم المعطيات الحسية وتكوين أفكاره البسيطة عنها .

فالعقل البشرى به مجموعة من القدرات أو القوى الإيجابية تمكنه من أن يفهم معنى الانطباعات الحسية ويكون عنها أفكاراً بسيطة بجانب وظيفة العقل السلبية القاصرة على تلقى أثر المعطيات الحسية الخارجية .

وقد ذكر لوك كما أوضحت من قبل أن أهم قدرتين عقليتين عند الإنسان هما الإدراك والإرادة . . وقد تكلم لوك وأفاض فى الحديث عن الإدراك ــ بينما لم يتعرض لفكرة الإرادة بالكثير ــ ولذا فسأهتم بإبراز معنى الإدراك عنده .

الإدراك الحسى

وهو كما يذكر لوك أول وظيفة يقوم بها العقل بالنسبة لإحساساتنا وأفكارنا . ولذا فهو بالتالى سيكون أول وأبسط فكرة يمدنا بها التفكير [١] بل قد يسميه البعض باسم التفكير Thinking بالرغم من أن معنى التفكير فى اللغة الإنجليزية يدل على نوع من فاعلية العقل بالنسبة لأفكاره (مثل إيجاد الروابط بين الأفكار) أى حينما يكون العقل نشيطاً وفعالا . وخاصة حينما يتأمل فى أى شىء أو يتعقله بدرجة من الانتباه الإرادى .

ولذا يفرق لوك بين التفكير والإدراك على أساس أن العقل فى أغلب الأحيان يكون سلبيًّا فى حالة الإدراك . بمعنى أنما يدركه الإنسان لا يمكن إلا أن يدركه [٢] .

---

(١) Essay, B. II, ch. IX, sec. 1, p. 92.

(٢) نفس المرجع السابق ــ نفس الموضع .

ولكن ما هو الإدراك الحسى إذن ؟

لا يكاد لوك يجد له تعريفاً جامعاً مانعاً – فيرد معناه إلى خبرة الإنسان الذاتية قائلا : « إن كل إنسان لابد وأن يعرف معناه حين يتأمل فيما يفعله أو يقوم به حين يرى أو يسمع أو يشعر بأى شىء . . . إلخ أكثر من أى مناقشة أو تحليل أقوم أنا به . لأن كل من يتأمل فيما يمر بعقله أو يتم فى داخل فكره لا يمكنه أن يجهل معنى الإدراك – أما من لا يتأمل أو يفكر فى ذلك فلا يمكننا أن نكون فى ذهنه صورة واضحة عن معناه حتى لو استخدمنا فى ذلك جميع ألفاظ اللغة المعروفة »(١).

والإدراك الحسى كعملية عقلية لابد وأن تتوقف على العقل . وبناء على ذلك فأى تغيرات تحدث فى الجسم مهما كانت ، وأى انطباعات حسية على أجزاء الجسم مهما تعددت – إذا لم تصل إلى العقل لن يكون هناك عنها أى إدراك حسى (٢) .

فالإنسان غالباً ما يلاحظ فى نفسه – أنه بينما يكون عقله مشغولا بتأمل بعض الموضوعات . ومتتبعاً بشغف كبير لبعض أفكاره عن هذه الموضوعات – فإنه لا يلحظ وجود الأحداث المختلفة من حوله ، التى تؤثر فى عضو السمع فيه والقادرة على إحداث انطباعات حسية مختلفة عن هذا الصوت – لماذا لا نسمعها ؟ مع أن هناك تأثيراً كافياً لإحداث الإثارة فى عضو الحس (أى الأذن) – إننا لم نسمعها لأن هذا التأثير أو التنبيه لم يصل إلى العقل وبالتالى فالعقل لم يلاحظه – وبالتالى فليس هناك إدراك حسى بالرغم من وجود الحركة المعتادة فى الأذن التى تؤدى فى كل مرة يحدث فيها التنبيه إلى تكوين صورة ذهنية أو فكرة عن هذا الصوت .

وعلى ذلك فنقص الإحساس أو عدمه فى هذه الحالة لا يرجع إلى عجز فى أعضاء الحس أو إلى أن أذن الإنسان كان تأثرها أقل فى تلك اللحظة عن

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

الأوقات الأخرى التى كانت تسمع فيها – إنما يرجع إلى أن عقل الإنسان لم يلتفت إليها أو يلحظها . لذلك فهى لن تؤدى إلى تكوين أى انطباع فى العقل ولا إلى أى فكرة – لأنه لم يكن هناك إدراك حسى .

وعلى ذلك فكلما كان هناك إحساس أو إدراك حسى – قامت بالتالى فى عقل الإنسان وتكونت الأفكار التى تناسبه فى العقل[١] .

أما القوة الثانية الموجودة فى العقل والتى بناء عليها يمكن للإنسان أن يتقدم بخطى واسعة فى طريق المعرفة – فهى ما يسميها لوك باسم قوة الاحتفاظ Retention أو الحفظ . وهى تلك القوة القادرة على الاحتفاظ بالأفكار البسيطة التى تكونت فى العقل .

والاحتفاظ بالأفكار يكون بطريقتين :

١ – إما بالاحتفاظ بالفكرة أو الإبقاء عليها فى الذهن مدة معينة بدون أن تغيب عن عقل الإنسان أو تختفى عن انتباهه – وهذا ما يسميه لوك بالتأمل Contemplation .

٢ – وإما بإحياء الصور الذهنية أو الأفكار مرة أخرى بعد أن تكون قد اختفت أو أصبحت بعيدة عن مخيلتنا أو نظرنا. وهذا ما يسميه لوك بالتذكر[٢] .

ومعنى هذا أن أى فكرة إذا ما احتفظ بها العقل فى مجال انتباهه استطاع أن يتأملها وبالتالى أن يكون منها ومن غيرها بعض الأفكار المركبة – إلا أن العقل بطبيعته دائم التأثر بالانطباعات الحسية المتتالية التى لا تنتظر طويلا حتى ينتهى العقل من تأملاته . لذلك نجد أن العقل دائماً بعد أن يدرك الفكرة يتركها جانباً ليدرك غيرها وهكذا . . . والسؤال الآن : أين تذهب هذه الأفكار القديمة ؟ هل أصبحت معدومة تماماً حين اختفت من مجال انتباهنا ؟

يذكر لوك أنها تكون مختزنة فى الذاكرة The Memory[٣] .

---

(١) Essay, B. II, ch. IX, sec. 4, p. 92.

(٢) Ibid, B. II, ch. X, sec. 2, p. 97.

(٣) نفس المرجع السابق – نفس المرجع .

والتذكر نوعان بالنسبة للوك[١] :

(ا) إما استرجاع إرادى للمدركات أو الأفكار — وهذا يتضمن المجهود الذى يبذله العقل فى البحث عن الأفكار أو الألفاظ المنسية .

(ب) وإما استرجاع لا إرادى — تظهر فيه الذكريات تلقائيًّا — لأنها قد تظهر أحياناً من تلقاء نفسها فى عقولنا فترتفع من مستوى الخلايا المظلمة التى كانت توجد فيها — إلى الظهور فى ضوء النهار[٢] .

إلا أن تفسير لوك للذاكرة بهذا المعنى جعل نظريته موضعاً للنقد[٣] .

إذ كيف يتفق رأيه فى الذاكرة بهذا المعنى — مع رفضه لفطرية الأفكار بناء على أنه لا يمكن أن توجد فى العقل أية فكرة ولا يكون العقل واعياً بها ؟

وهذا ماحدا بجون نوريس John Norris إلى نقد لوك[٤] بقوله إنه إذا كانت هناك أفكار موجودة فى العقل — أى فى الذاكرة — ولا يكون العقل بها واعياً أو مدركاً لوجودها —وهى التى كانت يسميها لوك فى المسودة «ب» (Draft B.) بالأفكار الكامنة Latent فلماذا لا يكون هناك أيضاً أفكار فطرية لم يكن العقل مدركاً لها أو واعياً بوجودها من قبل ؟

إن القول بهذا لا يتعارض بالمرة مع الأفكار الفطرية التى توجد فى العقل بالرغم من عدم إدراكه لها — مع أن لوك اعترف بالأولى وأنكر ورفض المعرفة الفطرية[٥] وقد أدرك لوك هذا النقد — فنراه فى الطبعة الثانية من « مقالته فى العقل البشرى » يضيف — إن أفكارنا ليست أكثر من إدراكات واقعية أو حقيقية فى العقل — بحيث لا يمكن أن تكون أى شىء على الإطلاق ما لم يكن هناك إدراك لها — ولذا فوجود الأفكار فى مخزن الذاكرة بهذا المعنى لا يدل إلا على أن العقل فيه من القوة ما يجعله قادراً فى كثير من الحالات على إعادة

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 128.

(٢) Essay, B. II, ch. X, sec. 7, p. 99.

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 129.

(٤) Norris, J., Reflections on Essay Concerning Human understanding, sec. 4.

(٥) Aaron, R. I., John Locke, p. 129.

إحياء الإدراكات perceptions التى كانت فيه من قبل . وبهذا المعنى يمكن تفسير كيفية وجود الأفكار فى الذاكرة على أساس وجود قدرة فى العقل تمكنه من إحياء هذه الإدراكات مرة ثانية . أما كيف يتم إعادة إحياء هذه الإدراكات — فهذا ما يتطلب الشرح — وهذا ما تركه لوك بلا شرح — ولذا يمكن القول بأن تحليله لعملية التذكر كان تحليلا ناقصاً (١).

* * *

وهناك بعض القوى العقلية التى يذكرها لوك — والتى من شأنها أن تساعد الإنسان على التقدم بخطوات حثيثة فى طريق المعرفة بجانب هاتين القدرتين السالفتى الذكر . . مثل القدرة على التمييز والمقارنة والربط واستخدام الأسماء والتجريد .

فالتمييز Disscerning : وخاصة بين الأفكار المختلفة الموجودة فى عقولنا . يعتبر من أهم العمليات التى يقوم بها العقل والتى بدونها لا يمكن أن تتم المعرفة الإنسانية (٢) لأنه بدون هذا التمييز لن يفرق عقل الطفل مثلا بين هذه الأفكار وتلك — بين ما هو أحمر أو أسود — بين صوت الأب والأم — بين طعم الدواء المر وبين الحلوى . . . إلخ وهو لن يفرق كذلك بين ما هو متشابه أو مختلف من بين أفكاره البسيطة .

والتمييز كذلك ضرورى لنجاح كل العمليات العقلية كالتذكر والتخيل والإدراك والانتباه والتفكير — فالتفكير من حيث هو إدراك للعلاقات بين الأفكار المختلفة لاستنتاج أفكار أخرى جديدة — لن يتم إلا إذا استطاع الإنسان أن يميز بين أفكاره حتى يمكنه بالتالى أن يدرك العلاقات الموجودة بينها . وهكذا بالنسبة لبقية العمليات الأخرى .

والمقارنة Comparing : وخاصة بين الأفكار المختلفة — ضرورى لنجاح المعرفة الإنسانية — إذ أن مقارنة الأفكار بعضها ببعض حسب مضمونها

---

(١) نفس المرجع السابق — ص ١٠١ .

(٢) Essay, B. II, ch. XI, sec. 1, p. 103.

ودرجاتها ، أو من حيث الزمان والمكان أو أى ظروف أخرى محيطة بها [١] ضرورية جداً لفهم هذه الأفكار وبالتالى لنجاح المعرفة – وهذه العملية العقلية تعتمد اعتماداً مباشراً على التمييز – لأن المقارنة لا يمكن أن تتم بين فكرة وأخرى إلا بناء على معرفة كل منهما على حدة وتمييزها عن الأخرى .

والتركيب Compounding : يعتبر كذلك من العمليات العقلية الهامة التى تساعد على تطوير المعرفة الإنسانية – إذ بناء عليها يتم ربط مجموعة من الأفكار البسيطة التى تكونت فى العقل عن طريق الإحساس أو التفكير وربطها معاً لتكوين أفكار أخرى مركبة [٢] مثل أفكارنا المركبة عن الجواهر أو الأعراض أو العلاقات .

والتسمية Naming : تعتبر كذلك من ضمن العمليات العقلية الهامة . إذ أنه يساعد على تصنيف الأفكار وربطها برموز مختلفة هى ألفاظ اللغة . وهذه العملية يمكنا ملاحظتها فى الأطفال حين تبدأ الإحساسات المختلفة فى تكوين بعض الأفكار البسيطة فى أذهانهم وتثبت هذه الأفكار فى ذاكرتهم بفعل التكرار . فنجدهم يبدءون تدريجيا فى تعلم استخدام الرموز وخاصة حين تتكون فى الطفل المهارة أو القدرة على التحكم فى أعضاء النطق لإخراج الأصوات بطريقة معينة . فيستخدم الكلمات كرموز يرمز بها للأفكار الموجودة فى ذهنه بحيث يمكنه أن يعبر بها عما يدور فى ذهنه وأن يوصل هذا التعبير للآخرين [٣] .

والتجريد Abstracting : وإذا كان استخدام الأسماء لا يعنى إلا وضع رموز ترمز إلى الأفكار الموجودة فى الذهن . وإذا كانت هذه الأفكار قد تكونت فى العقل بناء على الإحساس أو التفكير . وحيث إن الجزئيات المحسوسة كثيرة ومتعددة – وكذلك بالتالى أفكارنا عنها . فإنه من الصعب أن نجد لكل فكرة بسيطة مفردة فى ذهننا اسماً خاصاً بها . لأن عدد الأسماء التى نتعلمها فى هذه

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٢) Essay, B. II, ch. XI, sec. 6, p. 103.

(٣) Ibid, B. II, ch. XI, sec. 8, p. 104.

الحالة لن يقف عند حد . ولتحاشى ذلك يلجأ العقل إلى عملية التجريد — وذلك بتجريد الأفكار الجزئية من كل ما يجعلها ترتبط بموضوع معين أو ترمز إلى شيء بالذات بحيث تصبح شاملة لأكثر من مدرك حسى فى نفس الوقت وذلك عن طريق فصلها عن كل ما كانت ترمز إليه من الموضوعات الحسية — وكل ما يرتبط أو أو يحيط بهذه الموضوعات من علاقات زمانية أو مكانية [١].

ويضرب لذلك لوك مثلا باللون الأبيض فيقول : « إن الإنسان قد يلحظ وجود اللون الأبيض فى الثلج والطباشير — وهو نفس اللون الذى رآه بالأمس فى اللبن — ولرؤيته للون الأبيض فى الطباشير والثلج واللبن — نجده يبدأ فى تكوين فكرة جديدة ، لا هى خاصة باللبن ولا الثلج ولا الطباشير — بل ممكن أن تنطبق على أى منهم وكذلك على كل ما يمكن أن يتصف بنفس الصفة وأعطى هذه الصفة اسماً جديداً هو البياض Whiteness وهكذا بالنسبة لبقية الأفكار الأخرى المجردة . . . » [٢]

* * *

وبالرغم من أن نتيجة بعض هذه العمليات السابقة التى ذكرها لوك مثل التجريد والتركيب والمقارنة — بالرغم من أن نتيجتها ستكون أفكاراً مركبة تقوم فى الذهن — إلا أن الذهن حين يلتفت إلى ما يجرى بداخله أثناء قيامه بهذه العمليات — سيكون أفكاراً بسيطة عنها .

وسأوضح ذلك بالمثل الآتى :

١ — حين يقوم العقل بربط بعض أفكاره البسيطة مثل اللون الأصفر والصلابة والذوبان فى الماء الملكى . . . إلخ . فإنه يكون نتيجة لهذا الربط أو التركيب — فكرة مركبة عن الذهب .

٢ — وحين يقوم الذهن بملاحظة ما يجرى فيه أثناء ربطه لهذه الأفكار بعضها مع البعض — فإنه يكوّن فكرة بسيطة عن العملية العقلية التى يسميها بالتركيب Compounding وهكذا .

---

(١) Essay, B. II, ch. XI, sec. 9, p. 105.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

الفصل الرابع

الأفكار المركبة

هى تلك الأفكار التى يقوم العقل بتركيبها أو تأليفها من مجموعة من الأفكار البسيطة الموجودة فى العقل — أو من مجموعة من الأفكار المركبة التى نتجت عن أفكار أخرى بسيطة[١] .

وهى تنقسم عند لوك إلى ثلاثة أقسام :

أولا : الأفكار المركبة عن الأعراض Complex ideas of Modies

ويعرفها لوك بأنها تلك الأفكار المركبة التى مهما بلغت من التركيب والتعقيد لا تحتوى فى حد ذاتها على أى افتراض لوجودها بذاتها لأنها تعتبر إلى حد كبير مرتبطة بل ومتوقفة على أفكارنا عن الجوهر[٢] .

وتتكون الأفكار المركبة عن الأعراض حين يبدأ العقل فى تجميع عدد من الأفكار البسيطة وربطها معاً فى فكرة واحدة مركبة . . . ولها نوعان :

١ — الأفكار المركبة عن الأعراض البسيطة :

وهى التى تنتج عن تكرار أو إضافة الفكرة الواحدة البسيطة إلى نفسها أكثر من مرة — ويوضح لوك ذلك قائلا إن عقل الإنسان يمكنه أن يستغل الفكرة البسيطة الواحدة فى تكوين أفكار أخرى مركبة عن طريق إحداث بعض التغيير فيها . . . فمثلا إذا اخترنا فكرة بسيطة مثل فكرة الوحدة Unity وجعلنا نكررها ، فإننا نصل منها إلى أفكار أخرى مثل فكرة الدستة أو المليون..إلخ

---

(١) Essay, B. II, ch. XII, sec. 1, p. 108.

(٢) Ibid, B. II, ch. XII, sec. 4, p. 109.

هذه الأفكار المركبة التى وصلت إليها تختلف وتتميز تمام الاختلاف والتميز عن الفكرة البسيطة الأصلية [١] لأن فكرة الوحدة فكرة بسيطة بينما فكرة الدستة او المليون أفكار مركبة . . ولكن لكونها مجرد إضافات أو تكرار لفكرة الوحدة — فقد جعلها لوك أفكاراً — ولو أنها مركبة — إلا أنها بالنسبة لأفكارنا عن الأعراض تعتبر بسيطة .

وعملية تكرار أو إضافة الفكرة البسيطة الواحدة قد تكون تكراراً للوحدة العددية كما هو الحال فى المثال السابق — وقد تكون تكراراً لوحدة مكانية أو زمنية — وقد لا يقف هذا التكرار للفكرة البسيطة الواحدة عند حد معين فنصل إلى فكرة اللانهاية .

وبذلك يمكن للعقل أن يكون أفكاراً مركبة عن أعراض الزمان والمكان واللانهاية [٢] .

الأفكار المركبة عن المكان[٣]

يقول لوك إن الإنسان يمكنه أن يصل إلى تكوين فكرة عن المكان بواسطة حاستى اللمس والبصر. لأنه من الواضح أن الناس يدركون بأبصارهم أن هناك مسافة ما بين الأجسام مختلفة الألوان أو بين أطراف الجسم الواحد. بل حتى فى الظلام يمكنهم أن يدركوا ذلك بشعورهم أو بواسطة حاسة اللمس[٤] .

وفكرة المكان عند لوك تختلف اختلافاً كبيراً عنها عند نيوتن . مع تأثر الأول بالثانى فى أكثر من موضع فى فلسفته — ولتوضيح فكرة نيوتن عن المكان لابد من ذكر رأى مور أحد أفلاطونيي كمبردج الذى أثر فى نيوتن تأثيراً كبيراً فى هذا المجال .

---

(١) Essay, B. II, ch. XIII, sec. 1, p. 111.

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 148.

(٣) سأستخدم أثناء حديثى عن المكان كلمة مكان ترجمة لكلمة space وكلمة موضع ترجمة لكلمة place وكلمة وضع ترجمة لكلمة position وكلمة موقع ترجمة لكلمة location وكلمة فراغ ترجمة لكلمة vacuum.

(٤) Essay, B. II, ch. XIII, sec. 2, p. 111.

فقد اتفق مور مع غيره من أفلاطونيى كمبردج على ضرورة التمييز بين امتداد المادة وبين المكان [١] فالمكان بالنسبة له موجود وراء حدود هذا العالم المادى، ممتد إلى ما لا نهاية مكوناً بذلك الصورة الخلفية background أو الأرضية — الخالدة الثابتة للمادة المتحركة . وعلى ذلك فالمكان ليس متميزاً فقط عن الجسم من الناحية المنطقية . بل هو حقيقة كذلك . ولذا فهو لا يمكن أن يكون مجرد وهم phantasm أو أن يكون موضوعاً لخيالنا بل له وجود حقيقى واقعى .

وقد عرف نيوتن المكان بأنه استمرار مطلق يمتد لا نهائياً فى جميع الاتجاهات بمعنى أنه ماهية موضوعية توجد داخلها الأجسام أو تتحرك بينما هى نفسها لا تتحرك ولا تغير من طبيعتها على أى وجه من الوجوه [٢] .

كما ذهب فى كتابه المبادئ Principia إلى أن المكان المطلق بحكم طبيعته ذاتها — وبدون الارتباط بأى شىء من الأشياء الخارجية — يظل دائماً كما هو ثابتاً غير متحرك [٣] .

أما بالنسبة للوك فالأمر مختلف . إذ أن المكان فى نظره نسبى وليس له وجود مطلق بمعنى أنه مجرد إمكان Possibility توجد فيه الأجسام وتتمدد .

وقد تطور تفكير لوك حول هذا الموضوع وخاصة فى المدة ما بين عامى ١٦٧٦ ، ١٦٧٨ وكتب فى هذه المدة ثلاث رسائل قصيرة تتعلق بهذا الأمر [٤] ذهب فى أولها إلى أنه يفضل اعتبار المكان نتيجة لوجود الجسم — بحيث لا يمكن أن يكون له وجود حقيقى بدون وجود المادة .

وعلى ذلك « فالمكان الخيالى Imaginary Space أى المكان الذى نظن أنه يمتد وراء حدود العالم المادى — يبدو لى أنه لا يمكن أن يكون شيئاً أكثر من عالم خيالى — وذلك لأن كلا من المكان أو الامتداد إذا فصلناهما فى تفكيرنا عن المادة والجسم — فلن يكون لهما كما يبدو لى — أى وجود حقيقى ، أكثر من

(١) Gibson, J., Locke's theory of Knowledge, p. 246.

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 149.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 428.

حقيقة الوجود التى تبدو فى فكرة العدد – بدون أن يكون هناك شىء يمكن عده[١] » .

وهو فى هذا الصدد متأثر إلى حد كبير بهوبز الذى ذهب إلى أن المكان هو ما يمكن أن يملأ بواسطة أى جسم – وحيث إنه لا يوجد شىء حقيقى بالنسبة لهوبز سوى الجسم وأعراضه – فإن المكان لا يمكن إلا أن يكون وهماً Phantasm أو موضوعاً لخيالنا[٢].

ثم بدأ لوك يغير من وجهة نظره فى السنوات التالية. مفسراً المكان تفسيراً علاقياً – على أساس أنه ليس شيئاً فى ذاته أكثر من المسافة فيقول : « إننا إذا نظرنا إلى المكان على أنه مسافة مجردة – فإنه يبدو لى مجرد علاقة بحتة. والامتداد الذى نعتبره صفة أساسية داخلية بالنسبة للجسم ليس أكثر من العلاقة التى توجد بين أطراف الجسم والمسافات الموجودة بين هذه الأطراف .

وعلى ذلك فإنه يمكننا أن ندرك المكان بدون جسم ، لا على أنه شىء حقيقى – بل على أنه مجرد إمكان بحت لوجود الجسم»[٣] .

ثم تغيرت نظرة لوك إلى المكان من جديد فى الفترة ما بين عام ١٦٧٨ حتى ظهور كتابه « مقالة فى العقل البشرى » عام ١٦٩٠ – فبدلا من أن ينظر إلى المكان فى ذاته Space in itself على أنه عبارة عن تحديد لعلاقة معينة موجودة ضمناً بين الأطراف – أصبح ينظر إليه على أنه شىء متجانس وغير محدود Uniform and boundless يمكننا أن نحدد فيه وضع الموجودات المتناهية بعضها بالنسبة إلى بعض . بناء على علامات محسوسة Sensible marks وهو فى هذا متأثر بنظرية مور ونيوتن .[٤]

ثم انتهى لوك بتفكيره فى معنى المكان – إلى ما ذهب إليه فى « مقالة فى

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .
(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .
(٣) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٤٩ .
(٤) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٥٠ .

العقل البشرى » . من أن المكان الخيالى ليس له وجود إلا فى أذهاننا فقط — لأن المكان الحقيقى فى نظره :

١ — أما ذلك المكان الذى يشغله جسم معين . والذى يتوقف وجوده على وجود ذلك الجسم فيه .

٢ — أو ذلك المكان الذى يوجد بين جسمين . بحيث يصبح وجوده متوقفا على وجودهما معاً[١] .

فإذا نظرنا إليه على أنه مجرد بعد بين أى جسمين أو شيئين سمى باسم المسافة Distance أما إذا نظرنا إليه على أساس ارتباطه بجسم معين يشغله ، وأدخلنا فى حسابنا طول ذلك الجسم وعرضه وارتفاعه فهذا ما أسميه بالسعة . وهو نفس المعنى الذى يفهم من كلمة امتداد Extension .[٢]

وعلى ذلك فالمكان فى حد ذاته — كما يقول لوك — لا يمكن أن يكون وحده ماهية موضوعية لأنه لن يكون شيئاً حقيقياً إلا إذا شغله جسم ما .. إنه مجرد إمكان بحت لا تتحقق له صفة الوجود إلا بنسبته إلى أحد الأجسام . وهو فى هذا الصدد متأثر إلى حد كبير بنظرية جسندى القائلة بأن المكان لا يمكن أن يكون جوهراً ولا عرضاً — بل مجرد سعة Capacity فى الإمكان شغلها بالماهيات المختلفة[٣] .

ولذلك فلوك حين يتكلم بعد ذلك عن معنى المكان اللامتناهى ، إنما يقصد بذلك معنى سلبياً وليس إيجابياً — بمعنى أنه المكان الذى يمكن أن يشغله جسم ما ، وليس بمعنى أن يكون له وجود حقيقى متعين [٤].

والمكان من حيث اعتباره مجرد بعد بين أى جسمين لا توجد بينهما صلة أو رابطة — يثير فى عقل الإنسان فكرة مركبة أخرى عن الكبر أو العظم

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 149.

(٢) Essay, B. II, ch. XIII, sec. 3, p. 111.

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 150.

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ١٥١ .

Immensity وذلك لأن الناس قد تعارفوا على قياس هذه المسافة بين أى جسمين أو نقطتين بوحدات قياسية معينة مثل البوصة والقدم والياردة والقامة وغيرها[١] . فإذا ما بدأ عقل الإنسان فى إضافة فكرته عن وحدة قياسية معينة — إلى نفسها أكثر من مرة أمكنه باستمرار هذه الإضافة إلى أقصى ما يستطيع — أن يكون فكرة جديدة عما نسميه بالكبر أو الضخامة .

وفكرتنا عن المكان من حيث هو « المسافة أو البعد بين أطراف أو نهايات أى شىء ممتد أو موضع ، » تثير فى عقولنا أنواعاً غير متناهية من الأشكال . لأنه بجانب هذا العدد الكبير من الأشكال الموجودة فعلا فى الأجسام المادية المحيطة بنا — هناك أشكال أخرى يقوم العقل بإنتاجها حين يغير من فكرته عن المسافات الموجودة بين نهايات أى جسم . فيحدث تأليفات أو تركيبات جديدة فتتخذ أشكالا جديدة باستمرار وإلى درجة غير محدودة [٢].

فكرة الموضع : Of Place

وكما رفض لوك تعريف نيوتن للمكان باعتباره شيئاً له وجود مستقل عن وجود الأجسام الطبيعية الّتى تشغله فقد رفض كذلك تعريف نيوتن لفكرة الموضع — بأنه ذلك الجزء المحدود من المكان والذى يشغله جسم ما . أو هو ذلك الجزء من المكان الذى يشغله الجسم [٣].

وكما كانت فكرة لوك عن المكان — من حيث إنه عبارة عن المسافة أو العلاقة بين أى نقطتين أو جسمين ، فإن فكرته عن الموضع ليست أكثر من الفكرة عن العلاقة بين أى شىء ، وأى نقطتين أخريين تحتفظ كل منهما بالبعد بينها وبين الأخرى — وكذلك بينها وبين الشىء أو الجسم نفسه[٤] .

---

(١) Essay, B. II, ch. XIII, sec. 4, p. 111.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

فإذا وجدنا مثلا أن العلاقة أو المسافة بين جسم معين ، وبين أى نقطتين ولتكونا ا ، ب — هى نفس المسافة بينه وبين هاتين النقطتين بعد فترة معينة . فإن هذا معناه أن الجسم لم يتحرك بل ظل فى مكانه أما إذا كانت هذه العلاقة أو المسافة قد تغيرت — فهذا يعنى أن الجسم قد تحرك أو غير مكانه[١] .

وعلى ذلك فإن فكرتنا عن الموضع ليست شيئاً أكثر من فكرتنا عن الوضع النسبى Relative position لأى جسم أو أى شىء معين[٢] :

ويستنتج لوك من ذلك أن هذه الفكرة تتكون فى الذهن بنفس الطريقة التى تتكون بها فكرتنا عن المكان — أى بواسطة البصر أو اللمس أو أى حاسة آخرى تؤدى إلى تكوين أفكار عن الامتداد والمسافة فى أذهاننا[٣] .

أما عن موضع العالم . فمن الواضح أننا لا يمكننا أن نكون أى فكرة عنه بالرغم من أننا نستطيع ذلك بالنسبة لكل جزء من أجزائه — وذلك لأننا لا يمكننا أن نتصور وراء هذا العالم أى أجسام أخرى بحيث تكون على مسافات محددة أو أبعاد معينة بالنسبة لهذا العالم[٤] . بمعنى أنه لا يوجد وراء هذا العالم كله سوى نوع واحد من الامتداد أو نوع واحد من المكان ، لا يجد فيه العقل أى تغير — خال ليس فيه أى علامات أو موجودات . وبناء على ذلك فنحن حين نتكلم عن العالم على أنه موجود فى مكان ما Somewhere إنما نعنى أنه موجود — ونؤكد هذا الوجود — ولكننا لا نعنى بذلك أى تحديد لموضعه لأنه ليس له موضع ، ولا موقع Location [٥]

الأفكار المركبة عن أعراض الامتداد الزمنى Of Duration

وكما اعتبر لوك أن المكان هو المسافة أو البعد بين أى جسمين أو أطراف

---

(١) Essay, B. II, ch. XIII, sec. 10, p. 114.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

الجسم الواحد فكذلك الزمان – ليس سوى المسافة أو البعد بين أى حادثتين متتابعتين أو فكرتين متلاحقتين .

وكما أن المسافات المكانية يمكن أن تحدد بوحدات قياسية صغيرة كالقدم أو الياردة . . . إلخ فكذلك المسافات الزمنية يمكن أن تحدد بوحدات قياسية صغيرة كاللحظات أو الساعات . . . إلخ .

والامتداد الزمنى بصفة عامة ليس أكثر من امتداد الوجود فى الزمان أو كما يسميه لوك بالامتداد الدافق Fleeting extension بمعنى استمرار الشيء الممتد فى الوجود – وذلك بتتابع أجزائه وتلاحقها ، بظهور أجزاء جديدة واختفاء أخرى قديمة . .[١]

وملاحظة الإنسان لأفكاره هى أحسن وسيلة يمكن أن تؤدى إلى تكوين هذه الفكرة . . فإذا تأمل الإنسان فى ظهور هذه الأفكار الواحدة وراء الأخرى . فإنه سيصل إلى تكوين فكرة عن معنى التتابع Succession وذلك لأنه سيلحظ أن هناك فكرة تظهر ثم تختفى لتظهر محلها فكرة أخرى جديدة وهكذا كل فكرة تتبع الأخرى وتزول ليحل محلها فكرة أخرى جديدة [٢].

والإنسان فى نظر لوك لا يصل إلى تكوين فكرته عن التتابع بواسطة فكرة الحركة التى نحس بها بواسطة حواسنا – لأن الإنسان الذى يرى أمامه جسما متحركاً – لن يدرك هذه الحركة فعلا إلا إذا أحدثت هذه الحركة نوعاً من الأفكار المتلاحقة المتتابعة فى الذهن[٣] .

وعلى ذلك ففكرة الحركة تعتمد على معنى التتابع وليس العكس .

وما دام لوك يذكر أن فكرتنا عن الامتداد الزمنى لا تتكون فى الذهن إلا عن طريق فكرتنا عن التتابع – وما دام التتابع يستدعى فى الذهن معنى الاستمرار فى الوجود ، فإن معنى الامتداد الزمنى هو ما نفهمه من استمرار الوجود الزمنى

---

(١) Essay, B. II, ch. XIV, sec. 1, p. 122.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق – صفحة ١٢٤ .

أو فكرتنا عن الزمن الذى يستغرقه تتابع ما ، وخاصة فى الأفكار . وعلى ذلك فنحن إذا عزلنا فكرة معينة من هذه الأفكار المتابعة على حدة فإنها لا تفيد معنى الامتداد الزمنى – بل تدل على جزء معين منها . هو ما يسميه لوك باسم اللحظة An instant [1].

وفكرتنا عن الامتداد الزمنى يجب قياسها أو تحديدها بفترات معينة أو توقيتها وترقيمها بعصور محدودة « وهى ما نطلق عليه لفظ الزمن Time وإلا أصبح جزءاً كبيراً من معرفتنا مضطرباً مهوشاً ، وأصبح أغلب ما نعرفه عن التاريخ أشياء مختلطة عديمة القيمة » [2].

إلا أن هذا لا يعنى أن لوك قد وحد بين معنى الامتداد الزمنى والزمان بل هو يفرق بينهما مثل ديكارت الذى رأى أن الزمن ليس إلا حالة من أحوال أو عرضًا من أعراض mode الامتداد الزمنى [3] .

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يقيس الا متداد الزمنى . فى حين أنه ليس أكثر من فكرة عامة غير محدودة ؟

ليس هناك أنسب كما يذكر لوك من حركة الشمس الظاهرية – سواء اليومية أو السنوية ، والقمر . إذ أنها حركة موجودة منذ بدء الطبيعة أو الأزل – منتظمة يتفق عليها كل الناس – لكى نعتبرها هى المقياس الصحيح الذى يمكننا أن نعتمد عليه فى هذا الصدد [4].

إذ أننا بملاحظاتنا أن هناك أشياء معينة مثل الشمس أو القمر تظهر بانتظام فى أماكن معينة على فترات متساوية منتظمة ، يمكننا أن نصل إلى تكوين فكرة عن المقاييس التى نقيس بها أو بناء عليها هذا الامتداد الزمنى مثل السنوات والأيام والساعات والدقائق . . . إلخ .

---

(١) Essay, B. II, ch. XIV, sec. 10, p. 125.

(٢) Ibid, B. II, ch. XIV, sec. 17, p. 127.

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 156.

(٤) Essay, B. II, ch. XIV, sec. 17, p. 127.

ثم بإضافة هذه المقاييس الزمنية وتكرارها ومضاعفتها فى أذهاننا – يمكن أن نصل إلى فكرتنا عن الغد أو السنة القادمة . . . إلخ .

فإذا استمرت هذه الإضافة بدون أن نصل إلى نهاية – فإننا نصل إلى فكرتنا عن الأبدية Eternity [١].

الأفكار المركبة عن العدد : of Number

يقول لوك إنه ليس هناك من بين الأفكار ما هو أكثر بساطة من فكرة الوحدة Unity أو الواحد One لأنها تعرض على ذهن الإنسان أو تتكون فيه بواسطة أكثر من طريق – فكل موضوع من موضوعات الحس أو كل فكرة فى الذهن ، أو رأى فى الفهم – إنما يحمل معه فى عقولنا هذه الفكرة – لذلك فهى من أكثر الأفكار مصاحبة لعقولنا [٢] ولذا فقد ظن لوك أن فكرة العدد تعتبر أقرب مثل يوضح العلاقة أو الروابط بين الفكرة البسيطة . وبين أفكارنا المركبة عن الأعراض البسيطة[٣] فيقول فى هذا الصدد : « إننا إذا أضفنا هذه الفكرة وكررناها مرة بعد أخرى فإننا سنصل إلى الأفكار المركبة عن أعراضها المختلفة ، فإذا جمعنا ١ + ١ سنصل إلى فكرة مركبة عن الازدواج أو الثنائية – وإذا كررنا عملية الإضافة بجمع ١٢ وحدة من هذه الوحدات إلى بعضها سنصل إلى الفكرة المركبة عن الدستة ، وهكذا . . عن العشرين أو المليون أو أى عدد آخر [٤] بحيث تختلف كل حالة من هذه الحالات وتتميز عن الأخرى – إذ أن فكرتى عن الاثنين تختلف عن فكرتى عن الثلاثة أو الاثنى عشر – مع أنها جميعاً نشأت عن تكرار فكرة الواحد .

وحيث إن هذه الأفكار المركبة عن الأعراض البسيطة للعدد ، مختلفة

---

(١) Essay, B. II, ch. XIV, sec. 32, p. 133.

(٢) Ibid, B. II, ch. XVI, sec. 1, p. 141.

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 160.

(٤) Essay, B. II, ch. XVI, sec. 2, p. 141.

متميزة فيجب أن نسمى كلا منها باسم يختلف عن اسم الأخرى كالاثنين والثلاثة .

الأفكار المركبة عن اللانهاية : Of Infinity

يذكر لوك أن أفكارنا المركبة عن اللانهاية ليست سوى حالات أو أعراض modes لفكرتنا عن الكم سواء أكان هذا الكم زمنياً أم مكانياً أم عددياً[١] وهى نكرة سالبة بالنسبة لفكرة النهاية الموجبة — ويقوم العقل بتكوينها بناء على تكبير أى كم بطريقة لا تنتهى أو تقف عند حد معين .

وعلى ذلك فهى لا يمكن أن تكون إيجابية بمعنى أنها لا تصدق أو تدل أو تشير إلى موجود بعينه بالذات[٢] .

ولوك فى هذا أقرب ما يكون إلى التمسك بالاتجاه التجريبى . بعكس ليبنتز المثالى الذى علق حين قرأ مقالة لوك بقوله « إن اللامتناهى الحقيقى موجود فعلا فى المطلق . الذى هو سابق لكل تأليف أو تركيب والذى لم يتكون من مجرد إضافة أجزاء بعضها إلى بعض »[٣] .

فلوك يبدأ بالكم المحدود المتناهى الموجب ، حتى يصل إلى اللانهاية — بينما يؤكد ليبنتز وجود اللامتناهى المطلق وجوداً أزلياً سابقاً على وجود الأجزاء .

وحيث إن فكرة اللانهائية عند لوك فكرة سالبة — فهو يفرق بين لا نهائية المكان . وبين معنى المكان اللامتناهى بقوله « مع أننا لم نكون فكرة اللانهائية إلا من تأملنا لفكرة الكم — إلا أننا قد نخطئ أحياناً فنربط بين فكرة اللانهاية هذه وبين أى فكرة عن كمية ما يتصورها ذهننا وعلى ذلك فمن الخطأ القول بأن هناك مكاناً لا متناهياً .[٤] إذ أن هذا معناه أننى أقول قضية شطراها

(١) Ibid, B. II, ch. XVII, sec. 1, p. 145.

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 162.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس المرجع .

(٤) Essay, B. II, ch. XVII, secs. 7-8, pp. 148-149.

متناقضان – لأنه ما دام فى ذهن أى إنسان فكرة عن أى مكان أو أى عدد من الأعداد – فمن الواضح أن العقل سيكون مقيداً أو محدداً بهذا المكان بالذات أو ذلك العدد بالذات ، وهذا ما يتناقض مع فكرة اللانهاية .

وبالإضافة إلى هذه الحالات السابق ذكرها – أضاف لوك بضعة أفكار مركبة أخرى عن الأعراض البسيطة :

(ا) **للحركة** : كالإنزلاق والتدحرج والمشى .

(ب) **للصوت** : مثل الكلمات المنطوقة .

(ح) **للألوان** : مثل درجات الألوان .

(د) **للشم والذوق** .

وهذه كلها أفكار مركبة . نتجت عن تكرار فكرة كيفية بسيطة .

الأفكار المركبة عن أعراض الفكر . وأهمها [١] أفكارنا عن الإحساس والتذكر والاسترجاع والتأمل والانتباه .

بالإضافة إلى بعض الأفكار الأخرى عن الأعراض البسيطة عن الفرح والألم والخير والشر والحب والكراهية وغيرها .[٢]

* * *

٢ – الأفكار عن الأعراض المركبة

وهى التى تنتج لا عن تكرار أو إضافة الفكرة الواحدة البسيطة إلى نفسها مرة أو أكثر – بل عن طريق قيام العقل بربط مجموعة من الأفكار البسيطة مختلفة النوع – لتكوين فكرة جديدة مركبة تختلف فى ذاتها عن أى من هذه الأفكار البسيطة التى تركبت منها [٣]– مثلا أفكارنا المركبة عن الجمال والقتل والسكر drunkenness والكذب والشجاعة والاعتبار والموافقة والجرى والكلام

---

(١) Ibid, B. II, ch. XIX, secs. 1-4, pp. 158-160.

(٢) Essay, B. II, ch. XX, secs 1-5, pp. 160-161.

(٣) Ibid, B. II, ch. XJI, sec. 5, p. 110.

والانتقام ، وغير ذلك [١] — بحيث لا يكون لها ما يطابقها فى الوجود الواقعى ، ولا يمكن أن نعتبرها كرموز تدل على أى موجودات حقيقية ، إنما هى مجرد تأليفة أو تركيبة عقلية — كونها العقل من مجموعة من أفكاره البسيطة المنفصلة المستقلة ، وهذا ما يفرقها عن الأفكار المركبة عن الجوهر كما سنرى فيما بعد [٢].

---

(١) Ibid, B. II, ch. XXII, sec. 10, p. 206.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

ثانيا : الأفكار المركبة عن الجوهر

كلمة جوهر Substance اصطلاح فلسفى تطور فى معناه منذ القدم حتى العصر الحديث . وكان الاستعمال الشائع قديماً يشير إلى أنه ذلك الشىء الذى يتضمن وجوده كله داخل ذاته ، والذى لا تنبع حقيقة وجوده من أى شىء آخر سواه — فهو علة ذاته ومحدود بذاته Self-Determined وهو أساس بقية الأشياء ومبدؤها ، بينما هو لا أساس له ولا مبدأ إلا ذاته [١] .

وبهذا المعنى يعد الماء عند طاليس جوهر الوجود طالما هو كان أصل الحياة وكذلك الهواء عند أنكسمانس ، والنار عند هيراقليطس ، والذرة عند جماعة الذريين أمثال ديموقريطس وليوقبيس وهو العدد عند الفيثاغوريين [٢] .

وقد تطور معنى الجوهر فأصبح بالنسبة لكل من سقراط وأفلاطون يشير إلى ما هو كلى — وإن اختلفت الكليات عند كل منهما ، إذ أن الكليات عند سقراط عقلية تعتمد فى وجودها على العقل وليست موجودة أو متحققة فى عالم آخر ،ولذا فهى بالنسبة لسقراط — حيث إنها من صنع العقل — كليات عقلية غير متعينة كالتقوى والعدالة والإنسانية [٣] . . . إلخ . بينما الجواهر عند أفلاطون كليات متعينة — هى مثل عقلية موجودة بالفعل فى عالم المثل ، وهى ليست من صنع العقل بل هى جواهر ثابتة غير المتغيرة قديمة أزلية أبدية .

---

(١) Stace, W.T., A Critical History of Greek Philosophy, p. 187, (Macmillan's edition, London, 1950).

(٢) Allan, D.J., The Philosophy of Aristotle, p. 107, (Oxford University Press, London, 1952).

(٣) محاورات أفلاطون — محاورة أوطيفرون ، صفحة ٤٠ وما بعدها — (عربها عن الإنجليزية الدكتور زكى نجيب محمود — طبعة ثانية ١٩٤٥) .

والجوهر عند أرسطو هو أحق المقولات باسم الوجود . أما التسعة مقولات الباقية فلا تسمى موجودات إلا بالتبعية لأنها حالات للجوهر وهو سابق عليها ، فإنها تتقوم به بينما هو يتقوم بذاته . وعلى ذلك فهو الشيء القادر على أن يوجد وجوداً مستقلا بحيث لا يعتمد فى وجوده على وجود الأعراض مع كونه دائم الارتباط بها[١] .

والجوهر عند أرسطو يطلق على ثلاثة معان[٢] :

(ا) على المادة — « الهيولى » . . . موضوع الصورة

(ب) على الصورة — موضوع الخصائص والأعراض

(جـ) على المركب — من المادة والصورة معاً — أى الموجودات

وعلى ذلك فكل الموجودات جواهر مثل الذهب والحصان وسقراط — من حيث إنها التقاء طبيعى وتحقق منسجم للهيولى والصورة معاً .

ومما هو جدير بالذكر أن أرسطو لا يعتبر الجوهر شيئاً مفارقاً للأعراض رغم أنه فرق بينهما — لأن الجوهر فى نظره هو الشيء بمقولاته ؛ ونحن إذا قلنا سقراط أبيض — إنما نعنى أن البياض هو لشخص حاصل عليه وعلى غيره من المحمولات مؤتلفة فيه ، ولذا فالمعانى الكلية لا يمكن أن توجد إلا فى العقل فقط ما دامت من صنعه .

وقد ظلت هذه الفكرة الأرسطية سائدة حتّى تلقفتّها فلسفة القرون الوسطى — والفلسفة المدرسية — فأكدتّها وزادتّها توضيحاً إذ أنها فى جملتّها لم تكن إلا فلسفة ميتافيزيقية قامت لتخدم الدين ، فتلقفت كل ما يمكن أن يخدم ذلك الغرض من فلسفة أفلاطون وأرسطو ، وتقبلت فكرة الجوهر .

وخير من يمثل الاتجاه الأفلاطونى فى فلسفة العصور الوسطى أوغسطين . فالنفس الإنسانية عند القديس أوغسطين جوهر روحى خالد ثابت مباين للجسم

---

(١) Ross, W.D., Aristotle, p. 165 — (Methuen, 7th. edition, London, 1956).

(٢) Aristotle, Metaphysics, B.Z., ch. 3, p. 171 & p. 212.

أو المادة — جوهر مفكر تام فى ذاته[١] والمادة كذلك جوهر بمعنى أنها « الحامل » الذى يحمل الصور المختلفة . الثابت الذى لا يناله أى تغيير[٢] .

وكما كان أوغسطين يمثل الاتجاه الأفلاطونى — كان توما الإكوينى يمثل الاتجاه الأرسطى الذى ذهب إلى أن الجواهر تتدرج فى نظام هرمى فى قمته الجوهر الأول أى الله — وهو الجوهر المتحقق بالفعل والذى لا يتضمن جوهره أى وجود بالقوة — وفى قاعدة هذا النظام الهرمى نجد المادة الأولى — وهى الجوهر الأخير فى ترتيبه وهو على عكس الجوهر الأول — إمكان مطلق بلا تحقق ولا تعين[٣] وفيما بين القمة والقاع نجد الجواهر الأخرى المتدرجة كالجواهر الروحية المنفصلة — وهى الملائكة — ثم الإنسان — ثم الحيوان — ثم النبات — وتأتى الموجودات الطبيعية بعد ذلك فى الدرجة — وهى الجواهر غير الحية[٤] .

وقد تكلم الفلاسفة المسلمون كذلك عن الجوهر ، فالكندى مثلا — أول فلاسفة الإسلام— قسم الوجود إلى وجودين : « وجود حسى ، وجود عقلى» إذ أن الأشياء كلية وجزئية ، وأعنى بالكلية الأجناس للأنواع والأنواع للأشخاص — وأعنى بالجزئية الأشخاص للأنواع — والأشخاص الهيولانية واقعة تحت الحواس— أما الأجناس والأنواع فغير واقعة تحت الحواس ولا موجودة وجوداً حسياً بل تحت قوة من قوى النفس التامة . أعنى الإنسانية وهى المسمى بالعقل الإنسانى[٥] أى أن الكليات سواء كانت أجناساً أو أنواعاً موجودة بالرغم من عدم كونها مدركة بالحواس .

وقد أوضح الجوينى فى كتاب الإرشاد فكرة الجوهر من حيث إنها شىء

---

(١) Curtis, S.J., A short History of Western Philosophy in midlde ages, p. 18 (London, 1950).

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ١٩ .

(٣) Compleston, F.C., Aquinas, p. 95 (a pelican book No. A 349).

(٤) Curtis, S.J., A short History of Western Philosophy, p. 180.

(٥) نصوص فلسفية عربية ، نص الكندى من كتاب « الفلسفة الاولى » — صفحة ٦٠ . تحقيق دكتور عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٥

ثابت أولى يخالف الأعراض قائلا : « إن العالم جواهر وأعراض – والعرض هو المعنى القائم بالجوهر . كالألوان والطعوم والروائح (١) » .

ثم تطورت فكرة الجوهر وازدادت وضوحاً فى الفلسفة الحديثة على أيدى كثيرين من الفلاسفة وخاصة ديكارت الذى فرق بين نوعين من الصفات فى الأشياء المحسوسة – صفات ثانوية أى عرضية مثل اللون والطعم والرائحة والصلابة – وبين صفات أولية أساسية مثل الامتداد . وقد أدت به هذه التفرقة إلى القول بالجوهر – إذ ما الذى يبقى من قطعة من الشمع مثلا لو زالت منها كل هذه الصفات العرضية ؟ إنه الجوهر .

والجوهر عند ديكارت ليس فقط جوهراً ماديا – بل هناك أيضاً جواهر روحية – هى النفس أو الروح فى الإنسان .

والجوهر الأول – أى المادى طبيعته الامتداد . بينما الآخر الروحى طبيعته التفكير .

وبذا يمكننا أن نلخص تطور فكرة الجوهر بالشكل الآتى :

١ – الجوهر بمعنى أنه أصل الوجود – كما ذهب إلى ذلك الطبيعيون الأوائل مثل طاليس وانكسمندريس .

٢ – الجوهر بمعنى الكلى – سواء كانت هذه الكليات عقلية كما هى الحال عند سقراط – أو متحققة فى عالم آخر كما هى الحال عند أفلاطون .

٣ – الجوهر بمعنى أنه الشيء ذاته – كما ذهب أرسطو . ولذا فهو الموضوع وليس المحمول فى القضية المنطقية (٢)

٤ – الجوهر بمعنى أنه حامل للأعراض – كما ذهب ديكارت . أو هو ذلك الشيء المختفى وراء الأعراض والذى يمسكها حوله ويجمعها معاً – (٣)

Quod substat accidentibus

---

(١) نفس المرجع السابق ، نص الجوينى من كتاب « الإرشاد » – باب القول فى العلم – صفحة ٣٦ .

(٢) Aristotle, Metaphysies, B. Z, ch. III, p. 171.

(٣) O'connor, D.J., John Locke, p. 73.

٥ – الجوهر بمعنى أنه ذلك الشيء القادر على أن يوجد وجوداً مستقلا أى أنه هو الموجود بذاته Ens per se stans ، والذى لا يعتمد فى وجوده على أى شيء آخر سواه[١].

وقد تأثر لوك بالمعنى الأخير فى فكرته عن الجوهر بصفة عامة – بينما كان تأثره بالمعنى الرابع فى فكرته عن الجواهر الجزئية . وكذلك بالمعنى الثالث، وهذا ما سيتضح أثناء مناقشتى لمعنى الجوهر عند لوك .

فالجوهر عنده هو الشيء فى ذاته the thing itself هو ذلك الموجود الحقيقى الذى نتحدث عنه على أنه شيء مستقل عن الذات قادر على أن يوجد وجوداً مستقلا منفصلا عن غيره من الأشياء[٢] .

أما عن ماهية هذا الجوهر – فهى فى نظره شيء غامض . لأنه إذا ما حاول أى شخص أن يختبر أو يفحص فكرتنا عن الجوهر بصفة عامة – فلن يجد سوى فكرة عن شيء لا يعرفه افترضه حاملا لهذه الصفات التى تحدث فينا الأفكار البسيطة [٣].

إلا أن الفكرة فيما يبدو ما زالت غامضة – إذ ما هو هذا الجوهر الذى افترض وجوده ومع ذلك فأنا أجهل حقيقته ؟

لنفرض مثلا أن أمامى جسماً ما له شكل وحجم ولون وطعم . . . إلخ فهل هذا الجسم شيء آخر غير تلك الأعراض التى أدركها فيه بحواسى ؟ شيء يكون بمثابة الحامل الذى يحمل هذه الأعراض التى أدركها فيه – كما يحمل المشجب الملابس التى أعلقها عليه ؟ أم ليس هناك شيء آخر سوى هذه الصفات التى تزودنا بالمعطيات الحسية المختلفة عنه ؟

يمكننا أن نلخص الإجابة عن هذا السؤال فى قسمين رئيسيين :

---

(١) Laland, A., Vocabulaire Technique et Critique de la philosophie, p. 819. (Paris, 1951).

(٢) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 1, p. 208.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 2, p. 209.

١ – إجابة تذهب إلى أن الشيء ليس سوى مجموعة من المدركات الحسية التى أدركها فيه .

٢ – إجابة أخرى ترى أن هناك وراء هذه المدركات الحسية التى أدركها عنصراً محورياً ترتبط به هذه المدركات لتكون شيئاً معيناً .

أما لوك فهو حائر بين هذين الاتجاهين . إذ يصر على اتجاهه الذى بدأ به فى رسالته « مقالة فى العقل البشرى » . وهو فى نفس الوقت قلق على تراثه الميتافيزيقى – يقول صراحة أن ليس هناك شيء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس – ثم يزعم مرة أخرى أن هناك أشياء غير معروفة موجودة فى الأشياء المحسوسة بحيث تكون بمثابة الجوهر لهذه الأشياء .

وهو كما رأينا – مع تأكيده للنزعة التجريبية فى الفلسفة – يناصر الاتجاه الأخير ، فيقول إن هناك جوهراً وراء هذه الأعراض التى أدركها بحواسى فى الشيء الواحد . . أى أن هناك شيئاً آخر غير مجموعة الصفات التى أدركها بحواسى فى البرتقالة مثلا . . مثل اللون والاستدارة والطعم والرائحة . . . إلخ – هناك جوهر البرتقالة أو البرتقالة فى ذاتها – إنه شيء غير معروف افترض لوك وجوده لكى يتحقق بناء على هذا الوجود ارتباط الأعراض المختلفة – بحيث إننا إذا سألنا – كما يذكر لوك – أى شخص عما وراء هذه الأعراض فى الشيء الواحد « لقال لنا إن هناك جزئيات المادة الممتدة والتى تتميز بالصلابة والامتداد – فإذا ما تساءلنا بعد ذلك عما وراء هذه الجزئيات المادية الممتدة لما كانت هناك إجابة . ولكان حال المسئول فى تلك اللحظة كحال ذلك الهندى الذى سئل عن مكان العالم . فقال إنه موضوع على ظهر فيل كبير – وأين يقف الفيل ؟ على ظهر سلحفاة كبيرة – وأين توجد أو تقف هذه السلحفاة ؟ هنا تحير الهندى وقال إنها تقف على شيء لا أعرفه »[1] .

والنتيجة التى يريد أن يصل إليها من هذا التشبيه هى أن هناك من الأشياء ما هو موجود مع أنه غير معروف أو لا يمكن إدراكه ولا معرفته .

---

(١) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 2, p. 209.

وعلى ذلك ففكرتنا عن الجوهر بصفة عامة . هى فكرتنا عن ذلك الشىء المجهول الذى نفترض وجوده وراء تلك الصفات الحسية الموجودة فى الأجسام والتى لا يمكن أن نتصور وجودها أو قياسها بدون وجود شىء يحملها Sine re Substantia — هذا الشىء الذى لا نعرفه والذى نفترض وجوده هو ما أسميه بالجوهر — أى الشىء الذى يوجد تحت الأعراض أو يقف وراءها أو الذى يمسك بها [١].

وبعد أن ينتهى لوك من الحديث عن فكرته عن الجوهر بصفة عامة يبدأ فى التخصيص فيحدثنا عن الجواهر الجزئية قائلا : إننا يمكننا كذلك أن نكون أفكاراً عن أنواع جزئية من الجواهر مثل أفكارنا عن الرجل والحصان والذهب — وذلك بأن يجمع الإنسان بعقله بعض الأفكار البسيطة التى حين توصل إليها بخبرته وملاحظاته كانت مرتبطة بعضها مع بعض فى شىء واحد موجود فى الواقع (مثل ارتباط اللون الأصفر والطعم الحلو والشكل المستدير فى البرتقالة) والتى يجب أن نفترض أنها لم تظهر إلا نتيجة للتركيب الداخلى لذلك الشىء . أو نتيجة لماهيته الجزئية » [٢] .

ويستطرد لوك قائلا : «وعلى ذلك فأفكارنا المركبة عن جوهر الذهب مثلا ليست سوى فكرة مركبة من أفكارنا البسيطة عنه، مضافة إلى فكرة مبهمة غير واضحة عن ذلك الشىء الذى يتوقف عليه وجود كل هذه الأفكار البسيطة — أى الجوهر — وعلى ذلك فإننا حين نتكلم عن أى نوع من أنواع الجواهر فإننا نقول إنه شىء a thing يتصف بكذا وكذا »[٣] .

وعلى ذلك فالجسم فى نظر لوك هو دائماً شىء ما — بجانب الامتداد والشكل والصلابة والحركة — ولو أن هذا الشىء مجهول — وهو مجهول لدرجة أننا لا يمكننا أن نكون عنه فى أذهاننا أى فكرة واضحة متميزة لأن كل ما هناك

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

هو أننا ندرك صفات معينة مرتبطة بعضها مع بعض . وحيث إننا لا نستطيع أن نتبين كيف ارتبطت هذه الأعراض . فلابد أن نفترض وجود ذلك الحامل الذى يحملها ويربطها بعضها مع بعض ويجعل منها شيئاً واحداً متكاملا[١] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن لوك أثناء عرضه لمشكلة الجوهر ، وأفكارنا المركبة عنه – بدأ بعرض فكرته عن الجوهر بصفة عامة أولا – ثم انتقل منها إلى أفكارنا عن الجواهر الجزئية . أى أنه انتقل من العام إلى الخاص – وكان الأولى به تمشياً مع اتجاهه التجريبى أن يفعل العكس ، فيعرض لكيفية تكوين الأفكار عن الجواهر الجزئية – حتى نصل إلى فكرتنا عن الجوهر بصفة عامة عن طريق التجريد[٢] .

ويبدو أن اهتمام لوك بفكرة الجواهر الجزئية كان يفوق اهتمامه بفكرتنا عن الجوهر بصفة عامة . ويظهر ذلك من المسودات التى كتبها لوك « لمقالته فى العقل البشرى » التى لم يكن يهتم فيها إلا بالجواهر الجزئية بدليل أنه لم يتكلم إلا عنها فقط ، ثم تبين له بعد ذلك أن يضيف كلمة عن الجوهر بصفة عامة بحيث تكون كمقدمة لحديثه عن الجواهر الجزئية ، فأضاف الأجزاء الأولى من الفصل الثالث عشر من الكتاب الثانى من « مقالة فى العقل البشرى »[٣].

ويقسم لوك الجواهر الجزئية قسمين :

١ – جواهر مادية .

٢ – جواهر روحية .

(ا) الجواهر المادية : — Material Substances

وفكرتنا عنها من حيث إنها فكرة مركبة إنما تتكون من ثلاثة أنواع من الأفكار وهى :

---

(١) نفس المرجع السابق – صفة ٢١٠ .

(٢) O'connor, D.J., John Locke, p. 76.

(٣) Aaron, R.I., John Locke, p. 168.

١ ــ أفكارنا عن الصفات الأولية للأشياء

٢ ــ « « « الثانوية «

٣ ــ « « تلك القدرة الموجودة فى كل جوهر مادى على أن يقوم بإحداث أى تغيير فى الصفات الأولية لشىء آخر ، أو أن يستقبل مثل هذا التغيير . وهذا ما سماه لوك باسم القوى الإيجابية أو السلبية فى الشىء . مثل قطعة المغناطيس التى تحدث تغييراً مباشراً فى جزئيات الحديد(١) .

فإذا ما جمعنا هذه الأفكار البسيطة السابقة بعضها مع بعض استطعنا أن نكوّن منها فكرة مركبة جديدة عن ذلك الجوهر المادى . ويضرب لوك مثلا بالبجعة the Swam فيقول « إن الفكرة التى ترمز إليها كلمة بجعة فى ذهن الرجل الإنجليزى هى فكرة اللون الأبيض والرقبة الطويلة والظهر الأحمر والأرجل السوداء بالإضافة إلى القدرة على السباحة فى الماء مع إخراج أصوات معينة . . كل هذه الأفكار البسيطة حين ارتبطت فى ذهن الشخص كان ارتباطها فى الواقع حول جوهر واحد بدونه لم تكن هذه الصفات لترتبط بعضها مع بعض ــ هو جوهر البجعة أو البجعة ذاتها »(٢).

الجواهر الروحية Spiritual Substances

وقد طبق لوك كل ما قاله، وما اعتقد أنه قد برهن به على وجود الجواهر المادية ــ طبقه كذلك فى المجال العقلى قائلا : « إننا إذا لاحظنا عمليات العقل الداخلية كالتفكير والتعقل . . إلخ سنجد أنها عمليات لا يمكن أن تقوم وحدها أو تتم بذاتها ، بل لابد من وجود شىء وراءها تعتمد فى وجودها عليه . وحيث إننا لا يمكن أن نتصور وجودها المستقل ولا أن نفهم كيفية اعتمادها على الجسم أو صدورها عنه أو وجودها كنتيجة له فإننا سنفترض لهذه العمليات العقلية جوهراً آخر ــ يعتبر بمثابة الحامل لها أو الأساس الذى تعتمد عليه فى

---

(١) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 9, p. 212.

(٢) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 14, p. 216.

وجودها ، وتعتبر هى كمظاهر أو كأعراض له — وهو أيضاً شىء مجهول غير معروف حاله كحال الجوهر المادى المختفى وراء جزئيات المادة[١] .

« ونحن لا نستطيع أن نفترض عدم وجود الجوهر الروحى لأن هذا سيؤدى بنا إلى إنكار الجوهر المادى أيضاً — فهل من المعقول أن نزعم أن الجسم المادى غير موجود ما دمنا لا نعرف فكرة واضحة متميزة عن جوهر المادة ؟ إن الإجابة على هذا تنطبق كذلك على النفس فليس من المعقول أن تنكر وجود النفس لأننا لا نعرف فكرة واضحة متميزة عن جوهرها »[٢].

وبعد أن ينتهى لوك من تأكيد فكرته عن الجوهر الروحى — يقارن بينه وبين الجوهر المادى وخاصة من حيث أفكارنا الأولية عن كل منهما ونلخصها فيما يلى:

١ — أفكارنا عن الجوهر المادى :

وهى فكرتنا عن تماسك الجزئيات المنفصلة التى تتكون منها مادة الجسم، وفكرتنا عن القدرة الموجودة فى تلك الجزئيات على توصيل الحركة واستمرارها فى الجسم[٣].

٢ — أفكارنا الأولية عن الجوهر غير المادى :

أى الروح وتتلخص فى التفكير أولا ثم الإرادة — أى القوة التى تتمكن بها النفس من تحريك الجسم أو وقفه عن الحركة بواسطة التفكير — تلك الإرادة التى ستؤدى بالتالى إلى فكرتنا عن الحرية (حرية الاختيار) لأن النفس فى هذه الحالة ستكون حرة — تحرك الجسم أو توقفه عن الحركة حين يحلو لها[٤] .

وعلى ذلك ففكرتنا عن الجواهر المادية كما يقول لوك ليست سوى أنها جوهر صلب مادى ممتد . قادر على توصيل الحركة بالدفع by impulse بينما فكرتنا المركبة عن الروح هى أنها جوهر روحى غير مادى مفكر مريد قادر على إحداث الحركة فى الجسم أو إنهائها منه بواسطة الإرادة أو التفكير[٥] .

---

(١) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 5, p. 210.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 17, p. 217.

(٤) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 18, p. 217.

(٥) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 22, p. 218.

ويبدو أن لوك قد أحس بالغموض الذى يكتنف فكرتنا المركبة عن الجوهر فنراه يقول: « إننا كلما ازددنا تعمقاً فى طبائع الأشياء فإننا لابد أن نقع فى الظلام وأن نتردى فى الغموض ، ونقابل الكثير من الصعوبات والحيرة — ثم نكتشف أخيراً أننا لم نزل فى ظلام وجهل » .

ولكن إذا كان الحال كذلك — فهل هذه معناه ألا نحاول المعرفة أو أو الوصول ؟

ويحاول لوك فيقول : « إنه طالما كانت هناك أجسام مادية غير مفكرة (مثل البرتقالة) وأجسام مادية مفكرة (مثل الإنسان) . فلماذا لا أفترض أن هناك فكراً موجوداً مستقلا فى وجوده عن وجود الجسم ؟ فيكون هناك جسم بدون فكر (برتقالة) ويكون هناك فكر بدون جسم (روح) — إن قولى أن هناك فكراً بدون جسم لن يكون أكثر تناقضاً من قولى أن هناك جسماً بدون فكر ، وأنا لا أدرى لماذا لا نوافق على وجود شىء مفكر — دون أن يكون شيئاً مادياً طالما كنا نوافق على وجود الأجسام المادية التى تفكر ؟ فالأول ليس أصعب فى قبوله من الآخر ،مهما كان — إذ أن تصورى لوجود فكر بدون مادة ليس أصعب من تصورى لوجود مادة بدون فكر »[١] .

هذا وقد طور لوك فكرة الجوهر الروحى . منتهياً إلى فكرته عن الجوهر الأول أى الله . . . وهو لذلك يقسم الجواهر الروحية أيضاً إلى قسمين :

١ — جواهر روحية متناهية Finite وهى النفوس .

٢ — جوهر روحى لا متناهى Infinite وهو الله

والجوهر الروحى اللامتناهى — أى الله يقول لوك إننا لا يمكن أن نعرف ماهيته ، وكل ما يمكن أن نفعله هو أن نكوّن عنه فكرة مركبة من أفكارنا عن الوجود والمعرفة والقوة والسعادة واللانهاية والخلود [٢].

---

(١) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 32, p. 223.

(٢) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 35, p. 224.

الفصل السادس

ثالثاً : الأفكار المركبة عن العلاقات

تتكون الأفكار المركبة عن العلاقات فى الذهن بناء على ما يقوم به الإنسان من مقارنة بين بعض الأفكار – بسيطة كانت أو مركبة – وبعضها الآخر.

وقد تطور مفهوم فكرة العلاقة عند لوك – فنراه يذهب فى المسودة الأولى لكتابه « مقالة فى العقل البشرى» إلى مناقشة أفكارنا عن العلاقات على أنها مجموعة من الأفكار متميزة تماماً عن الأفكار البسيطة أو المركبة [1] إلا أنه يعود فى المسودة الثانية Draft B. وفى المقالة نفسها إلى القول بأنها أفكار مركبة لأنها تعتمد فى وجودها على مقارنة بعض الأفكار الموجودة فى العقل على أساس أن النتيجة التى يخرج بها العقل من هذه المقارنة لابد أن تتضمن العلاقة بين هذه الأفكار التى قارن بينها العقل . ويضرب لذلك مثلا فيقول « إننى حين أكوّن فى ذهنى فكرة عن شخص ما . وليكن كايوس Caius مثلا فإننى أكوّن هذه الفكرة عن شىء موجود فى الواقع فعلا . فإذا وصفت كايوس ببعض الصفات ، كأن أقول إنه إنسان – فلن يكون فى ذهنى سوى فكرة مركبة عن النوع الإنسانى – وإذا قلت إن كايوس رجل أبيض – فلن يزيد ما فى ذهنى فى هذه الحالة عن فكرتى عن إنسان يتصف بصفة البياض . أما إذا قلت إن كايوس « زوج » – فهذا يعنى أننى بالإضافة إلى ما فى ذهنى عن كايوس . أقصد أنه مرتبط بشخص آخر من الناس – وهى زوجته بعلاقة ما . وكذلك إذا قلت إن كايوس أكثر بياضاً Whiter فهذا يعنى أننى قارنت بينه وبين شخص أو أكثر من الناس وعرفت أنه أكثر بياضاً فى اللون منهم »[2] .

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 175.

(٢) Essay, B. II, ch. XXV, sec. 1, p. 234.

وبهذا المعنى يذكر لوك أن فكرتنا عن العلاقة تعتبر فكرة مركبة لأنها لا ترتبط بفكرة واحدة أو بموضوع واحد . بل بأكثر من فكرة أو بأكثر من موضوع مرتبطين معاً فى فكرة واحدة .

والعلاقة فى نظر لوك لا تقوم إلا بين طرفين — بين شيئين أو فكرتين يمكن المقارنة أو الربط بينهما . ولابد من وجود الأساس الذى تقوم عليه المقارنة بين أى فكرتين[١] — فمثلا لكى أدرك وجود علاقة بين ا ، ب — لابد وأن يكون ا غنياً وكذلك ب حتى يمكن أن أقارن بينهما وأعرف أيهما أكثر غنى من الآخر . أما إذا لم يكن هناك أساس للمقارنة — كأن أعرف أن ا غنى وأن ب أبيض اللون . فإن معرفتى بكل منهما على هذا النحو لا تؤدى إلى إدراك أى علاقة بينهما .

وأفكارنا عن العلاقات واضحة بالنسبة للوك — بل هى فى نظره غالباً ما تكون أكثر وضوحاً من أفكارنا عن المتعلقات Subjects related أو الأشياء المرتبطة بهذه العلاقة وخاصة أفكارنا عن الجوهر[٢] . إذ أنه من الصعوبة بمكان أن نعرف ونحدد كل الأفكار البسيطة التى تتكون منها فكرتى عن هذا الجوهر أو ذاك . بينما من السهولة أن نربط بين أى فكرتين بسيطتين بعلاقة ما .

ولكى يبرهن لوك على أن أفكارنا المركبة عن العلاقات تعتمد فى أساسها على الأفكار البسيطة — يضرب لذلك أمثلة عن بعض العلاقات وأهمها علاقة العلية وعلاقة الذاتية والتباين . موضحاً كيف أنها تعتمد على الأفكار البسيطة التى ترتد بدورها إما إلى الإحساس أو التأمل الذاتى[٣] وسأتناول كلا منها بالتفصيل مبيناً وجهة نظر لوك فيها بالشكل الآتى :

---

(١) Ibid, B. II, ch. XXV, sec. 6, p. 235.

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 178.

(٣) Essay, B. II, ch. XXV, sec. 11, p. 237.

علاقة العلية Causality

ظهرت فكرة العلية كمشكلة من المشكلات الفلسفية منذ زمن بعيد فقد تناولها أرسطو فى ميتافيزيقاه . وقسمها إلى أربعة أنواع هى :

العلة المادية ، العلة الصورية ، العلة الغائية ، العلة الفاعلة .

ثم أنقص أرسطو عدد هذه العلل إلى اثنتين فقط هما :

العلة المادية — أى الهيولى — والعلة الصورية — أى الصورة

وذلك لإمكان إدماج العلتين الغائية والفاعلة فى علة واحدة هى العلة الصورية[١] .

وظلت فكرة العلية بالمعنى الأرسطى سائدة طوال العصور الوسطى والفلسفة المدرسية التى أظهرت للعلة الفاعلة القيمة الكبرى . وذلك لارتباطها بالدين من حيث إن الله هو العلة الفاعلة لهذا العالم وهو خالقه أو موجده .

وقد تأثر لوك بالتصور المدرسى لمعنى العلة — وذلك يبدو من أن حديثه عن العلية كان مقصوراً على نوع واحد من علل أرسطو الأربع ، وهى العلة الفاعلة[٢] — أما بالنسبة لبقية العلل الأخرى فيقول لوك فى المسودة الأولى Draft A « لمقالته فى العقل البشرى » إننى لا أستطيع فى الوقت الحاضر أن أتبين مدى فاعليتها أو عليتها . والسبب فى ذلك يرجع إلى :

١ — إن تفسير العلل الثلاث الأخرى وخاصة الغائية منها — كان يعتبر تفسيراً ميتافيزيقياً إلى حد كبير بالنسبة لاتجاه لوك التجريبى .

٢ — هذا بالإضافة إلى أن الاستعمال الذى كان سائداً لمعنى العلية فى العلوم الطبيعية فى عصر لوك كان مقصوراً على العلة الفاعلة . وهذا ما جعل لوك يهتم بها أكثر من غيرها[٣] .

---

(١) Stace, W.T., A Critical History of Greek Philosophy, p. 273.

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 178.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

وقد توسع الفلاسفة المدرسيون فى معنى العلية . فجعلوا من بديهيات فلسفتهم أن العلة لا يمكن أن تؤدى إلى إحداث أى صفة من الصفات فى المعلول إلا إذا كانت هذه الصفة موجودة فى العلة نفسها من قبل — أو بمعنى آخر فإن الحقيقة الموجودة فى المعلول يجب أن تكون متضمنة فى العلة نفسها من قبل[١] وقد تأثر لوك كثيراً بهذا المعنى فى فلسفته فيما بعد وخاصة حين ذكر أن الشيء يمكن أن يقال إنه موجود على نحو ما فى علته[٢] .

ويبنى لوك فكرته عن العلية على رفضه لوجود الأفكار الفطرية فى العقل وجعله التجربة هى المصدر الوحيد الذى تتكوّن بناء عليه كل معرفة — لأنها هى أساس تكوين الأفكار البسيطة — وحيث إن هذه الأفكار البسيطة لم تكن موجودة فى الذهن من قبل ، ثم تكونت فيه — فإننا يمكننا أن نطلق على كل ما يؤدى إلى إحداث أى فكرة — بسيطة كانت أو مركبة — فى عقولنا اسم العلة Cause وكل ما ينتج عن هذه العلة يمكن أن نسميه بالنتيجة أو المعلول Effect[٣] .

ويمثل لذلك بأن فكرتنا البسيطة عن السيولة . والتى لم تكن موجودة من قبل فى الشمع — قد وجدت فيه نتيجة لتأثير درجة حرارة معينة عليه ، ولذلك ففكرتنا البسيطة عن الحرارة تعتبر هى العلة فى إحداث فكرتنا عن صفة السيول فى قطعة الشمع — كما أن السيولة تعتبر هى المعلول أو النتيجة لهذه العلة[٤] .

وكذلك الحال بالنسبة لفكرتنا عن جوهر الخشب التى ليست سوى مجموعة من الأفكار البسيطة سنجد أنها تتغير تغيراً تامًّا حين تتحول مادة الخشب إلى مادة أخرى جديدة ، أى الرماد إذا ما تعرضت للنار . وعلى ذلك يمكن القول أن النار علة وجود الرماد ، بينما الرماد نتيجة أو معلول للنار .

ولذلك فالعلة هى كل ما يؤدى إلى إيجاد شيء جديد سواء فكرة بسيطة

---

(١) Gibson, J., Locke's Theory of Know Ledge, p. 203.

(٢) Essay, B. II, ch. XXIII, sec. 9, p. 212.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXVI, sec. 1, p. 238.

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

أو مركبة – بينما المعلول أو النتيجة هي كل ما تستمد بداية وجودها من شيء آخر .

ولتفسير ذلك يقسم لوك بداية الأشياء إلى نوعين :

١ – **الخلق** Creation أي إيجاد شيء جديد تماماً لم يكن موجوداً من قبل سواء كله أو بعض أجزائه – مثل وجود الأشياء الطبيعية التي ليست استمراراً لوجود شيء آخر ، والتي لم يكن لها وجود سابق على وجودها الحالي .

٢ – **التوليد** Creneration أي إيجاد شيء جديد – ولكن ليس من العدم ، بل من عناصر أخرى موجودة من قبل – ركبت أو جمعت بعضها مع بعض بطريقة ما – بحيث ينتج عنها أو يتألف منها شيء جديد كما هو الحال في السيولة الناتجة عن قطعة الشمع أو الرماد الناتج عن الخشب حين تعرض كل منهما للنار – التي تعتبر بمثابة العلة الفاعلة لهذا التوليد .

وعلى ذلك فيجب علينا أن نفهم معنى الإيجاد بالنسبة للعلة . لا على أنه خلق جديد لم يكن له أصل – أو من لا شيء – بل على أنه مجرد تحول للشيء بحيث يصبح شيئاً آخر . نتيجة لعلة معينة أو لسبب معين[١] .

علاقات الزمان Relations of Time

ويذكر لوك نوعاً آخر من العلاقات يتصل بفكرة الزمن . ويضرب لذلك مثلا بقوله « حين يقول شخص ما إن الملكة اليزابث عاشت ٦٩ عاماً وظلت تحكم طوال ٤٥ عاماً » فإن هذه الكلمات لن يكون لها معنى إلا إذا قسناها بمقياس معين أو ربطناها إلى معيار خاص . بمعنى أن هذه المدة التي عاشتها الملكة اليزابث تساوي ٦٩دورة سنوية من دورات الشمس Annual revolutions وأن المدة التي ظلت فيها على العرش تعادل ٤٥ دورة سنوية من دورات الشمس .

وهكذا نجد أن أي حديث زمني – يقتضي تفسير اللحظات الزمانية

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

– لابد أن يتضمن فكرتنا عن العلاقات الزمنية – أى مدة كذا قياساً إلى الدورات الشمسية السنوية[١] .

علاقات الموضع والامتداد of Place and extension

والعلاقات ليست فقط زمانية – بل هناك علاقات عن الموضع يمكن ملاحظتها بسهولة مثل . فوق أو تحت – وكذلك علاقات ترتبط بفكرة الامتداد . مثل كبير وصغير[٢] فإذا قلت إن الكتاب فوق المنضدة أو أن التفاحة كبيرة ، فهذا معناه أنني أتكلم عن علاقة بين الكتاب وبين شيء آخر هو هذه المنضدة أو بين هذه التفاحة وبين الحجم العادى للتفاح .

علاقات الذاتية والتباين Identity and diversity

وفكرة الذاتية فى نظر لوك فكرة علاقية على أساس أنها تتحدد فى أذهاننا نتيجة لارتباط الشيء بعلاقات معينة ، وخاصة العلاقات الزمانية والمكانية ومقارنة هذا الشيء بنفسه مع اختلاف هذه العلاقات والظروف المحيطة به . فندرك أن الشيء هو هو لم يتغير مع أن العلاقات الزمانية والمكانية التى تربطه بغيره والظروف المحيطة به قد تغيرت[٣] .

ولذا فإننا حين نرى شيئاً معيناً فى مكان محدد وزمان معين – لابد وأن نتأكد وأن نكون على يقين من أن هذا الشيء هو هو نفسه ، وليس شيئاً آخر غيره مهما كان التشابه بينهما فى نواح كثيرة – وذلك لأننا لا يمكن أن نجد أو أن نتصور إمكان وجود شيئين من نفس النوع of the same kind بحيث يشغلان نفس المكان فى نفس الوقت[٤] .

---

(١) Essay, B. II, ch. XXVI, sec. 3, p. 239.

(٢) Ibid, B. II, ch. XXVI, sec. 5, p. 240.

(٣) Essay, B. II, ch. XXVII, sec. 1, p. 241.

(٤) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

من كل ذلك يستنتج لوك أن الشىء الواحد لا يمكن أن تكون له بدايتان لوجوده — ولا أن تكون هناك بداية واحدة لأى شيئين — لأنه من المستحيل وجود أى شيئين من نفس النوع فى مكان معين فى نفس الوقت أو أن يوجد شىء واحد فى أكثر من مكان فى نفس الوقت[١] .

وقد طبق لوك معنى فكرة الذاتية على أفكارنا عن الجوهر التى تتلخص فى :

(ا) الجواهر الروحية

١ — الجوهر الإلهى — (الله) اللامتناهى

٢ — العقول المتناهية — (الأرواح أو النفوس العاقلة المتناهية)

(ب) الجواهر المادية

فقال إن ذاتية الله ترتفع فوق كل شك حيث إن الجوهر الإلهى خالد ليس له بداية ولا نهاية . غير متغير . وموجود فى كل مكان[٢] .

أما ذاتية النفوس المتناهية — فيذكر لوك أنها تتحدد ببدء وجودها . وأن بدء هذا الوجود يتحدد دائماً بزمان ومكان معينين بحيث تحدد دائماً هذه العلاقات الزمانية والمكانية ذاتيتها ، طالما كانت مستمرة فى الوجود[٣] .

أما فيما يتعلق بالأجسام أو المادة — فإن نفس فكرة التحديد أو الارتباط بعلاقات زمانيه مكانية — هى التى تحدد لنا ذاتية الشىء المادى ، أو كل جزء من أجزاء المادة حين بدأ فى الوجود .

ويلاحظ لوك فى هذا الصدد أن هذه الأنواع الثلاثة من الجواهر لا يستتبع وجود الواحد منها فى مكان وزمان معينين استبعاد النوعين الآخرين لأن فكرة الاستبعاد لا يمكن أن تتم إلا إذا كان الشيئان من نفس النوع[٤] لأنه قد يوجد

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. II, ch. XXVII, sec. 2, p. 242.

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

جوهران فى مكان واحد فى نفس اللحظة مثل الجوهر المادى — أى الجسم — والجوهر الروحى — أى النفس — بالنسبة للكائن الحى الواحد كالإنسان . . وهذا أيضاً لا يستتبع استبعاد الجوهر الإلهى من هذا الزمان والمكان ، إذ أن الله موجود فى كل مكان وكل زمان .

أما عن ذاتية الإنسان — فهى ليست أكثر من اشتراك ومسايرة حياة الفرد المستمرة (أى النفس أو الجوهر الروحى) مع تلك الأجزاء الصغيرة المادية . (أى جزئيات أو ذرات المادة الجسمية) .

وعلى ذلك فذاتية الإنسان لا ترجع إلى الناحية المادية الجسمية فحسب . ولا إلى الناحية الروحية فقط . إنما إليهما معاً .

هذا بالأضافة إلى بعض العلاقات الأخرى التى أوردها فى المسودتين ا ، ب « لمقالته فى العقل البشرى » . . وأهمها :

١ — العلاقات النسبية — مثل أسخن وأحلى ومساو . . . إلخ

٢ — العلاقات الطبيعية Natural — مثل علاقة الأب بالابن والعكس

٣ — العلاقات التنظيمية Institutional — مثل علاقة القائد بجيشه والمواطن ببلده والملك بشعبه .

٤ — العلاقات الخلقية Moral — وهى التى تقوم على اتساق أو اختلاف أفعال الناس الإرادية بالنسبة لقانون معين [١].

* * *

هذا ويمكن ملاحظة الآتى بالنسبة لنظرية لوك فى العلاقات :

(ا) إن حديثه مقصور على أفكارنا عن العلاقات ، وليس عن العلاقات ذاتها[٢] . إذ أن العلاقة فى حد ذاتها ليس لها وجود فى الواقع ؛ تنطبق عليه أو ما صدقات تشير إليها — فإذا قلت إن (ا) أكبر من (ب) . فليس هناك فى الواقع سوى ا ، ب فقط ، أما العلاقة بينهما فهى من صنع العقل نتيجة

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 188.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ١٧٥ .

للمقارنة التى قام بها بين كل من ا ، ب ويضرب لوك مثلا لذلك بكايوس Caius الذى قد اعتبره اليوم أباً (والداً) — يمكن ألا يكون كذلك غداً إذا ما مات ابنه ، بدون أن يتغير هو نفسه فى شىء — الأمر الذى دعا لوك إلى القول بأن أفكارنا عن العلاقات لا تتصل بجوهر الأشياء . ويؤكد ذلك مستشهداً بأن الشىء الواحد يمكن أن يرتبط بعلاقتين مختلفتين متناقضتين فى نفس الوقت مثل القول بأن كايوس أكبر وأصغر أو أقوى وأضعف فى نفس الوقت [١] على أساس أنه أكبر من مجموعة من الأشخاص ولكنه أصغر من مجموعة أخرى . . وهكذا — وعلى ذلك فهذه التسميات أو الصفات العلاقية التى قد توجد أو تزول لا يمكن أن تتصل بوجود الشىء الحقيقى ، بل هى مجرد إضافة إلى جوهره[٢] .

(ب) إن فكرة العلاقة تعتبر فى نظر لوك من أهم الأفكار التى تقوم عليها نظرية المعرفة ، وذلك لأنها — بالرغم من كونها لا تشير إلى ما هو موجود فى العالم الواقعى — إلا أنها تكون فئة متميزة من الأفكار المركبة التى تتعاون مع أفكارنا الخاصة بالجواهر أو الأعراض[٣] .

وأهميتها لا تقتصر على هذا الحد فقط ، بل ترجع كذلك إلى أنها متضمنة فى كل أفكارنا — بمعنى أننا لو تأملنا فى جميع الأفكار الموجودة فى ذهننا سنجدها تتضمن نوعاً من العلاقة .

فإذا ما كانت المعرفة فى حد ذاتها عبارة عن إدراك العلاقات بين الأفكار — فإن كل عملية من عمليات المعرفة لابد أن تتضمن أفكاراً عن العلاقات حيث إنها تعتمد عليها[٤] .

(ج) ويلاحظ فى حديث لوك عن فكرة الذاتية أن معنى هذه الفكرة يستدعى فى الذهن معنى فكرة التباين Diversity — إذ أن معنى إدراك ذاتية

---

(١) Essay, B. II, ch. XXV, sec. 5, p. 235.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Gibson, J., John Locke, p. 194.

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ١٩٥ .

شيء معين – يعني تكوين فكرة تميزه عن غيره – بمعنى أنني في نفس الوقت الذى أعرف فيه أن الشيء هو هو نفسه – أعرف كذلك أنه يختلف عن غيره ، ولذا ففكرة الذاتية تستدعى فكرة التباين ، الأمر الذى جعل لوك يقصر حديثه فى « مقالته فى العقل البشرى » على أفكارنا عن الذاتية[١] . ولم يفرد لمعنى أفكارنا عن التباين بحثاً خاصاً .

(١) Essay, B. II, ch. XXVII, p. 241.

الفصل السابع

الفكر والواقع

يقسم لوك الأفكار من حيث مدى مطابقتها للواقع إلى [1] :

١ ـ أفكار إما حقيقية (واقعية) أو وهمية Real or Fantastical

٢ ـ أفكار إما كاملة أو ناقصة Adequat or Inadequate

٣ ـ أفكار إما صادقة أو كاذبة (باطلة) True or False

فيقول إن الأفكار الحقيقية أو الواقعية real هى تلك التى تتكون فى الذهن على أساس من الواقع . أو بمعنى آخر تكون متمشية مع الوجود الحقيقى للأشياء أو مع نماذجها archetypes الأصلية .

بينما الأفكار الوهمية Fantastical هى فى نظره تلك الأفكار التى ليس لها ما يطابقها أو يقابلها فى الواقع ، وعلى ذلك فهى لا تستمد أساس وجودها من الطبيعة[2] .

إذ يقوم الخيال بتركيبها أو تكوينها بغض النظر عما إذا كان هناك فى الواقع ما تصدق عليه أو لا . ولذا :

(ا) فإن جميع الأفكار البسيطة ـ تعتبر أفكاراً حقيقية

إذ أن عقل الإنسان فى حالة تكوين الأفكار البسيطة ، إنما يكون مستقبلا لكل الانطباعات التى تحدثها الأشياء فيه . ولذلك فهو لا يمكن أن يقوم بتكوين أى صورة ذهنية أو فكرة بسيطة أكثر مما استقبله أو انطبع عليه من

---

(١) Essay, B. II, ch. XXX, sec. 1, p. 297.

(٢) نفس المرجع السابق ـ نفس الموضع .

العالم الخارجى[١] . لأن الفكرة البسيطة ما دام أصلها من الواقع لابد وأن تكون متمشية مع هذا الواقع متفقة معه دالة عليه وبالتالى تكون حقيقية واقعية .

(ب) أما فى حالة تكوين الأفكار المركبة

فيرى لوك أن أفكارنا المركبة عن الأعراض والعلاقات – ليس فيها شىء من الحقيقة أو الواقعية أكثر من مجرد وجودها فى أذهان الناس . ولا يوجد شىء يجعل من هذه الأفكار أفكاراً واقعية حقيقية سوى تنظيمها فى الذهن بطريقة تجعل من الممكن وجود أشياء فى الواقع تتفق أو تتناسب معها .

فإذا كان ذلك كذلك ، فإن هذه الأفكار تصبح إطارات أو هياكل فكرية لا تختلف عن نماذجها الواقعية – وعلى ذلك فهى لا يمكن أن تكون خيالية إلا إذا أدخلنا بينها أو فى وسطها عدداً من الأفكار التى لا تتفق أو تتمشى معها[٢] .

أما فيما يتعلق بأفكارنا المركبة عن الجوهر فلا تكون صحيحة إلا إذا كانت هذه الأفكار البسيطة المكونة منها قد ارتبطت جميعاً بطريقة تمثل الواقع وإلا فإنها تصبح فكرة خيالية[٣] . ولنضرب لذلك مثلا بفكرتى المركبة عن الذهب ، التى تتكون من ربط عدة أفكار بسيطة عن اللون الأصفر والصلابة واللمعان والذوبان فى الماء الملكى – هذه الفكرة تعتبر فكرة صحيحة لأنها تشير إلى ما هو موجود فى الواقع ، ويتصف بهذه الصفات فعلا .

أما إذا جمعت بعض الأفكار البسيطة . عن جسم امرأة وذيل سمكة – وكونت منها فكرة مركبة عن جنية البحر – أو أفكارى البسيطة عن جسم حصان ورأس رجل وأجنحة طائر – وكونت منها فكرة مركبة عن ذلك الكائن

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٢) Essay, B. II, ch. XXX, sec. 4, p. 298.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXX, sec. 5, p. 298.

الخرافى القنطروس Centuar – فإن أفكارى المركبة فى هذه الحالة سوف تكون مجرد أفكار خيالية لأنها لا تشير إلى أى موجود من الموجودات التى نعرفها(١) .

* * *

الأفكار الكاملة والأفكار الناقصة

تنقسم الأفكار الحقيقية real التى ذكرها لوك إلى نوعين :

١ – أفكار كاملة (مطابقة) adequate وهى التى تمثل نماذجها التى افترض العقل أنه كون فكرته عنها – تمثيلا كاملا – بحيث تكون دالة عليها مقابلة لها .

٢ – أفكار غير كاملة (ناقصة) inadequate ideas وهى التى لا تمثل نماذجها تمثيلا كاملا . بل تدل عليها دلالة جزئية فقط(٢) .

وقد طبق لوك هذا التقسيم على الأفكار البسيطة والمركبة مستنتجاً الآتى :

أولا : الأفكار البسيطة

كلها تعتبر أفكاراً كاملة أو مطابقة – لأنها ليست سوى نتائج نتجت عن تأثير القوى الموجودة فى الأشياء فى الإنسان وعلى ذلك فهى لابد وأن تكون مطابقة لتلك القوى الموجودة فى الأشياء وبالتالى تتفق وحقيقة الأشياء نفسها – ولذا فهى أفكار حقيقية كاملة(٣) .

ثانياً : أما أفكارنا عن الجوهر

فهى فى نظر لوك أفكار حقيقية real بالرغم من أنها ناقصة غير كاملة – – وذلك لأن فكرتنا المركبة عن الجوهر كما ذكر لوك من قبل(٤) تنشأ من ربط

---

(١) Essay, B. II, ch. XXX, sec. 5, p. 298.

(٢) Ibid, B. II, et, XXXI. sec. 1, p. 29.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXXI, sec. 2, p. 300.

(٤) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 2, p. 242.

بعض الأفكار البسيطة بعضها مع بعض حول محور واحد ، أو جوهر واحد – فإذا كانت هذه الأفكار البسيطة مرتبطة فى الواقع فعلا فى شىء واحد – بحيث تكون فكرتى المركبة عنها ، لها ما يقابلها فى الواقع – كانت هذه الفكرة صحيحة حقيقية .

وحيث إنه من الصعوبة بمكان حصر جميع أفكارنا البسيطة عن صفات الشىء الثانوية – خاصة وأننا لم نجرب أو نحصر كل ما يمكن أن يحدث نتيجة لتأثير هذا الجوهر فى أى جوهر آخر أو لتأثره به[١] . فإن فكرتنا المركبة عن الجوهر لن تكون كاملة أو تامة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الفكرة المركبة عن الجوهر لا تتكون فقط من مجموعة من الأفكار البسيطة المتعلقة بالصفات الثانوية أو القوى الموجودة فى الأشياء – بل من هذه بالإضافة إلى فكرتى عن ذلك الجوهر المجهول الذى افترض لوك وجوده كحامل لهذه الأعراض ، أو الصفات الثانوية أو القوى[٢] .

وحيث إن الإنسان مهما حاول – لن يصل إلى معرفة ماهية الجوهر . فإنه بالتالى لن يستطيع تكوين أى صورة ذهنية واضحة أو فكرة كاملة عنه وعلى ذلك فالفكرة المركبة عن الجوهر لن تكون فكرة كاملة[٣] .

ثالثاً : أما عن أفكارنا المركبة عن الأعراض

فتعتبر أفكاراً كاملة حيث إنها تعتبر بمثابة الهياكل أو الإطارات العقلية أو النماذج الأصلية archetypes من حيث إنها مجموعات من الأفكار البسيطة لما يمكن أن يوجد وليس من الضرورى أن تكون صوراً أو نسخاً مما هو موجود بالفعل[٤] .

---

(١) Essay, B. II, ch. XXXI, sec. 13, p. 305.

(٢) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 4, p. 210.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXXI, sec. 13, p. 306.

(٤) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

الأفكار الصادقة والأفكار الكاذبة

يرى لوك أن الفكرة الموجودة فى الذهن . من حيث هى تصور موجود فى العقل أو إدراك حسى تكونت عنه فكرة فى العقل – لا يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة [١] – شأنها فى هذا شأن اسم العلم الذى ترمز به إلى شىء معين والذى لا يمكن أن نحكم عليه بأنه صادق أو كاذب[٢] .

إلا أننا يمكننا أن نصف الأفكار فى بعض الأحيان بالصدق أو الكذب[٣]. وذلك حينما تشير الفكرة إلى ما هو موجود خارج العقل أو تدل عليه – لأن مجرد إشارة الفكرة أو دلالتها من الناحية العقلية إلى شىء ما موجود فى الواقع إنما تدل على وجود التماثل بين الفكرة والشىء سواء كان هذا التماثل صادقاً أو كاذباً[٤] – وهذا الافتراض هو الذى يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب. وبالتالى يمكن تسمية أفكارنا المرتبطة بهذه الأحكام judgments على هذا النحو بالصدق أو الكذب [٥].

وعلى ذلك فأى فكرة من أفكارنا لا تكون صادقة أو كاذبة إلا إذا تناولها العقل بالحكم إما بالتأكيد أو النفى[٦] .

وقد طبق لوك هذا المعنى على أنواع الأفكار كالآتى :

١ – أن جميع أفكارنا البسيطة :

وخاصة تلك التى تتكوّن فى الذهن بفعل الإحساس ، تعتبر أفكاراً صادقة – ويمثل لوك لذلك باللون الأزرق فيقول إن حكمى على وجود اللون

---

(١) Essay, B. II, ch. XXXII. sec. 3, p. 307.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٦) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

الأزرق فى زهرة البنفسج صادق سواء أكان هذا اللون موجودا فى الزهرة ، أو هو مجرد فكرة فى الذهن نتيجة لانعكاس الضوء على مادة الزهرة بحيث جعلنى أحس بإحساس اللون الأزرق ــ النتيجة أن حكمى صادق فى أننى أحس باللون الأزرق حين رؤيتى لزهرة البنفسج ، وبالتالى فالفكرة فى الذهن تمثل ما هو موجود فى الواقع ، ولذا فهى صادقة بهذا المعنى (١) ــ هذا بالإضافة إلى أنها صادقة من حيث إن مفهومها أو مدلولها يتفق ويتمشى مع دلالة هذه الفكرة نفسها فى أذهان الآخرين ــ إذ من النادر أن نجد من يخطئ فيخلط بين اللون الأحمر وبين فكرة اللون الأخضر ، أو بين الحلاوة وفكرة المرارة (٢) ــ فإذا كان هناك احتمال فى الخطأ فهو يرجع إلى التسمية التى نطلقها على هذه الأفكار ــ وليس على الانطباع الحسى المصاحب لها .

٢ ــ إن أفكارنا المركبة عن الأعراض : modes

لا تعتبر بالنسبة للوك كاذبة (٣) لأنها مجرد إطارات عقلية أو مجموعة من الأفكار البسيطة ارتبطت بعضها مع بعض ــ بدون أن يكون هناك فى الواقع الخارجى ما تدل عليه أو تشير إليه ــ مثل أفكارنا عن العدالة أو الوطنية أو الإحسان أو البخل . . . إلخ .

واحتمال الخطأ فيها يرجع إلى مطابقة مفهومها على ما تدل عليه أو تشير إليه بالنسبة للغير إذ قد يتضح مثلا أن معنى العدالة فى عقولنا (٤) أو معنى الإحسان لا يتفق مع ما تشير إليه هذه الفكرة أو غيرها من مفهوم بالنسبة للآخرين .

---

(١) Essay, B. II, ch. XXXII, sec. 14, p. 310.

(٢) Ibid, B. II, ch. XXXII, sec. 7, p. 308.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXXII, sec. 17, p. 311.

(٤) Ibid, B. II, ch. XXXII, sec. 10, p. 309.

٣ ــ أما أفكارنا المركبة عن الجوهر

فهى لا يمكن أن تكون أفكاراً صادقة إذا أردنا بها الدلالة أو الإشارة إلى حقائق الأشياء[١] . لأن ماهية الشيء الحقيقية ، أو التركيب الداخلى الذى تتحدد بناء عليه جميع صفاته شيء مجهول بالنسبة للوك[٢] وبالتالى فإن فكرتنا عن الجوهر إذا قصد بها أن تشير إلى الماهية الحقيقية للشيء ــ أى إلى ما لا نعرفه unknown فإنها لن تكون صادقة .

أما إذا قصد بها مجرد الماهية الاسمية للأشياء ــ أى إذا قصد بها أنها فكرة مركبة من مجموعة من الأفكار البسيطة الناتجة عن إدراك شيء معين فهى لن تكون صادقة إلا إذا :

(ا) كان عدد الأفكار البسيطة التى تتكون منها فكرتنا المركبة عن الجوهر يمثل تماماً جميع الصفات الموجودة فى الشيء الواقعى ، وهذه من الصعب حصرها .

(ب) أو كانت الأفكار البسيطة التى تتكون منها فكرتنا المركبة عن الجوهر مرتبطة مع بعضها فى هذه الفكرة المركبة ، على نفس النحو الذى ترتبط به فى الواقع ــ فمثلا إذا جمع الإنسان فى ذهنه بعض الأفكار عن شكل وحجم الحصان . وأضاف إليه صفة النباح مثل الكلب . . فإن هذه الفكرة لا تعتبر فكرة صادقة[٣].

وعلى ذلك فرجع الخطأ أو الكذب فى الأفكار (على النحو السابق عند لوك الذى شرحناه) يتلخص فى :

١ ــ حكمنا على الأفكار على أن معناها يتفق ويتمشى مع ما تشير إليه أو تدل عليه فى أذهان الآخرين ، بينما هى ليست كذلك ــ وهذه أكثر

---

(١) Essay, B. II, ch. XXXII, sec. 13, p. 309.

(٢) Ibid, B. II, ch. XXIII, sec. 4, p. 210.

(٣) Ibid, B. II, ch. XXXII, sec. 18, p. 312.

شيوعاً فى حالة أفكارنا عن الأعراض المركبة[١] .

٢ – أو حكمنا على الأفكار على أنها تشير إلى موجودات فى الواقع بينما هى لا تشير إلى موجودات حقيقية فعلا – مثل الحال فى أفكارنا عن جنية البحر أو الحيوان الذى يتكون من نصف إنسان ونصف حصان ، أو الحصان الذى ينبح بنباح الكلب . . . إلخ[٢] .

٣ – أو حكمنا على الأفكار على أنها كاملة فى حين أنها ليست كذلك وذلك حتى لا تلخص أو تحصر جميع الأفكار البسيطة التى يمكن أن تتكون فى الذهن عن شىء معين[٣] .

٤ – أو حكمنا على الأفكار على أنها تشير إلى الماهية الحقيقية للشىء فى حين أنها لا يمكن أن تدل على الماهية الحقيقية لأنها شىء مجهول[٤].

* * *

ترابط الأفكار Association of ideas

والأفكار الموجودة فى ذهن الإنسان لا يمكن أن تبقى فيه كذلك منفصلة ، وإلا لما أمكن قيام المعرفة – ويلاحظ لوك أنها دائمة الارتباط بعضها ببعض بعلاقات أو ارتباطات معينة .

أما كيف يتم ترابط الأفكار ، فيرجع سببه عند لوك إلى العادة – إذ أن الترابط بين الأفكار لا يرجع إلى طبيعة الفكرة نفسها ، بمعنى أن الأفكار ليس فى طبيعتها ما يجعلها تترابط مع غيرها – بل إن العقل قد يقوم بعمل هذا الترابط إرادياً – أو أن يتم هذا الربط بمحض الصدفة [٥] وهو سواء تم بإرادة العقل أو بمحض الصدفة ينقلب إلى عادة فى التفكير لأن العادة قد تكون فى الفكر

---

(١) Essay, B. II, ch. XXXII, sec. 21, p. 313.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٥) Essay, B. II, ch. XXXIII, sec. 6, p. 316.

كما هى فى الإرادة والتصميم ــ وكما هى ظاهرة فى الحركات الجسمية[١] .

فكما أن هناك عادات حركية جسمية « تظهر فى تعود الإنسان على حركات معينة مثل المشى أو الكتابة أو العزف على البيانو أو الكتابة على الآلة الكاتبة أو ركوب الدراجة . . إلخ » ــ وكما أن هناك عادات نفسية « تظهر فى طريقة الإرادة أو التصميم . وتظهر فى الانفعالات المركبة كالحب والكراهية . .إلخ» فكذلك هناك عادات عقلية « تظهر فى طريقة تفكير الإنسان وتعوده على أن يربط بين بعض الأفكار بأفكار أخرى معينة » .

ويضرب لوك كثيراً من الأمثلة على ترابط الأفكار . وخاصة الخاطئ منها مثل ترابط الأفكار عن الأرواح الشريرة والشياطين وفكرة الظلام . قائلا « إنه لا توجد علاقة بين فكرة الإنسان عن الشياطين وفكرة الظلام أكثر من العلاقة بينها وبين الفكرة عن النور ــ إلا أن هذا الربط قد تعود عليه الطفل منذ صغره بفعل البيئة ــ أو الرجل الذى يشعر بألم وحزن كلما رأى غرفة معينة كان قد مات فيها أحد أصدقائه »[٢] .

من كل ما سبق . ومن تحليلنا لمعنى الفكر عند لوك ولأنواع الأفكار بالنسبة له . يمكننا أن نلحظ تطور معنى كلمة فكرة idea عند لوك إذ نراه يستخدمها بأكثر من معنى فى مواضع مختلفة فى فلسفته .

١ ــ فهو يقول فى مقدمة كتابه « مقالة فى العقل البشرى » إننى أحب قبل أن أبدأ فى بحثى هذا فى الفهم الإنسانى أن أعتذر للقارئ عن الاستعمال المتواتر frequent لكلمة فكرة Idea ذلك الاستعمال الذى سيجده كثيراً فى كتابى من حيث إنها مجرد رمز يشير إلى موضوع الفهم الإنسانى أثناء عملية التفكير[٣] وقد استخدمها لكى تعبر عما نعنى من كلمة وهم phantasm وخاطر nation ونوع species أو بمعنى آخر كل ما يعرض للذهن أثناء

---

(١) نفس المرجع السابق ــ نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق ــ نفس الموضع .

(٣) Essay, B. I, ch. I, sec. 8, p. 4.

عملية التفكير [١].

إلا أننا يمكننا أن نلحظ بجانب هذا الاستعمال الواسع لكلمة فكرة Idea عند لوك ، أنه يستخدمها لكي يشير بها إلى معان خاصة .

٢ — فهو مثلا يستخدم كلمة فكرة بمعنى خاطر . وذلك فى ثانى خطاب له إلى أسقف وورشستر Bishop of Worcaster على أساس أن كل خاطر فكرة وليس العكس فيقول : « إن معنى كلمة خاطر — لن تشير إلى كل موضوع من الموضوعات المباشرة التى تعرض أمام الذهن أثناء عملية التفكير — كما تفعل ذلك كلمة فكرة . وإنما أقصد بمعنى كلمة خاطر nation استخداماً خاصاً فى كتابى — وهو أن تشير إلى أفكارى عن الأعراض المركبة » [٢].

٣ — وهو يستعملها كذلك لكى تعبر عما نسميه اليوم بالمعطى الحسى sensedatum — والمثال على ذلك الأفكار البسيطة الناتجة عن الإحساس مثل أفكارنا عن الضوء والألوان كالأبيض والأحمر والأصفر بجميع درجاتها وظلالها . . إلخ هذه الألوان التى يمكن أن تدركها العين وكذلك جميع الأصوات والنغمات التى يمكن أن تدركها الأذن وهكذا بالنسبة لبقية الحواس [٣] كما أشرت إلى ذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى عن « الأفكار البسيطة » .

٤ — ويستعملها أيضاً بمعنى التأمل الذاتى — أو بمعنى حالة التفكير أو الفهم والمثال على ذلك أفكارنا البسيطة الناتجة عن التأمل الذاتى مثل أفكارنا عن الإدراك أو التفكير ، والإرادة أو الرغبة [٤] كما ذكرت ذلك من قبل .

٥ — ويستخدمها كذلك بمعنى الصورة الذهنية image التى ترتسم فى ذهن الإنسان ، مثل أفكارنا المركبة عن الجواهر ، سواء أكان لهذه الصور ما يطابقها فى الواقع مثل فكرتى المركبة عن جوهر الذهب أو غيره من الموجودات

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — ملحوظة صفحة ٥ .

(٣) Essay, B. II, ch. III, sec. 2, p. 75.

(٤) Ibid, B. II, ch. VI, sec. 2, p. 80.

الطبيعية ، أم لم يكن لهذه الصور الذهنية ما تشير إليه فى الواقع — وهذا ما كان يعنيه لوك حين ذكر أنه سيستخدم كلمة فكرة بمعنى الوهم phantasm[١] مثل أفكارنا الوهمية عن جنية البحر أو العنقاء .

٦ — ويستخدمها كذلك بمعنى التصور العقلى Concept أو المعنى الكلى ، مثل أغلب أفكارنا الكلية — وهذه ما سأتناولها بالتفصيل فى الباب القادم .

وهذا ما كان يقصده لوك حين ذكر أنه سيستخدم كلمة فكرة بمعنى نوع species[٢] .

---

(١) Ibid, B. I, ch. I, sec. 8, p. 4.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

الفصل الثامن

اللغة والمعرفة

يعتبر البحث فى اللغة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لنظرية المعرفة[١] . طالما كانت المعرفة الإنسانية عبارة عن مجموعة من المفهومات والأفكار التى يمكن التعبير عنها برموز معينة ، هى ألفاظ اللغة . ولذا كان من الطبيعى أن يهتم لوك بالبحث فى طبيعة الكلمات والألفاظ أثناء معالجته لمشكلة المعرفة .

فلوك يرى أن الله خلق الإنسان وزوده باللغة [٢] لا بمعنى أنها مفطورة فيه ، بل بمعنى أنه زوده بالقدرة على إخراج أصوات معينة وتنظيمها بطريقة خاصة حتى تصبح كلمات أو ألفاظ اللغة[٣] .

واللغة بالنسبة للوك شىء مصنوع ، صنعها الإنسان بالرغم من توارثه إياها جيلا بعد جيل — إلا أنها تعتبر شيئاً اختيارياً على أساس أنه لا توجد علاقة أو رابطة ضرورية بين أى لفظ وبين ما يشير إليه من أفكار ، لأنه لو كان ذلك كذلك . « لكانت هناك لغة واحدة فقط يتداولها جميع الناس »[٤] .

ويرى لوك أن ألفاظ اللغة ليست سوى علامات حسية معينة ترمز أو تدل على الأفكار الموجودة فى الذهن . وبالتالى تكون تلك الأفكار التى تشير إليها هذه الألفاظ هى دلالتها الحقيقية المباشرة .

ويرمى الإنسان باستخدامه لهذه الرموز الحسية (أى ألفاظ اللغة) إما إلى

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 191.

(٢) Essay, B. III, ch I, sec. 1, p. 321.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٢٣ .

تسجيل أفكاره الخاصة أو ترقيمها حتى يساعده ذلك على عملية التذكر . وإما إلى التعبير عن هذه الأفكار وتوصيلها إلى الغير .

وقد كان هناك اعتقاد قديم بأن الكلمة تشير إلى شيء ، فإذا قلت كلمة منضدة — فهذا يعني أنها تشير إلى الشيء الموجود في الواقع — أي المنضدة — .

وقد أتى لوك فغير هذا الاعتقاد وأكد أن الكلمة لا تشير إلى الشيء الواقعي بقدر إشارتها إلى الفكرة الموجودة في الذهن عن هذا الشيء [١] ولذا فالكلمات في دلالتها المباشرة الأولية — لا تشير إلا إلى الأفكار الموجودة في ذهن قائلها[٢] وعلى ذلك فالكلمات تكون بالنسبة للوك واضحة بقدر الوضوح الموجود في الأفكار التي ترمز لها هذه الكلمات ، ولا يمكن أن تزيد عليها — .

فالطفل الذي لا يعرف عن الذهب إلا لونه الأصفر البراق — لا يعني سوى ذلك اللون الأصفر حين ينطق بكلمة « ذهب » — ولذا فهو حين يرى نفس اللون الأصفر في ذيل الطاووس ، فإنه ينطق بكلمة ذهب . ولذلك فكلمة ذهب هنا لا تشير إلا إلى اللون الأصفر . بينما يختلف الحال بالنسبة لطفل آخر أكبر ، عرف بالإضافة إلى اللون الأصفر في الذهب — ثقل الوزن — لذا فهو حين يستعمل كلمة ذهب إنما يدل بها على فكرة مركبة مكونة من اللون الأصفر وثقل الوزن بالنسبة لذلك الجوهر .

فإذا جاء شخص ثالث وأضاف إلى معنى الذهب فكرة الذوبان — أصبحت كلمة الذهب بالنسبة له تشير إلى أنه جسم له ثقل معين ، أصفر اللون قابل للذوبان — وهكذا كلما ازداد عدد الصفات أصبح كلاً منا أكثر تحديداً وعلى ذلك فكل إنسان يستخدم اللفظ حسب فكرته التي يعبر عنها — وهذه الفكرة تختلف حسب المفهوم الموجود في ذهن الإنسان عن الشيء الذي يتحدث عنه [٣].

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 208.

(٢) Essay, B. III, ch. II, sec. 2, p. 323.

(٣) Essay, B. III, ch. II, sec. 3, p. 324.

وبالرغم من أن الكلمات كما ذكر لوك – لابد أن تشير إلى الأفكار الموجودة فى ذهن الشخص المتكلم بحيث تكون تعبيراً صادقاً عنها – إلا أنه يجب أن نلاحظ فيها :

دلالتها على نفس المعنى الموجود فى عقول الغير

لأن الكلمات لو لم تدل على نفس الأفكار أو المعانى فى ذهن السامع كما هى فى ذهن المتكلم لاستحال توصيل التعبير إلى الغير ، لأنهم لن يفهموا معنى ألفاظ المتكلم – وبالتالى لاستحال الحديث أو الكلام ، وأصبحوا كما لو كان كل منهم يتحدث بلغة غير لغة الآخر [١].

ويذكر لوك بعض الاعتبارات التى تتعلق بالألفاظ واستخدامها وعلاقتها بالأفكار ، وأهم هذه الاعتبارات :

١ – ترابط الأفكار بالألفاظ – بدلا من ترابطها مع الموضوعات التى تسببت فى تكوين هذه الأفكار : فحيث إن الألفاظ كما سبق الإشارة تدل على الأفكار أو المعانى الموجودة فى ذهن الشخص المتحدث مثل الشخص السامع .

وحيث إن الأفكار دائمة الارتباط بالرموز الصوتية (أى ألفاظ اللغة) من حيث هى رموز ترمز إليها أو تدل عليها – فإن لوك يستنتج أن الإنسان إذا سمع كلمة بعد ذلك من كلمات اللغة ؛ فإنه تتكون فى ذهنه نفس الفكرة التى كانت تتكون فى حالة إدراك الأشياء الطبيعية ، والتى كان مجرد إدراكها كافياً لإثارة وتكوين مثل هذه الأفكار فى الذهن [٢].

ولنفرض أن أمامى مدركاً حسياً هو (ا) . والفكرة المتكونة عنه فى الذهن (ب) واللفظ الذى وضعناه لكى يرمز إلى هذه الفكرة هو (ج) . فإننا

---

(١) Ibid, B. III, ch. II, sec. 4, p. 324.

(٢) Ibid, B. III, ch. II, sec. 5, p. 325.

نلاحظ بتكرار الإدراك – وتكون الفكرة فى الذهن واستخدام اللفظ الدال على هذه الفكرة نلاحظ أن الإنسان حين يسمع أو يقرأ اللفظ (ج) فإنه يتذكر فى الحال نفس الفكرة (ب) بالرغم من عدم وجود المدرك الأصلى (ا) فى تلك اللحظة . وهذا يعنى أن الكلمات أو ألفاظ اللغة أصبح لها القدرة على استثارة الأفكار المترابطة معها .

٢ – **بعض الألفاظ تستخدم أحياناً بلا دلالة تشير إليها فى الواقع** وذلك لأن الإنسان أحياناً يستخدم بعض الألفاظ التى تعلمها من البيئة المحيطة به ، بحيث تكون على لسانه باستمرار وفى متناول ذاكرته دائماً – وهو مع ذلك لم يدرك مدلولها الحقيقى تماماً – وذلك يرجع إلى سرعة تداول الألفاظ وعدم تحرى الدقة فى فحص دلالتها ، فيصبح تفكير الإنسان فى هذه الحالة معتمداً على الألفاظ أكثر من اعتماده على الأشياء التى يجب أن تشير إليها هذه الألفاظ[١] .

٣ – **وجوب الاتفاق على استخدام معانى الألفاظ** : وذلك لأن الإنسان إذا كان حراً فى أن يسمى أفكاره بالألفاظ التى يراها هو ، فإن هذه الكلمات أو الألفاظ التى اختارها هو لكى تعبر عن أفكاره لن تثير نفس الأفكار فى ذهن أى شخص آخر إذا سمعها ، وبالتالى فلن ينتقل معنى الفكرة منه إلى غيره ، وبالتالى لن يكون الكلام له معنى فى هذه الحالة – ولذلك يريد لوك أن يبين أهمية اتفاق الناس على رموز صوتية معينة أو ألفاظ تجعل التفاهم بينهم ممكناً .

ويستدرك لوك قائلا : « حقيقة إن لكل فرد الحق فى أن يتخذ لنفسه ألفاظاً خاصة به لكى يعبر بها عن أفكاره كيفما شاء ، ولكنه ليس حراً فى أن يفرضها على الناس الآخرين لأنهم لن يفهموها »[٢] لأن مفهومها سيصبح مقصوراً على معناها بالنسبة له فقط ولا شىء غير ذلك .

---

(١) Essay, B. III, ch. II, sec. 7, p. 325.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

الحدود الكلية

يرى لوك أن الألفاظ الكلية هى التى تشير إلى أفكار كلية ، وهى تأتى فى مرحلة متأخرة عن الأفكار الجزئية – وليس هناك شىء أكثر وضوحاً عند لوك من أن معرفتنا تبدأ بالجزئيات – أما الكليات فتأتى بعد ذلك [١].

والأفكار الكلية ليست سهلة التركيب ، بل إنها تكون مصحوبة بشىء من الصعوبة ويضرب لذلك مثلا بقوله « ألا يتطلب منا شى من المهارة وبعض الجهد أن نكون فى أذهاننا فكرة كلية عن المثلث ، وذلك لأنه لن يكون مثلثاً قائم الزاوية ولا حادها ولا متساوى الساقين ولا الأضلاع . . إلخ بل سيكون كل هذه الأشياء فى نفس الوقت . . »[٢] ويمكننا أن نتبين ثلاثة جوانب لمشكلة المعنى الكلى فى فلسفة لوك ، أو ثلاثة تفسيرات لها يلخصها أرون فى : [٣]

أولا : أن الفكرة الكلية تمثل كثيراً من الأفكار الجزئية . وأقرب ما فى رسالة لوك إلى روح هذا الاتجاه هو ما قاله من أن الأفكار التى نحصل عليها من الموجودات الجزئية تصبح كليات أو أفكاراً كلية تمثل جميع الأفكار التى من نفس النوع [٤] بالرغم من أن من يتابع قراءة بقية الفقرة « (فقرة رقم ٩) يكاد يتبين بصعوبة أن هذا على وجه التحديد هو التفسير الواضح الكامل لنظرية الأفكار الكلية عند لوك – وقد عبر بركلى أدق تعبير عن هذا الموقف فى مقدمة كتابه « المبادئ » حين قال إن الفكرة التى تعتبر فى حد ذاتها فكرة جزئية – تصبح فكرة عامة كلية حين نجعلها تمثل أو تشير إلى جميع الأفكار الجزئية التى من نفس النوع [٥] . إلا أن لوك يختلف عن بركلى فى هذا الصدد – إذ ذهب بركلى إلى أنه طالما كانت أية فكرة فى العقل عبارة عن صورة ذهنية

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 192.

(٢) Essay, B. IV, ch. VII, sec. 9, p. 509.

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 195.

(٤) Essay, B. II, ch. XI, sec. 9, p. 104.

(٥) A aron, R. I., John Locke, p. 195.

جزئية متعينة concrete سواء كان ذلك بواسطة الإحساس أو التذكر فإن الفكرة الكلية إذا كان لها وجود — يجب أن تكون بحكم الضرورة نوعاً من هذه الصورة الجزئية بالرغم من أنها تمثل أو تشير إلى صور ذهنية أخرى كثيرة — بينما ذهب لوك إلى أن معناها لا يقتصر على كونها صورة ذهنية للواقع المحسوس كما هى عند بركلى ، بل يشمل كذلك معنى آخر وهى أنها تعتبر موضوعاً للفهم أو العقل الإنسانى أثناء عملية التفكير [١] .

ثانياً : والاتجاه الثانى الذى يمكن ملاحظته فى فلسفة لوك فى هذا الصدد هو أن الأفكار الكلية تعتبر نتيجة لقيام العقل بعمليات معينة يقوم فيها باستبعاد ما نصل إليه عن طريق التجربة أو الخبرة ، وخاصة جميع الصفات التى توصلنا إليها من التجربة الحسية — ما عدا ما هو مشترك بين الجزئيات وعلى ذلك فالاسم الكلى « إنسان » يشير إلى ما يتبقى من الصفات بعد أن نحذف ونستبعد كل ماهو خاص ومميز لجيمس أو جون أو بيتر أو أى شخص آخر — ولذا فالكلى فى هذه الحالة لا يمكن أن يكون مظهراً :appearane جزئياً فى تجسيمه من حيث إننا اخترناه كى يشير إلى أفراد كثيرين — بل هو مظهر جزئى جردنا منه كثير من الصفات [٢] .

ويشرح لوك ذلك قائلا : « إننا بالنسبة لتكوين الكليات — لا نصنع شيئاً جديداً بل كل ما هناك أننا نستبعد ونحذف »[٣] والأفكار تصبح كلية حين نفصل منها ونستبعد عنها كل الظروف الزمانية والمكانية ، وكل ما يمكن أن يحددها ويجعلها دالة على هذا الموجود الجزئى أو ذاك — وبهذه الطريقة يمكن للفكرة أن تمثل أكثر من جزئية واحدة [٤].

ثالثاً : والاتجاه الثالث الذى يبدو فى فلسفة لوك فى هذا الصدد يوضحه

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ١٩٦ .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ١٩٧ .

(٣) Essay, B. III, ch. III, sec. 7, p. 328.

(٤) Aaron, R. I., John Locke, p. 198.

آرون فى أن الكلى مجرد معنى meaning — إنه صفة أو مجموعة من الصفات المشتركة بين جزئيات النوع الواحد ، أى ماهية النوع — ولكن بمعنى الماهية الاسمية لا الحقيقية وسأذكر الفرق بين معنى الاثنين فيما بعد .

وهنا يبدو الاختلاف بين الاتجاهين الثانى والثالث — لأن الكلى فى الاتجاه الثالث ليس هو ما يتبقى بعد استبعاد الصفات المميزة لكل جزئية . بل ما هو موجود فعلا فى الجزئيات من صفات مشتركة مكنتنا من ربطها جميعاً فى نوع واحد .

وبالرغم من غموض فكرة المعانى الكلية أو الكليات فى فلسفة لوك فإن الاتجاه الأكثر وضوحاً فى فلسفته هو الاتجاه الثالث — الذى يرى أن الكليات ليست سوى معان مجردة تعتبر بمثابة الماهية الاسمية للأنواع [١] .

دلالة الألفاظ الكلية :

والألفاظ الكلية هى التى لا تشير إلى جزئيات معينة بالذات فى الواقع ، إنما تشير إلى أفكارنا عن مجموعة من الصفات الأساسية المشتركة فى مجموعة من الجزئيات مثل لفظ « إنسان » وغيره من الألفاظ التى ترمز لأفكار كلية مجردة . ويلاحظ لوك أن أغلب ألفاظ اللغة كلية وليست جزئية . بالرغم من أن كل الأشياء الموجودة فى الطبيعة جزئية وليست كلية .

وذلك :

أولا : لأنه من المستحيل أن نسمى كل شىء من الأشياء الجزئية الموجودة فى الطبيعة باسم خاص — لأن قدرة الإنسان العقلية لا تسمح له باستيعاب أو تذكر أسماء كل الأشياء الجزئية الموجودة فى الطبيعة — مثل اسم كل شجرة أو طائر أو حيوان يراه [٢].

ثانياً : وحتى إذا كان هذا ممكناً واستطاع الإنسان أن يحفظ ويتذكر

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٠٠

(٢) Essay, B. III, ch. III, sec. 2, p. 326.

جميع أسماء الجزئيات الموجودة فى الطبيعة — فإن ذلك يصبح شيئاً عديم القيمة والفائدة لأنه لن يخدم الغرض الرئيسى من أى لغة من اللغات ، وذلك لأن الناس فى تلك الحالة سيجمعون أكواماً من أسماء الجزئيات التى لا تساعدهم على توصيل أفكارهم إلى الغير — لأنه من الجائز أن أستخدم أنا ألفاظاً جزئية تشير إلى موجودات جزئية معينة لاحظتها ووقعت فى خبرتى — فرمزت لها برمز معين (ا) ولفظ خاص ، ومع ذلك فهناك أشخاص آخرون كثيرون لم يعرفوا هذا المدرك الجزئى ولم يقع فى خبرتهم أو ملاحظتهم — ولذلك فإن كلامى لن يكون مفهوماً لديهم(١) .

ثالثاً : وبالإضافة إلى هذا — فإن تسمية جميع الموجودات الجزئية بأسماء خاصة جزئية — سيعوق تقدم وتطور المعرفة الإنسانية ، لأن معرفة الإنسان بالرغم من أنها تقوم أساساً على إدراك الأشياء الجزئية الموجودة فى الطبيعة — إلا أنها لا تتسع ولا تتقدم أو تتطور إلا باستخدام النظريات العامة والكليات التى تندرج تحتها الموجودات الجزئية فى شكل « أنواع » مختلفة تحمل أسماء كلية وليست جزئية .

ويستدرك لوك قائلا إن هناك بعض الحالات الاستثنائية التى يقوم فيها الإنسان باستخدام الألفاظ الجزئية التى تشير إلى جزئيات معينة وذلك لضمان الانتفاع بهذه التسميات الجزئية مثل أسماء المدن للتفرقة بين هذه المدينة وتلك . وأسماء بعض الخيول وخاصة خيول السباق للتفرقة بين حصان وحصان آخر . . . وهكذا(٢) .

تدرج الكليات :

والألفاظ الكلية تتدرج كذلك ، وتنقسم إلى أنواع وأجناس . فكما أن كلمة « إنسان » اسم كلى ، وكلمة حصان اسم كلى — يمكنى أن أستنتج منهما

---

(١) Ibid, B. III, ch. III, sec. 3, p. 327.

(٢) Essay, B. III, ch. III, sec. 5, p. 327.

معاً اسما كلياً آخر أعم وأشمل من كل منهما — فإن أنا استبعدت أوجه الاختلاف بينهما واستبقيت ما هو مشترك — مثل الإحساس والحيوانية ، فإنني أصل إلى تكوين فكرة مركبة جديدة — فكرة مجردة كلية عن الحيوان بصفة عامة .

وإن استبعدت أوجه الاختلاف بين فكرتي المركبة عن الحيوان ، وفكرتي المركبة عن « النبات » واستبقيت ما هو مشترك عام بينهما كالتغذي والنمو والحركة لوصلت إلى فكرتي المركبة الكلية عن الكائن الحي . وهكذا يسير العقل في نفس طريق التجريد والتعميم حتى يصل إلى أفكاره الكلية عن الجسم والجوهر والوجود . . . إلخ[1].

الكليات من صنع العقل

وحيث إن هذه الكليات ليست واقعية ، وحيث إنه لا توجد أشياء كلية في الواقع بحيث تدل عليها هذه الألفاظ الكلية — لأنه لا يوجد في الواقع إلا الجزئيات فقط ، يستنتج لوك من ذلك أن هذه الكليات تعتبر من صنع العقل ومن اختراعه — حيث إنها لا تتصل أو تتعلق بالوجود الحقيقي أو الواقعي للأشياء[2].

ولوك بهذا المعنى يرفض ماذهبت إليه الفلسفة الأرثوذوكسية من أن هذه الكلمات أو الماهيات الاسمية أو الصفات المشتركة بين أفراد النوع الواحد لها وجودها الواقعي المنفصل المستقل عنا . وهو يرفض في نفس الوقت القول بأن لهذه الكليات أو الأنواع أي وجود منفصل مستقل عن الإنسان كما لو كانت موجودة في عالم عقلي خاص بها غير عالم الواقع (مثل عالم المثل عند أفلاطون) .

إذن ما دلالة هذه الألفاظ الكلية عند لوك ؟[3]

---

(١) Ibid, B. III, ch. III, sec. 9, p. 329.

(٢) Ibid, B. III, ch. III, sec. 11, p. 330.

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 203.

من الواضح أنها لا تدل على جزئية واحدة فقط – وإلا لانتفت عنها صفة العمومية ، وأصبحت أسماء أعلام – كما أنها لا تفيد معنى الجمع ، وإلا فإن معنى كلمة « رجل » يصبح هو نفس معنى كلمة « رجال » ، وبالتالى يصبح التمييز أو التفرقة بين الأعداد شيئاً عديم القيمة[١] . إنما ترمز إلى ماهية النوع الذى تشير إليه الفكرة الكلية .

ولإيضاح ذلك يمكن القول بأن النوع ليس سوى اسم كلى يشير إلى مجموعة من الأفراد أو الجزئيات مختلفين فى الذات متفقين فى الماهية – أى فى الصفات الأساسية التى يمكن أن نلاحظ وجودها المشترك بينهم جميعاً . وحيث إن ماهية النوع ليست سوى هذه الصفات الأساسية المشتركة بين الجميع .

وحيث إن الفكرة الكلية الموجودة فى الذهن ليست سوى فكرة مجردة عن مجموعة من الصفات التى لا تشير إلى أى فرد بالذات بل إلى جميع الأفراد المشتركين فى صفات معينة أساسية بينهم .

فإن لوك يستنتج من ذلك أن الفكرة الكلية الموجودة فى الذهن لا يمكن أن تشير إلى جزئية معينة واحدة . بل إلى الصفات الأساسية المشتركة بين مجموعة من الأفراد . وعلى ذلك فالفكرة المجردة هى ماهية النوع أو الجنس .

وعلى الرغم من كون هذه الأفكار المجردة من صنع العقل إلا أن أساسها موجود فى الواقع أو الحياة .

بمعنى أن الطبيعة فى إنتاجها للأشياء ، تنتج بعض هذه الأشياء متشابهة والبعض الآخر غير ذلك – ووظيفة العقل إدراك أوجه التشابه أو التماثل بين هذه الاشياء ثم يستخرج منها فكرته المجردة عن نوع معين ويضع لها اسما يناسب

---

(١) Essay, B. III, ch. III, sec. 12, p. 331.

هذه الموجودات الجزئية ويشملها جميعاً[١].

وحيث إن الاسم الكلى ليس إلا رمزاً للفكرة المجردة الموجودة فى الذهن وحيث إن الفكرة المجردة تشير إلى مجموعة من الأفراد أو الجزئيات ، فإن العلاقة بين أى اسم كلى من جهة وبين الموجودات الجزئية من جهة أخرى لا يمكن أن تقوم أو تتم إلا بواسطة هذه الأفكار المجردة الموجودة فى الذهن أو عن طريقها[٢].

الماهية الحقيقية والماهية الاسمية Real and nominal essence

يتناول لوك معنى الماهية من زاويتين مختلفتين حسب استعمالنا لهذه الكلمة

أولا : الماهية يمكن أن يقصد بها وجود أى شىء من حيث هو كذلك . أى الوجود الحقيقى للشىء الذى يجعله هو نفسه The being of anything whereby it is what it is وعلى ذلك فالتركيب الداخلى الحقيقى للأشياء — الذى تعتمد عليه فى وجودها جميع الصفات الظاهرية أو الثانوية للأشياء — هو ما يطلق عليه اسم الماهية ، وهذه هى الدلالة الأصلية لهذه الكلمة .

ثانياً : وقد فقدت كلمة ماهية معناها الأول السابق وسط التقسيم المصطنع لمعنى الأنواع والأجناس ، وأصبحت تدل على ذلك التركيب المصطنع للأنواع والأجناس الكلية بدلا من أن تشير إلى التركيب الداخلى للأشياء نفسها[٣] وقد سمى لوك الاستعمال الأول لمعنى الماهية باسم الماهية الحقيقية Real Essence وبمعنى آخر فإن الماهية الحقيقية للشىء تتصل بالشىء فى ذاته ، من حيث إنها تتعلق بالتركيب الداخلى للشىء الذى تعتمد عليه صفاته الظاهرية . أى الثانوية .

بينما الماهية الاسمية تتصل بالشىء لا من حيث هو فى ذاته ، بل من حيث

---

(١) Essay, B. III, ch. III, sec. 13, p. 331.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. III, ch. III, sec. 15, p. 333.

هو عضو فى فئة أو جماعة تندرج كلها تحت نوع معين أو فكرة كلية مجردة عن هذا النوع .

وقد طبق لوك هذه التفرقة بين الماهية الاسمية والماهية الحقيقية على أنواع الأفكار . فاستنتج أن الماهية الحقيقية هى نفسها الماهية الاسمية بالنسبة لأفكارنا البسيطة وأفكارنا المركبة عن الأعراض — بينما تختلف كل منهما عن الأخرى بالنسبة لأفكارنا عن الجوهر . ويضرب لذلك مثلا بقوله « إن الشكل الذى يدل على سطح محاط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة هو الماهية الحقيقية لفكرتى عن المثلث — وهو فى نفس الوقت ماهيته الاسمية»[١] . وذلك لأن الماهية الحقيقية للمثلث هى أن يكون سطحاً مستوياً تحوطه ثلاثة خطوط مستقيمة ولذا فسأضعه فى تصنيفى تحت الاسم الكلى الخاص بنوع المثلث — أى ماهيته الاسمية .

أما إذا طبقت ذلك على فكرتى عن الجوهر . فسأجد أن الحال يختلف كثيراً ولنأخذ فكرتنا المركبة عن جوهر الذهب — فسأجد أن ماهيته الحقيقية هى ذلك التركيب الداخلى للأجزاء الغير منظورة من تلك المادة — والتى تحدد لنا وجود صفاته الثانوية .

أما ماهيته الاسمية فهى تلك الفكرة المركبة الموجودة فى الذهن عن مادة تتصف باللون الأصفر والوزن . . والقابلة للذوبان . . إلخ بحيث يمكن أن أضعها تحت اسم كلى عام — هو النوع الذى يشمل كل مادة تتصف بمثل هذه الأوصاف[٢] .

وبعد أن ينتهى لوك من شرح الألفاظ والكلمات على النحو السابق — يذهب إلى أن ألفاظ اللغة يمكن أن تكون أسماء لأفكار بسيطة أو أعراض مركبة وعلاقات أو أفكار مركبة عن الجوهر — وقد ميز لوك بين هذه الأسماء بناء على

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٣٤ .

(٢) نفس الموضع السابق — نفس الموضع .

اختلاف الأفكار الدالة عليها فيقول « بالرغم من أن الكلمات — كما ذكرت — لا تدل إلا على الأفكار الموجودة فى ذهن المتكلم ، إلا أن شيئاً من التعمق فى متابعة هذه الأسماء يوضح لنا أن هناك شيئاً غريباً بل ومختلفاً فى حالة أسماء الأفكار البسيطة والمركبة عن الأعراض والعلاقات والجواهر »[١]. فمثلا :

(ا) أن أسماء الأفكار البسيطة والأفكار المركبة عن الجواهر . هى والأفكار الموجودة فى الذهن التى ترمز إليها هذه الأسماء — تشير إلى نوع من الوجود الحقيقى الذى استمدت منه هذه الأفكار وبالتالى أسماءها — نموذجها الأصلى بينما أسماء الأفكار المركبة عن الحالات « الأعراض » إنما تقف عند حد الأفكار الموجودة فى الذهن ، ولا تتعداها إلى ما هو أبعد من ذلك — أى لا تشير إلى الوجود الحقيقى[٢].

(ب) أن أسماء الأفكار البسيطة والأفكار المركبة عن الأعراض — ترمز دائماً وتشير إلى كل من الماهية الحقيقية والماهية الاسمية للأنواع[٣] بينما لا تشير أسماء أفكارنا المركبة عن الجواهر إلا إلى الماهية الاسمية للأنواع فقط .

(ج) أن أسماء الأفكار البسيطة غير قابلة للتعريف ، بعكس الأفكار المركبة التى يمكن تعريفها[٤] . وهنا تبدو أهمية لوك — أثناء مناقشته لأسماء الأفكار وذلك لتناوله موضوع التعريف بطريقة تختلف عن التعريف الذى كان مستخدماً من قبل عند الفلاسفة[٥] فهو قد رفض نظرية التعريف القديمة — وخاصة نظرية أرسطو وفورفوريوس الصورى وأحل محلها طريقته الجديدة للتعريف على أساس أكثر فهماً — فقد كانت الطريقة القديمة للتعريف ، وخصوصاً التعريف بالحد — تعتمد على ذكر الجنس والفصل genus and Differentia اللذين يكونان معاً ماهية الشىء ، ولذا يكون معنى التعريف

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. III, ch. IV, sec. 3, p. 341.

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٥) Aaron, R. I., John Locke, p. 210.

مرادفاً لمعنى الماهية – أو تفسيراً لها – بينما ينكر لوك التوحيد بين التعريف وبين الماهية الحقيقية للأشياء وذلك لأننا لا يمكن أن ندرك أو نعرف الماهية الحقيقية للأشياء[١].

ويذهب لوك إلى أن التعريف هو « إظهار لمعنى الكلمة بواسطة عبارات أخرى غير مرادفة لها . وذلك لإيضاح دلالتها – أى الفكرة التى تشير إليها أو ترمز لها هذه الكلمة بالنسبة للسامع– كما هى عند المتكلم »[٢]. وهو فى هذا الصدد يقول : إننى لن أتعب نفسى فى البرهنة على أن جميع العبارات أو الألفاظ يمكن تعريفها – إذ يجب أن تكون هناك ألفاظ غير قابلة للتعريف حتى تصبح بمثابة المبادئ التى تقوم عليها بقية العبارات أو الحدود الأخرى – وتعتمد عليها حين تعريفها – لأنه لو كانت جميع الألفاظ مما يمكن تعريفه لكانت عملياتنا العقلية غير متناهية ، ولا تقف عند حد معين وذلك لأننا كى نعرف لفظاً سنعتمد على ألفاظ وعبارات غيره . وهذه ستعتمد فى تعريفها على أخرى . . وهكذا . . لا نعرف أين ننتهى من هذه الحلقة . . . إذن لابد من وجود ألفاظ وعبارات غير قابلة للتعريف – تعتبر واضحة لدرجة أنه يمكن الاعتماد عليها فى تعريف الأفكار الأخرى – وهذه هى الأفكار البسيطة وأسماؤها[٣] .

وأسماء الأفكار البسيطة لا يمكن تعريفها لأن الأفكار البسيطة لا تتكون فى ذهن الإنسان إلا بواسطة تأثير الموجودات الطبيعية فى حواسنا بحيث تكون انطباعات حسية معينة تؤثر فى الذهن – فتتكون عنها صورة ذهنية ، وبالتالى فكرة بسيطة عنها نرمز إليها بلفظ معين أو بعبارة خاصة .

وما دامت الأفكار البسيطة تتكون بمثل هذا الطريق فلا يمكن لأى كلمة أو عبارة أخرى من ألفاظ اللغة أن تعطى نفس الفكرة أو تعبر عن نفس المعنى

---

(١) نفس المرجع السابق – صفحة ٢١١ .

(٢) Essay, B. III, ch. IV, sec. 5, p. 342.

(٣) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

الذى يثيره فى الذهن اللفظ الأصلى المراد تعريفه – وليحاول من يرى غير ذلك أن يذكر كلمة يمكنها أن تجعلك تحس بطعم الأناناس ، أو تجعلك تكون فكرة عن ذلك الطعم اللذيذ الذى نحس به حين تتذوق تلك الفاكهة – ويمكننا أن نطبق ذلك بالنسبة للضوء أو الألوان ، أو بقية الأفكار البسيطة الأخرى[١].
بينما العكس فى حالة الأفكار المركبة التى تتكون من مجموعة من الأفكار البسيطة إذ أننا يمكننا أن نشرح هذه الأفكار البسيطة بواسطة بعض الكلمات أو الأفكار الأخرى – فمثلا يمكننا أن نشرح فكرتنا عن تمثال ما statue لشخص أعمى لأن حواسه وخاصة حاسة اللمس يمكنها أن تثير فى ذهنه فكرة الشكل figure وهكذا . . بينما لا يمكن شرح فكرة أخرى عن صورة ما مثل فكرة اللون إلى ذلك الشخص الأعمى . إذ أنها لن تثير فيه أى صورة ذهنية عن اللون لأنها لن تصل إليه إلا بواسطة إدراكها عن طريق الحواس[٢] .

أما عن أسماء الجواهر فيقول لوك « إنها ليست أكثر من رموز تشير إلى أفكار مركبة مختلفة تتفق ، أو قد تتفق معها مجموعة من الجواهر الجزئية بينها مفهوم مشترك يمكن أن نشير إليه برمز واحد –[٣] لأنه مثلا ليس هناك فى العالم سوى شمس واحدة مع أن الفكرة عنها فى الذهن فكرة عامة مجردة – وعلى ذلك فإذا كان هناك شموس أخرى ، فهى لابد وأن تكون متفقة مع هذه الشمس فى صفاتها الأساسية – وبالتالى فإنها تشترك معها فى نفس الفكرة المجردة بحيث تندرج معها تحت نفس الاسم الكلى " الشمس " »[٤].

ماهية الجوهر

على أن أهم ما يميز كل نوع عن النوع الآخر هو ماهية هذا النوع الذى لا يمكن أن يكون فى نظر لوك سوى تلك الفكرة المجردة التى يدل عليها

---

(١) نفس المرجع السابق – صفحة ٣٤٤ .

(٢) Essay, B. III, ch. IV, sec. 12, p. 345.

(٣) Ibid, B. III, ch. VI, sec. 1, p. 354.

(٤) نفس المرجع السابق – صفحة ٣٥٥ .

ذلك الاسم – أى اسم النوع .

ولوك يسمى الماهية فى هذه الحالة بالماهية الاسمية لكى يفرق بينها وبين الماهية الحقيقية – لأن الماهية الحقيقية تعتبر بمثابة التركيب الداخلى للأشياء (أى الصفات الأولية) التى تتوقف عليها جميع المظاهر الأخرى التى سأقوم بتقسيم الأشياء إلى أنواع بناء عليها . . أى أن الماهية الحقيقية تعتمد أساساً على الصفات الأولية ، بينما الماهية الاسمية تعتمد على تصنيف الأشياء حسب مفهومنا عنها ، ولذلك فهى تعتبر اسمية فقط وليست حقيقية بل تعتمد فى وجودها على الماهية الحقيقية – ويضرب لوك مثلا لذلك بفكرتنا المركبة عن الذهب التى سبق ذكرها – ويضرب لذلك مثلا آخر بفكرتنا عن الإنسان فيقول « إن ماهية الإنسان الاسمية ليست سوى فكرة مركبة من مجموعة من الأفكار الأخرى مثل فكرتى عن جسم ما + فكرة عن إحساس + فكرة عن انفعال وحركات إرادية + فكرة عن قدرة على التفكير . . . بحيث إننى إذا صادفت أى فرد من أفراد الإنسان ، وبحثت فى مقوماته الأساسية لوجدتها كلها قد تمثلت فى هذه الفكرة المركبة بدلا من الأفكار السابقة .

لذلك فماهيته الاسمية أصبحت واضحة وسهلة بينما ليس كذلك الحال فى ماهيته الحقيقية – إذ أن الماهية الحقيقية ليست فى هذه العمليات كالإحساس أو القيام بحركات إرادية أو القدرة على التفكير ، بل تتمثل فى التركيب الداخلى لأجزاء ذلك الكائن الحى ومعرفة ذلك التركيب حتى يمكننا أن نفهم العمليات الأساسية التى أدت إلى تلك المظاهر كالتفكير والإحساس والحركة » . وهذا كما يقول لوك ما لا يمكن معرفته أو الوصول إليه[١] .

معيار الدقة فى استخدام الألفاظ :

يرى لوك ضرورة مراعاة بعض الاعتبارات أثناء استخدامنا الألفاظ اللغة وأهمها :

---

(١) Essay, B. III, ch. VI, sec. 3, p. 356.

(ا) أن يشير اللفظ — مهما كان استخدامنا له — إلى نفس الفكرة بكل دقة .

(ب) أن يشير اللفظ بكل دقة إلى نفس الفكرة بالنسبة للمتكلم من جهة والسامع من جهة أخرى .

وهذه هى الدقة المثالية فى نظر لوك ، التى لا نكاد نصل إليها لعدة أسباب ترجع إلى عدة نقائص تتعلق بالكلمات التى نستخدمها كى تدل على أفكارنا — وخاصة عن الأعراض المركبة والجواهر — يمكن التخلص منها بسهولة وأهمها فى نظر لوك :

(ا) الأخطاء الإرادية المتعمدة .

(ب) الإهمال[١].

ويذكر لوك لذلك سبعة أمثلة[٢].

١ — حين نستعمل ألفاظاً ليس لها أفكار تشير إليها أو تدل عليها ، أو إن وجدت فهى أفكار واضحة — لأننا فى هذه الحالة نشبه الببغاء التى تردد الأصوات .

٢ — حين نستعمل الألفاظ بطريقة غير ثابتة فنجعلها تشير إلى مجموعة من الأفكار البسيطة مرة وإلى مجموعة أخرى مرة ثانية .

٣ — حين نتعمد أن نذكر ألفاظاً ذات مظهر رنان — ربما لنخفى وراءها غموض أفكارنا الدالة عليها .

٤ — حين نستعمل الكلمات لا لتشير إلى الأفكار إنما إلى الأشياء — فنذهب بناء على ذلك مثلا إلى أن الصور الجوهرية أو النفوس النباتية

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 216.

(٢) Essay, B. III, ch. X, pp. 397-411.

أو الخلاء أو الأنواع — أشياء لها وجود حقيقى[١] طالما كانت هناك ألفاظ نطلقها عليها .

٥ — حين نستعمل الكلمات لكى تدل على أشياء لا يمكن أن تدل عليها أو ترمز لها أو تشير إليها — كأن نستخدم كلمة « ذهب » لكى تشير إلى ماهيته الحقيقية .

٦ — حينما نستعمل ألفاظاً واضحة المعنى بالنسبة لنا ، بينما هى ليست كذلك بالنسبة للآخرين .

٧ — حينما نستعمل الاستعارة فى حديثنا وخاصة فى المحادثات والشعر طالما كانت تسبب ارتياحاً ووقعاً جميلا ، وتجعل الفرد يحس بالسعادة .

ويقترح لوك لعلاج هذه النقائص أو الأخطاء فى اللغة ما يأتى :[٢]

أولا : الاهتمام بعدم استخدام أى لفظ أو كلمة إلا إذا كان له دلالة معينة أى أن نعرف بوضوح الفكرة التى يرمز لها هذا اللفظ .

ثانياً : أن نعرف الفكرة التى نرمز لها بألفاظ اللغة — بكل دقة وتمييز .

ثالثاً : احترام الاستعمال السائد فى اللغة بحيث تأتى ألفاظنا وكلماتنا متفقة مع هذا الاستعمال السائد فى المجتمع .

رابعاً : إذا كنا سنحيد عن الاستعمال السائد بين الناس باستعمال ألفاظ وكلمات غير معروفة بالنسبة للسامعين — فإن كلماتنا لن تكون مفهومة — إلا إذا أوضحنا معناها وبينا سبب ذلك .

خامساً : يجب بقدر الإمكان أن نستخدم الكلمة الواحدة بصفة دائمة بنفس المعنى الذى تدل عليه أو تشير إليه[٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٠٢ .

(٢) Aaron, R. I., Locke, John p.217.

(٣) Essay, B. III, ch. XI, sec. 26, p. 423.

أولا : أنواع المعرفة ومذاهبها

يذكر لوك أن أى معرفة تتلخص فى الأفكار الموجودة فى ذهن الإنسان على أساس أن الموضوعات الحسية تؤثر فى الذهن – فتتكون فيه الأفكار البسيطة نتيجة للانطباعات الحسية ، ثم تبدأ بعد ذلك عملية المعرفة حيث يقوم العقل بإدراك ما بين هذه الأفكار من علاقات .

وعملية المعرفة تتلخص فى نظره فى « إدراك أوجه التشابه والارتباط أو التناقض والاختلاف بين الأفكار الموجودة فى الذهن »[١] فإذا ما تم هذا الإدراك كانت المعرفة ، وإذا لم يتم – لم يكن هناك سوى مجرد الخيال والظن والاعتقاد فقط بدون أن يصل إلى معرفة – ويضرب لذلك مثلا بقوله : « إننا حين نعرف أن اللون الأبيض ليس هو الأسود – معناه أننا عرفنا أن فكرتى اللون الأبيض والأسود ليستا متشابهتين بل مختلفتين – وكذلك حين نعرف أن مجموع زوايا المثلث ، ٢ ق فإن هذا يعنى أننا أدركنا التساوى أو التشابه بين فكرتنا عن مجموع الزوايا الثلاث فى المثلث وبين فكرتنا عن الزاويتين القائمتين »[٢] .

أما كيف يتم إدراك أوجه التشابه أو الاختلاف بين الأفكار – فيرى لوك أنه يتم بناء على عدة اعتبارات يمكن تلخيصها فى أربعة نقط هى :

(ا) إدراك الذاتية والتباين Identity and diversity

(ب) إدراك الإضافة Relative

(حـ) التآنى فى وجود الروابط الضرورية of Co-existence

(د) علاقة الأفكار بالوجود الواقعى أو الحقيقى of real existence

---

(١) Essay, B. IV, ch. I, sec. 2, p. 424.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

أولا : إدراك الذاتية والتباين :

وهو كما يقول لوك مبدأ ضروري مطلق ، أساسي تعتمد عليه أي عملية من العمليات العقلية – بل إنه يعتبر أول عملية يقوم بها العقل حالما يتزود بأية إحساسات أو أفكار على الإطلاق ، وذلك لأنني كي أدرك أية فكرة من أفكاري – لابد وأن أعلم أن هذه الفكرة ليست فكرة أخرى ، بل هي هي نفسها – وبدون هذا الإدراك لا يمكن أن تقوم أي معرفة أو أي تعقل أو تخيل أو أي أفكار واضحة على الإطلاق [١].

ويضيف لوك بقوله : « إن هذه العملية تتم بلا أي مجهود عقلي ، ولا تحتاج إلى تعلم أو إتقان – بل إنها تتم لأول وهلة بواسطة القوى الخاصة بالإدراك والفهم »[٢] وهو ما يمكن التعبير عنه بالشكل الآتي ا = ا ولا تساوي ا¯ .

ثانياً : الإضافة

أي إدراك العلاقة بين أي فكرتين من أي نوع كانتا سواء عن الجوهر أو الأعراض أو غير ذلك – وهذا الإدراك ضروري جداً بالنسبة للتفكير الإنساني لدرجة أنه لا يمكن قيام أية معرفة إيجابية على الإطلاق ما لم ندرك أية علاقة بين أفكارنا ونكشف بذلك عن التشابه أو الاختلاف بين كل منهما والأخرى ، وذلك عن طريق مقارنتهما بعضهما ببعض[٣] .

ثالثاً : التآني في الوجود

وذلك بالنسبة لأفكارنا عن موضوع معين – وهذا كما يقول لوك « واضح بالنسبة لأفكارنا عن الجواهر بوجه خاص » .[٤] ويضرب لذلك مثلا فيقول

---

(١) Essay, B. IV, ch. I, sec. 4, p. 424.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق – صفحة ٤٢٥ .

« إننا حين ننسب صفة الصلابة للذهب إنما نعنى أن هناك فكرة معينة (وهى فكرة الصلابة) تصاحب دائماً وتلازم وترتبط باستمرار بفكرتنا عن شيء معين أصفر اللون ثقيل الوزن يذوب فى الماء الملكى Aqua regia وهى فكرتنا المركبة عن الذهب »[1] ولذا فالتلازم فى الوجود بين الأفكار بالنسبة لموضوع معين (أى جوهر معين) يعتبر من ضمن العمليات العقلية التى يعتمد فيها العقل على إدراك أوجه التشابه أو الاختلاف بين أفكاره .

رابعاً : الوجود الحقيق

أى إدراك اتفاق أو دلالة الوجود الحقيق الواقعى لأى فكرة موجودة فى العقل . . وهكذا فمعرفتنا بأن الأزرق ليس هو الأصفر — تعتمد على إدراك الذاتية ، بينما معرفتنا بأن المثلثين القائمين على قاعدتين متساويتين بين أى خطين متوازيين متساويان — تعتمد على إدراك الإضافة (أى العلاقة بين الأفكار) ومعرفتنا بأن الحديد يتأثر أو ينجذب بالمغناطيس تعتمد على النوع الثالث وهو إدراك فكرة التلازم فى الوجود بين الأفكار بالنسبة لموضوع واحد معين أو جوهر معين ، بينما معرفتنا بأن الله موجود — تعتمد على النوع الأخير . وهو إدراك مطابقة الفكرة للوجود الحقيق [2] .

ويرى لوك أن إدراك أوجه التشابه أو الاختلاف بين الأفكار . إذا ما تم مباشرة بين أى فكرتين — سميت المعرفة فى هذه الحالة بالمعرفة الحدسية Intuitive وهى أوضح أنواع المعرفة وأكثرها يقيناً بالنسبة للوك — أما إذا لم يتم هذا الإدراك مباشرة بين هاتين الفكرتين ، واعتمد العقل على فكرة ثالثة أو أفكار أخرى لكى يستعين بها فى هذا الإدراك — سميت المعرفة فى هذه الحالة بالمعرفة البرهانية

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٢٦ .

وهى أقل وضوحاً من المعرفة الحدسية .

وعلى ذلك فأنواع المعرفة ودرجاتها عند لوك هى :

١ ــ المعرفة الحدسية Intuitive

٢ ــ المعرفة البرهانية Demonstrative

٣ ــ بالإضافة إلى المعرفة الحسية sensetive وهى واضحة تمام الوضوح ــ وسأتناول كل نوع من هذه الأنواع بشىء من التفصيل .

المعرفة الحدسية

وهى المعرفة التى يدرك فيها العقل مباشرة أوجه التشابه أو الاختلاف بين أى فكرتين من أفكارنا ، بدون الاعتماد على أى فكرة أو أفكار أخرى متوسطة .

وهى حدسية لأن العقل لا يثبت أو يبرهن شيئاً ــ بل يرى الحق ماثلا أمامه تماماً مثل العين حين تبصر الضوء ، فيدرك بلا عناء ولا برهان أن اللون الأبيض ليس هو الأسود ، وأن الدائرة تختلف عن المثلث ، وأن ٣ أكثر من ٢ ، وأنها تساوى ٢ +١ . وهذا النوع من المعرفة (أى المعرفة الحدسية) هو أوضح أنواع المعرفة الإنسانية وأكثرها يقيناً . إنه الأساس الأول الذى يعتمد عليه كل وضوح أو يقين فى أى نوع من أنواع المعرفة الإنسانية [١].

والواقع أن لوك لم يكن أول من تكلم عن الحدس بالنسبة للمعرفة الإنسانية بل سبقه كثير من الفلاسفة ــ ولعل أوضح من تكلم فى هذا الصدد هو الفيلسوف الفرنسى « ديكارت » الذى اعتبر المعرفة الحدسية نوعاً من البداهة العقلية ، أو النور الفطرى الذى يضىء النفس [٢]ــ أو هى بمثابة الرؤية العقلية المباشرة

---

(١) Essay, B. IV, ch. II, sec. 1, p. 433.

(٢) ديكارت ، للدكتور عثمان أمين ، صفحة ٧٣ ــ طبعة ثانية ١٩٤٦ .

التى يدرك بها الذهن بعض الحقائق التى تذعن لها النفس وتوقن بها يقيناً لا سبيل إلى دفعه لأنها نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتمييز أن زال معها كل شك[١] . وهكذا يبدو تأثير ديكارت فى لوك فى المعرفة الحدسية بالرغم من اختلاف معنى الحدس عند كل منهما عن الآخر إلى حدما .

فالمعرفة الحدسية عند ديكارت لا تعتمد إلا على العقل وما يراه العقل بوضوح وتميز — بعيداً كل البعد عن أى لون من ألوان التجربة الحسية — مثل معرفة الذات أو الكوجيتو .

بينما المعرفة الحدسية عند لوك تعتمد أصلا على التجربة الحسية التى بدونها لم يكن ليتم الحدس — ولو أنها فى حد ذاتها عملية عقلية خالصة [٢].

وعلى ذلك يمكن القول بأن لوك استعار حدسية ديكارت ومزجها أو أقامها على أسس تجريبية فكانت بذلك فلسفته النقدية — أو بمعنى آخر إنه قبل الحدس الديكارتى كجزء من فلسفته التجريبية[٣].

المعرفة البرهانية

والدرجة التالية من درجات المعرفة — هى المعرفة البرهانية — وهى تلك الحالة التى لا يدرك العقل فيها أوجه التشابه والاختلاف بين أى فكرتين موجودتين فيه مباشرة ، بل بتوسط فكرة أو أفكار أخرى — وهذه العملية هى ما يسميها لوك بالتعقل Reasoning [٤] فمثلا حين يحاول العقل أن يدرك العلاقة بين مجموع زوايا المثلث ، وبين زاويتين قائمتين — سيضطر إلى أن يبحث عن بعض الزوايا الأخرى التى تساوى زوايا المثلث الثلاث وتكون مساوية فى الوقت نفسه للزاويتين القائمتين ، وبذلك يكشف عن حلقة ارتباط تتوسط بين الفكرتين

---

(١) نفس المرجع السابق ، صفحة ٦٦ .

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 115.

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٢٢ .

(٤) Essay, B. IV, ch. II, sec. 2, p. 434.

الأوليتين وتكشف عن العلاقة بينهما سواء أكانت علاقة اتفاق أو اختلاف[١].

ولذا فهذا النوع من المعرفة يسميه لوك بالمعرفة البرهانية لأن العقل يقوم فيها باستخدام البرهان أو البراهين أثناء عملية التعقل للكشف عما بين الأفكار من تشابه أو اختلاف .

والبراهين فى نظر لوك[٢] هى نفسها هذه الأفكار المتوسطة — ويمكن توضيح الفرق بين هذين النوعين من أنواع المعرفة من المقارنة التالية :

١ — المعرفة البرهانية : تأتى فى نظر لوك فى درجة أدنى من المعرفة الحدسية — إذ أنها لا تعتمد على الاكتشاف المباشر للعلاقة بين الأفكار — بينما المعرفة الحدسية تعتبر أوضح أنواع المعرفة وأكثرها يقيناً لاعتمادها على الإدراك المباشر لما بين الأفكار من تشابه أو اختلاف[٣].

٢ — المعرفة البرهانية : أكثر صعوبة من المعرفة الحدسية لأنها تحتاج إلى مجهود عقلى فى البحث عن فكرة أو أفكار متوسطة مناسبة ، وربطها بكل من الفكرتين المراد إدراك العلاقة بينهما ، وتدرج العقل فى هذه الخطوات وسيره فى هذه المراحل — بعكس المعرفة الحدسية التى تتم مباشرة و بدون أى مجهود عقلى[٤].

٣ — المعرفة الحدسية — لا تترك أى مجال للشك أمام العقل الإنسانى فيما عرفه لأنها تتم مباشرة و بلا أى توسط أو برهان عقلى — بينما المعرفة البرهانية تترك فرصة للشك لأنها لا تتم مباشرة بل بتوسط أفكار أخرى — فمجرد عملية البحث عن أفكار متوسطة ، وإيجاد الروابط بينها وبين الأفكار المراد إدراك ما بينها من تشابه أو اختلاف — تترك الباب مفتوحاً أمام الشك فى صحة هذه الخطوات والعمليات العقلية المصاحبة لها وخاصة التعقل[٥] .

٤ — كلاهما معرفة واضحة إلا أن المعرفة الحدسية أكثر وضوحاً — مثل

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) Essay, B. IV, ch. II, sec. 3, p. 434.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٣٥ .

وضوح الصورة فى المرآة — بينما المعرفة البرهانية أقل وضوحاً . وذلك لاعتمادها على الأفكار الوسيطة ، وخاصة إذا كان هناك عدد كبير منها ، ويسميها لوك فى هذه الحالة بالبراهين أو الأدلة المطولة[١] .

٥ — أن المعرفة البرهانية : تعتمد على المعرفة الحدسية ، وخاصة فى كل خطوة من خطوات التعقل أو البرهان — ولنأخذ فكرة متوسطة بين ا ، ب مثل جـ — سنجد أن إدراك العلاقة بينهما وبين كل من ا ، ب إما أن يكون بطريق الحدس المباشر أو يكون برهانياً — وهو إذا كان برهانياً ، فلابد وأن يكون العقل قد استخدم أفكاراً أخرى متوسطة . . وهكذا حتى نصل إلى أقرب فكرة متوسطة أدرك العقل العلاقة بينها وبين كل من ا ،ب بطريقة الحدس . ولذا فالخطوات العقلية التى يسير عليها الذهن فى المعرفة البرهانية — تعتمد فى أصلها على المعرفة الحدسية[٢] .

إلا أن هذه المعرفة البرهانية بالرغم من اعتمادها فى خطوات البرهان على المعرفة الحدسية — ليست فى درجة الوضوح الموجود فى الحدس — وذلك لاعتمادها على الذاكرة اللازمة لتذكر العلاقة بين الأفكار الوسيطة والأفكار الأخرى الأصلية — وما دام عامل التذكر قد تدخل فى عملية التعقل — أصبح الشك فى صحتها ممكناً ؛ وبالتالى كانت درجة اليقين والوضوح فيها أقل من المعرفة الحدسية[٣].

٦ — المعرفة الحدسية : بالرغم من درجة اليقين العالية الموجودة فيها —لا يمكن اعتبارها أساساً للعلوم — بعكس المعرفة البرهانية التى يمكن اعتبارها كذلك بالرغم من أن درجة اليقين فيها أقل من الحدس[٤] .

٧ — المعرفة الحدسية : لا تساعد على تقدم العلوم — بل تفسرها فقط —

---

(١) Essay, B. IV, ch. II, sec. 6, p. 435.

(٢) Ibid, B. IV, ch. II, sec. 7, p. 436.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٥١٣ .

بعكس المعرفة البرهانية التى تصاحب كل تقدم فى أى علم من العلوم ، بل وتساعد على تقدمه وتطوره[١] .

المعرفة الحسية

وهناك نوع ثالث من أنواع المعرفة هو المعرفة الحسية التى تعتمد أساساً على ما هو موجود فى الواقع الخارجى — أى على ما هو خارج الإنسان — بعكس المعرفة الحدسية والبرهانية اللتين ترجعان إلى عمل العقل وتأمله لما فى داخله من أفكار ، والمعرفة الحسية بالنسبة للوك واضحة يقينية — إذ ليس هناك شىء أكثر يقيناً من تلك الفكرة التى تتكون فى الذهن عن موضوع خارجى[٢] .

وهذا ما سأتناوله بالتفصيل أثناء الحديث عن إدراك العالم الخارجى .

ثانياً : مدى المعرفة الإنسانية

ربط لوك بين حدود المعرفة الإنسانية ، أو المدى الذى يمكن أن تصل إليه من يقين بالمعنى الذى تصوره لطبيعة المعرفة ، وما يجب أن تكون عليه ويمكن تلخيص أهم المراحل التى مرّ بها تطور تفكير لوك فى هذا الصدد بالشكل الآتى :

١ — بدأ فى المسودة .Draft A بالقول بأن المعرفة يجب أن تكون :

(ا) يقينية تماماً — ولذا فكل ما يقصر عن بلوغ اليقين لا يعتبر معرفة .

(ب) متعلقة بالوجود الحقيقى للأشياء « سواء كانت موجودات طبيعية أو عقلية »[٣] .

٢ — ثم بدأ يغير من موقفه ، وخاصة فى المسودة ب B ثم فى مقالته بعد

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٣٨ .

(٣) Aaron, R. I., John Locke, p. 226.

ذلك فظلت المعرفة مرتبطة بما هو يقيني ومتميزة عن الظن والاعتقاد — إلا أنها لم تصبح متعلقة بالوجود الحقيقي للأشياء بل مرتبطة بإدراك ما بين الأفكار من علاقات التشابه أو الاختلاف [١].

هذا ويرجع لوك ضيق مجال المعرفة الإنسانية إلى :

١ — إننا لا يمكننا أن ندرك ما بين جميع أفكارنا من تشابه أو اختلاف عن طريق الحدس — بل لابد من وجود المعرفة البرهانية كذلك . فمثلا إذا كان أمامى مثلثان أحدهما منفرج الزاوية والآخر حادها — يمكن أن أدرك حدسياً أن الأول مختلف عن الثانى — بينما إدراكى لتساوى المثلثين أو عدم تساويهما لا يمكن أن يرجع إلى الحدس — لأننى كى أدرك أن المثلث الأول يتساوى أو يختلف عن المثلث الثانى ، لابد وأن أربط بين كل من المثلثين ومقياس معين أنسب إليه كلا منهما — ولذلك فالمعرفة فى هذه الحالة برهانية وليست حدسية [٢] .

٢ — إلا أنه ليس معنى ذلك أن العقل الإنسانى لابد وأن يقوم بربط جميع الأفكار الموجودة فيه وإدراك ما بينها من تشابه أو اختلاف — حدسياً أو برهانياً — إذ قد لا يجد العقل أحياناً مثل هذه الأفكار الوسيطة التى تربط بين أى فكرتين .

وهذا بلا شك يؤدى إلى التضييق من مجال المعرفة الإنسانية وخاصة تلك البرهانية [٣].

٣ — أما المعرفة الحسية فهى لا يمكن أن تصل إلى أكثر من وجود الأشياء الماثلة أمام حواسنا — أى لا تتصل إلا بالموضوعات أو المدركات الواقعية التى يمكن إدراكها بالحواس — بمعنى أنها تتيح لنا إدراك الشىء كما هو ، وليس فى

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٢٧ .

(٢) Essay, B. IV, ch. III, sec. 3, p. 440.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

ذاته — ولذلك فهى أضيق نطاقاً من تلك المعرفة العقلية [١].

٤ — مما سبق يتضح أن ضيق مجال المعرفة الإنسانية لا يرجع فقط إلى قصور العقل عن إدراك حقيقة الأشياء (أى الماهية الحقيقية) — بل يرجع كذلك إلى قصور العقل الإنسانى عن إدراك ما بين كل أفكاره من تشابه أو اختلاف إما حدسياً أو برهانياً وهو فى هذا الصدد يقول : أعتقد أن معرفتنا لن تصل إلى كل ما نتمنى أن تصل إليه من اتساع مجالها فيما يتعلق بهذه الأفكار الموجودة فى العقل فتغطيها جميعاً [٢] .

ومن المحتمل أن تكون الدرجات العليا من الأرواح — أكثر قدرة على هذا الإدراك بحيث يتسع مجال معرفتها أكثر مما هو بالنسبة للعقل البشرى [٣] .

وبعد أن ينتهى لوك من ذكر هذه الاعتبارات أو الملاحظات التى أوردها بالنسبة للمعرفة الإنسانية . يطبق ما لاحظه على أنواع المعرفة الخاصة بإدراك أوجه التشابه أو الاختلاف بين الأفكار وهى (١ — إدراك الذاتية . ٢ — إدراك الإضافة . ٣ — إدراك التلازم فى الوجود . ٤ — إدراك الوجود الواقعى) لكى يوضح مدى المعرفة التى يمكن أن يحصلها الإنسان فى حالة اعتماده على كل نوع من هذه الأنواع الأربعة [٤] .

أولا : إدراك الذاتية : — يرى لوك أن إدراكنا لذاتية أفكارنا يعتبر إدراكاً مباشراً وبالتالى تعتبر المعرفة به معرفة حدسية .

وحيث إن الإنسان يمكنه بواسطة الإدراك المباشر أو الحدس أن يتبين أن أى فكرة فى ذهنه هى هى وليست فكرة أخرى غيرها — فإنه بالتالى لابد وأن يعرف حدسياً ذاتية جميع أفكاره [٥].

ثانياً : إدراك التآنى فى الوجود : — أما معرفتنا عن طريق إدراك التلازم فى

---

(١) نفس المرجع السابق، ونفس الموضع : (٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٤١ .
(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٤٢ .
(٤) Essay, B. IV, ch. III, sec. 7, p. 443.
(٥) Ibid, B. IV, ch. III, sec. 8, p. 443.

الوجود ، ولو أنها تعتبر معرفة ضئيلة محدودة — إلا أنها تكون الجزء الأكبر من المعرفة بالجوهر — كما أنها تكون أكبر جانب من العلوم التى يعرفها الإنسان وهى لا تعتبر ضيقة المدى فقط ، بل إننا قد لا نصل إليها أحياناً وذلك لأن الأفكار البسيطة التى نكون منها أفكارنا المركبة وخاصة عن الجواهر لا تتضمن أو تشتمل فى حد ذاتها على أى رابطة ضرورية بينها وبين بعضها — أو بينها وبين بعض الأفكار الأخرى التى نحاول أن نتبين مدى ارتباطها معا — وهذا ما يجعل عمل العقل أكثر صعوبة[١] ، وذلك لأننا بالإضافة إلى جهلنا بالصفات الأولية المتعلقة بالجزئيات الغير محسوسة فى الأجسام ، والتى تعتمد عليها الصفات الثانوية — فنحن كذلك أبعد ما نكون عن اليقين فى معرفتنا المتعلقة بتلازم أو تخلف وجود بعض الأفكار بالنسبة لموضوع معين — وهذا يرجع إلى أنه لا توجد أى صلة أو رابطة أو علاقة واضحة بين أى صفة ثانوية وهذه الصفات الأولية التى يتوقف وجودها عليها[٢] — إذ أن عقولنا لا يمكنها أن تكتشف أية علاقة أو صلة بين الصفات الأولية للأشياء ، وبين تلك الإحساسات التى تنطبع فى أذهاننا عنها — فنحن لا يمكن أن ندرك أو نعرف أى نوع من الحجم أو الشكل أو الحركة الخاصة بالأجزاء الغير منظورة فى الأجسام هى التى تؤدى إلى إدراكنا للون أو الطعم أو الصوت الذى ندركه فى الأشياء[٣]. ولذا يقول لوك « إننا لا نعرف التركيب الداخلى للجزئيات الصغيرة للأجسام ؛ والتى تتوقف عليها الصفات الثانوية — وحتى لو عرفناها فلن ندرك أية علاقة بينها وبين الصفات الثانوية التى تعتمد عليها . . هذا بالإضافة إلى أننا لا يمكن بواسطة التفكير أن نصل إلى أية رابطة ضرورية تحتم تلازم هذه الصفات الثانوية . وكل ما يمكن أن نرجع إليه فى هذه الحالة هو التجربة الحسية فقط التى لا تفيد أيضاً ضرورة تلازم وجود هذه الصفات فى الجواهر — فمثلا نحن

---

(١) Ibid, B. IV, ch. III, sec. 10, p. 444.

(٢) Essay, B. IV, ch. III, sec. 12, p. 444.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

ندرك اللون الأصفر فى الذهب وكذلك الوزن والصلابة والقابلية للذوبان . . إلخ كلها مرتبطة مع بعضها فى قطعة الذهب — إلا أننا لا يمكن أن ندرك أية علاقة ضرورية تربط وجود هذه الصفات بعضها بالبعض الآخر بمعنى أننا لا يمكن أن نجزم بوجود إحدى هذه الصفات الخمس إذا وجدت منها أربع — لأنه لا توجد ضرورة تحتم ظهورها جميعاً فى وقت واحد — وكل ما هناك احتمال فقط لذلك — والاحتمال مهما كانت درجته كبيرة — لا يمكن أن يصل إلى اليقين الذى بدونه لا يمكن أن توجد معرفة ما »[١] .

ثالثاً : إدراك الإضافة (العلاقات) :

أما فيما يتعلق بالمعرفة التى تقوم على إدراكنا لبقية الموضوعات الأخرى التى نحكم على أساسها إذا ما كان هناك اتفاق أو اختلاف بين أفكارنا — فسنجد أنه من الصعب الحكم عليها أو معرفة المدى الذى يمكن أن تصل إليه — إذ أنها تكوّن أكبر جزء من معرفتنا الإنسانية ، وذلك لأن أى تقدم فى هذه الناحية من النواحى المعرفية — إنما يعتمد أساساً على حكمة Sagacity الإنسان وتدبره بعقله لإيجاد تلك الأفكار المتوسطة التى يمكن أن تربط بين أفكار لم تكن لندركها مترابطة .

وعلى ذلك فمن الصعب أن نقول أين تنتهى هذه الاكتشافات التى يقوم بها العقل كى يدرك بناء عليها العلاقة بين أفكاره المختلفة — ولا متى ينتهى العقل من استنفاد كل أدلته أو براهينه (ولوك يستخدم لفظ البرهان بمعنى الفكرة المتوسطة) التى يكشف بها عن العلاقات أو الروابط بين الأفكار ، وبالتالى أوجه الشبه أو الاختلاف بينها[٢] .

رابعاً : إدراك الوجود الحقيقى

أما المعرفة التى تقوم على إدراكنا للوجود الحقيقى للأشياء فهى معرفة تختلف

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٤٥ .

(٢) Essay, B. IV, ch. III, sec. 18, p. 447.

تبعاً لذلك الوجود، فإدراكي لذاتي إدراكاً مباشراً يجعل معرفتي بها معرفة حدسية — بينما معرفتي بوجود الله تعتبر معرفة برهانية — أما معرفتي بوجود أي شيء آخر فهو في نظره معرفة حسية لا تصل إلى ما وراء الأشياء موضوع الإحساس بل تقف عندها فقط ولا تتعداها[١] .

من هذا يتضح أن مجال المعرفة الإنسانية ضيق جداً لدرجة أن لوك يذهب إلى أن ما نعرفه أقل بكثير مما نجهله ولا نعرفه .

ويلخص لوك أسباب الجهل في ثلاثة :

١ — نقص الأفكار أو عدم كفايتها (مثل الشخص الأعمى) الذي تنقصه الأفكار التي تتكون في الذهن عن طريق البصر (كالألوان وغيرها) .

٢ — النقص في اكتشاف العلاقات بين الأفكار الموجودة في الذهن .

٣ — النقص في اختبار أفكارنا وتتبعها إلى أصلها[٢] .

ثالثا : حقيقة المعرفة الإنسانية

يرى لوك أن المعرفة إذا كانت قاصرة على أفكارنا فقط — بحيث لا تدل على ما هو أبعد منها ولا تشير إلى شيء موجود ، فإن شأنها يصبح شأن الأحلام التي تدور في ذهن أي إنسان — وعلى ذلك فكل ما نعتبره حقيقياً في هذه الحالة — لا يزيد عن كونه رؤى تعرض لشخص حالم[٣] . إذن ما هي حقيقة معرفتنا ؟

يقول لوك « إن المعرفة لا يمكن أن تكون حقيقية إلا إذا كان هناك تماثل Conformity بين أفكارنا وبين حقيقة الأشياء»[٤] .

ولكن ما هو المقياس أو المعيار Criterion الذي سنحكم بناء عليه بأن هناك تماثلا بين الأفكار وحقائق الأشياء ؟ كيف يمكن للعقل أن يعرف إن

---

(١) Ibid, B. IV, ch. III, sec. 21, p. 450.

(٢) Essay, B. IV, ch. III, sec. 22, p. 451.

(٣) Ibid, B. IV, ch. IV, sec. 2, p. 482.

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٨٣ .

أفكاره تمثل أو تتفق وحقيقة الأشياء ما دام العقل عاجزاً إلا عن إدراك أفكاره نفسها ؟

لا ينكر لوك مدى الصعوبة فى هذا الموقف — إلا أنه يذكر أن هناك نوعين من الأفكار يمكننا أن نكون على ثقة من اتفاقهما وحقيقة الأشياء — وهما أفكارنا البسيطة وأفكارنا المركبة جميعاً ما عدا ما هو خاص بالجواهر[١].

أولا : الأفكار البسيطة : — وذلك لانها تعتبر فى نظره نتيجة مباشرة لتأثير الأشياء الخارجية (أى موضوعات الحس) فى عقولنا ، ولذا فهى بالتالى تحمل ضمناً ذلك التماثل المطلوب — وهذا التماثل Conformity الموجود بين أفكارنا البسيطة وبين حقيقة الأشياء كاف إلى حد كبير لجعل معرفتنا بها معرفة حقيقية[٢].

ومن الواضح أن ما يقصده لوك هنا بالأفكار البسيطة مقصور على الأفكار البسيطة الناتجة أو المتكونة فى العقل نتيجة للحواس .

ثانياً : الأفكار المركبة : (باستثناء ما هو خاص بالجواهر)

تؤدى أيضاً إلى معرفة حقيقية لأنها ليست سوى نماذج أو إطارات فكرية صنعها العقل نفسه حين جمع بعض أفكاره البسيطة بمحض اختياره ، وبدون أى اعتبار لكونها مجتمعة أو مترابطة فى الواقع[٣].

وعلى ذلك فهى أفكار من صنع العقل ، وليس المقصود منها أن تكون نسخاً للأشياء الموجودة فى الطبيعة . ولا أن تدل أو تشير إلى موجودات حسية بعينها . بل تعتبر مجرد نماذج أو إطارات يمكن أن تتناسب مع ماهو موجود فى الواقع بدون أن تدل عليه أو تشير إليه بالذات مثل فكرتى المركبة عن « جيش أو قبيلة أو مثلث أو ١٢ أو العدالة أو الجمال أو القبح » .إلخ . .

ففكرتنا عن المثلث مثلا تعتبر فعلا فكرة حقيقية من حيث إنها تعتبر

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .
(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .
(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

نموذجاً أو إطاراً فكريًّا يمكن أن يشير إلى أى مثلث موجود فى الواقع ويصدق عليه [١].

أما عن معرفتنا بالجوهر فلا يمكن أن تكون معرفة حقيقية كاملة[٢] لجهلنا بماهيته الحقيقية .

وبذلك ينتهى لوك إلى القول « بأنه طالما كان هناك إدراك لأوجه التشابه أو الاختلاف بين الأفكار وحقائق الأشياء — كانت تلك المعرفة يقينية حقيقية[٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق — صفة ٤٨٤ .

(٢) Essay, B. IV, ch. IV, sec. 11, p. 486.

(٣) Ibid, B. IV, ch. IV, sec. 18, p. 491.

الباب الثالث

المعرفة بين اليقين والاحتمال

أولا : المعرفة الضرورية

يرى لوك أن هناك نوعاً من القضايا المنطقية يمكن أن نسميها بالمبادئ الضرورية Maxims أو البديهيات axions وهى واضحة بذاتها لا تحتاج إلى أى دليل أو برهان — لدرجة أن البعض يعتبرها مبادئ عامة فطرية مسلم بصحتها[1].

ويستشهد على ذلك بالالتجاء إلى الخبرة الشخصية الإنسانية فيقول « إن أى إنسان إذا ما حاول اختبار أى قضية من هذا النوع — سيجد نفسه وقد وافق على صحتها لأول وهلة ، وبلا دليل أو برهان ، وذلك لأنها واضحة وضوحاً كافياً لا يترك أى مجال للشك — ولأنه بالنسبة لأى من هذه المبادئ أو القضايا البديهية — سيجد الإنسان أن السبب الأساسى الذى دفعه إلى الموافقة على صحتها يرجع إلى إدراك العقل مباشرة لذلك الاتفاق أو الاختلاف حين يقارن بينها فى الحال ، ويدرك فى هذا الاتفاق أو الاختلاف بينها — إجابة لما فيها من نفى أو إثبات »[2] .

ويرى لوك أيضاً أن ذلك الوضوح الذاتى ليس مقصوراً على تلك المبادئ الأولية أو البديهيات لأن هناك أيضاً من القضايا ما هو واضح بذاته ، ولو أنها لا تدخل ضمن هذه المبادئ الأولية أو البديهيات[3] مثل :

أولا : إدراكنا لذاتية أفكارنا التى تعتمد على إدراك كل فكرة على حدة

---

(١) Essay, B. IV, ch. VII, sec. 1, p. 505.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٥٠٦ .

وكيف أنها هي هي نفسها وليست غيرها من الأفكار الأخرى — مثل إدراكنا لأن كل ماهو موجود (موجود) what soever is, is وكل ما هو أبيض (أبيض) أو أن الرجل (رجل) ، أو أن الرجل ليس حصانا ، وأن الأبيض ليس أزرق ، أو أنه من المستحيل بالنسبة للشيء الواحد أن يكون وأن لايكون في نفس الوقت[١]

ثانياً : أما بالنسبة للقضايا التي تعتمد المعرفة فيها على إدراك فكرة التآني أو التلازم في الوجود Co-existence فإن نسبة الوضوح الذاتي فيها أقل — إلا أن هناك بعض القضايا من هذا النوع تعتبر واضحة بذاتها وتكون المعرفة بها حدسية مباشرة مثل « إن أي جسمين لا يمكن أن يشغلا مكاناً واحداً[٢] » .

ثالثاً : وفيما يتعلق بالقضايا التي تعتمد معرفتنا بها على إدراك العلاقات الأخرى فإنه من الممكن أحياناً أن نجد قضايا واضحة في ذاتها . يوافق الإنسان عليها مباشرة حال سماعه لها مثل قول علماء الرياضة من أن الكميات المتساوية إذا طرحت من كميات متساوية فإن النواتج تكون دائماً متساوية[٣].

رابعاً : أما فيما يتعلق بالقضايا التي تعتمد معرفتنا بها على إدراك الوجود الحقيقي للأشياء — فإننا لا يمكن أن نجد من بينها قضية واضحة بذاتها ، لأنه لا يوجد من بينها ما يمكن اعتباره مبدأ أوليًّا أو بديهية[٤] .

ويوضح لوك أن هذه المبادئ الأولية ليست أول ما يعرفه الإنسان من حقائق طالما كانت معتمدة على وجود الأفكار الجزئية الناتجة عن الإحساس وتأثير الموضوعات الحسية في العقل[٥] — فالإنسان يمكنه أن يعرف معرفة أكيدة يقينية أن ١ + ١ = ٢ قبل أن يعرف بعض الحقائق الضرورية مثل « إن الكل مساو لمجموع أجزائه » أو غيرها[٦].

---

(١) Essay, B. IV, ch. VII, sec. 4, p. 507.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٥٠٨ .

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — نفس المرجع .

(٥) نفس المرجع السابق — صفحة ٥٠٩ .

(٦) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

وهنا تبدو إصالة المنهج التجريبي فى فلسفة لوك — فهو لا يرى أن هذه الحقائق الضرورية — أولية بمعنى أنها سابقة على التجربة الحسية ، ولا بمعنى أنها أول ما يعرفه العقل من حقائق — بل جعل أول ما يمكن أن يعرفه العقل هو ما يتكون فيه من أفكار نتيجة التجربة الحسية والخبرة، ويستنتج لوك من مناقشته لهذه المبادئ الأولية أنها :

أولا : لا يمكن أن تبرهن على صحة أى قضايا أخرى أقل منها فى وضوحها الذاتى .

ثانياً : لا يمكن أن تكون أساساً يقوم عليه أى علم من العلوم — وهو فى هذا الصدد يقول « حقيقة إن رجال الفلسفة المدرسية يقيمون بعض علومهم على مثل هذه الحقائق أو المبادئ — إلا أنه يبدو من سوء حظى أننى لم أصادف فى حياتى مثل هذه العلوم ، ولا أى علم من العلوم — يمكن أن يقوم على مثل هذين المبدءين (إن الشيء هو نفسه) (what is, is) ، (إنه من المستحيل على الشيء الواحد أن يكون وأن لا يكون) ، ويسعدنى كثيراً أن أعرف أين توجد مثل هذه العلوم التى تبنى على تلك المبادئ أو تقام عليها — كما يسعدنى أن يرشدنى أى شخص إلى أى علم من العلوم لا يمكن أن يقوم إلا بناء على مثل هذه المبادئ »[١] .

ثالثاً : لا يمكن أن تساعد على تقدم أى علم من العلوم أو على معرفة أى اكتشافات جديدة بالنسبة للحقائق المجهولة — ويضرب مثلا بنيوتن الذى أوضح كثيراً من القضايا التى تتضمن حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل بالنسبة للعالم . وتعتبر تقدماً كبيراً فى المعرفة الرياضية ، والتى لم يكن اكتشافها قائماً على هذه المبادئ الضرورية مثل (إن الشيء هو هو) أو (إن الكل أكبر من أى جزء من أجزائه) ولا بمعاونتها .

مضمون المعرفة الحدسية : — وحيث إن هناك فرقاً بين الحدس والبرهان فى نظر لوك — فلابد وأن يكون هناك أيضاً فرق بين القضية الحدسية والبرهانية .

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٥١١ .

وحيث إن المعرفة الحدسية لا تساعد على تقدم العلوم – أى لا تضيف إلى معلوماتنا شيئاً جديداً ، أو خبراً جديداً – فهى لا تعتبر إلا تفسيراً وتحليلا لما نعرفه فعلا من قبل بينما تضيف المعرفة البرهانية إلى أذهاننا معلومات جديدة ، وتفيدنا بأشياء لم نكن نعرفها من قبل .

ولذا فالنوع الأول من القضايا – هو ما يسميه لوك بالقضايا التحليلية (أو تحصيل الحاصل) trifiling – بينما يسمى النوع الآخر بالقضايا التركيبية أو الإخبارية instructive [١].

ويمثل لوك لهذه القضايا التحليلية بما يأتى :

أولا : جميع القضايا الذاتية : فمن الواضح أنها جميعاً – كما تبدو لأول نظرة – لا تتضمن أى خبر جديد ، ولاتحتوى أية معرفة لم نكن على علم بها من قبل – فمثلا القول بأن الشىء هو هو what is - is لا يدل أو يبرهن على شىء أكثر من أن الكلمة أو العبارة الواحدة يمكن أن نؤكدها بكل يقين بواسطتها نفسها أو عن طريقها هى ذاتها ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون هناك أدنى شك فى ذلك الصدق الموجود فى مثل هذه القضايا التى لا تفيد أى معنى جديد ، ولا تضيف أى معرفة جديدة[٢] .

وعلى ذلك يمكن لأى إنسان جاهل أن يقوم بتأليف مليون قضية من هذا النوع الذى لا يفيد أى معرفة جديدة – مثل أن الروح هى الروح ، أو أن النفس نفس ، أو أن الجسم جسم ، والجوهر جوهر ، والخلاء خلاء . . وهكذا إلى ما لانهاية من القضايا التى تتشابه فى صيغتها المنطقية ا هى ا[٣] .

ثانياً : بعض القضايا التى يكون محمولها تعريفاً لموضوعها . . (أى التعريف بالجنس) مثل القضايا المنطقية التى يكون الجنس فيها – محمولا على النوع باعتباره موضوعاً – كالقول بأن الرصاص معدن – فنحن نرى أن جميع

---

(١) Essay, B. IV, ch. VIII, sec. 1, p. 519.

(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ٥٢٠ .

(٣) نفس المرجع السابق – صفحة ٥٢١ .

الأفكار البسيطة التى تكون فكرتنا التى عبرنا عنها بالحد المنطقى (معدن) لا يمكن أن تكون أكثر من تلك الأفكار البسيطة الموجودة — والتى عرفناها فى فكرتنا المركبة وعبرنا عنها بالحد المنطقى (رصاص) إذ أن كلمة معدن فى هذه الحالة — تلخص جميع الأفكار الرئيسية عن جسم له ثقل معين ، لين ، قابل للذوبان . . . إلخ .(١)

وعلى ذلك يرى لوك أننى لم أزد شيئاً جديداً على المعنى الموجود فى ذهنى أو ذهن السامع حين أقول إن الرصاص معدن ، لأننى أخبرت بما هو أعم عما هو أخص .

ثالثاً : بعض القضايا التى يكون محمولها جزءاً من تعريف الموضوع (أى التعريف بالفصل) ولكن إذا كان المحمول فى القضية المنطقية — لا يعتبر تعريفاً للموضوع ، أى لا يشمل جميع الأفكار البسيطة التى تدخل فى تعريف الموضوع — بل كان مقصوراً على جزء من هذا التعريف ، كأن يتناول صفة أو فكرة بسيطة واحدة . . فمن البديهى أن القضية فى هذه الحالة تعتبر قضية تحليلية كذلك . فقولى « إن الرصاص قابل للذوبان » — معناه أننى لم أضف خبراً جديداً — بل كل ما هنالك أننى أوضحت فكرة بسيطة واحدة من مجموعة الأفكار التى يتركب منها معنى المحمول . والتى يجب أن يكون العقل عارفاً بها وبغيرها بالنسبة للموضوع من قبل .

أما إذا كان المحمول لا يدل على المعنى المعروف فى الموضوع — مثل قولى إن الإنسان يعرف معنى الله . أو ينام إذا تعاطى مخدراً . . فهذا يدل على معنى جديد نتعلمه ونعرفه بالإضافة إلى ما تحمله كلمة إنسان من معان نعرفها من قبل . فالنوم بتعاطى المخدر ليس من الصفات الأساسية التى تحدد مفهوم أومعنى الإنسان التى أعرفها عنه من قبل — ولذا فهى معرفة أو خبر جديد عرفته من المحمول . ولذا فالقضية فى هذه الحالة تعتبر قضية إخبارية وليست تحليلية(٢).

---

(١) Essay, B. IV, ch. VIII, sec. 4, p. 522.

(٢) Essay, B. IV, ch. VIII, sec. 6, p. 523.

ويرى لوك أن القضايا العامة المتعلقة بالجواهر — غالباً ما تكون قضايا تحليلية — وذلك لأن معرفتنا بالجواهر قاصرة على المعرفة بالماهية الاسمية لا الحقيقية .

وحيث إن المعرفة بالماهية الاسمية للجوهر هى المعرفة اليقينية — بينما ليست كذلك بالنسبة للماهية الحقيقية .

وحيث إن المعرفة بالماهية الاسمية ليست سوى معرفة تحليلية ، لأنها تقتصر على ذكر الصفات الأساسية التى يمكننا بناء عليها أن ندرجها فى أنواع وأجناس .

إذن فالمعرفة بالجواهر إذا كانت يقينية غالباً ما تكون تحليلية . وإذا كانت إخبارية أو إنشائية فهى لا يمكن أن تكون يقينية[1] .

ويمكن ملاحظة الشبه الكبير بين موقف لوك فى هذا المجال . وبين تقسيم القضية المنطقية إلى تحليلية وتركيبية . . فالقضية التركيبية هى ما تضيف إلى علمى جديداً لم أكن أعرفه — فافرض أنك تحدثنى عن شىء ما رمزه (س) ثم افرض أننى أعلم عن (س) معلومات أرمز لها (ا ، ب ، ج) فإذا قلت لى عن (س) إنها (ص) ، جاء قولك هذا مضيفاً لعنصر جديد إلى العناصر التى كنت أعرفها من قبل عن (س) — أى أن قولك (س) هى (ص) سيضيف إلى علمى علماً جديداً لم يكن من قبل جزءاً من معنى (س) : مثل قولك بأن (أحمد شوقى أول من كتب المسرحية الشعرية فى الأدب العربى)[2] .

أما القضية التحليلية فهى التى تكرر عناصر الموضوع بعضها أو كلها — فلا فلا تضيف إلى علمنا به شيئاً جديداً سوى إبرازها لتلك العناصر بحيث تصبح مذكورة ذكراً صريحاً بعد أن كانت متضمنة — مثال ذلك أنه فى قضية مثل س هى ص لو كانت عناصر س المعروفة هى ص ، ط ، ع . . إذن فالقضية لم تفعل سوى أنها أبرزت لنا عنصراً من عناصر الموضوع ، أى أنها

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٢٤ .

(٢) المنطق الوضعى — للدكتور زكى نجيب محمود — طبعة أولى ١٩٥١ — صفحة ١٣.

لم تنبئ بجديد عن الموضوع الذى نتحدث عنه مثل قولى (إن الأرامل كن متزوجات)[١].

ثانيا : المعرفة والوجود

يرى لوك أن معرفة الإنسان بالوجود تنقسم ثلاثة أقسام :

أولا : المعرفة بالوجود الذاتى — وتكون بالحدس .

ثانياً : المعرفة بوجود الله — وتكون بالبرهان .

ثالثاً : المعرفة ببقية الأشياء الحسية الأخرى — وتكون بالحس .

(١) معرفة الذات

يرى لوك أننا ندرك وجودنا ونعرفه معرفة واضحة يقينية بدرجة تجعلها لا تحتاج إلى أى دليل أو برهان على صحتها . لأنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أوضح لنا ولا أكثر ثبوتاً من وجودنا أنفسنا .. فأنا أفكر وأشعر باللذة والألم — هل يمكن أن يكون إدراكى لأى من هذه المشاعر أكثر وضوحاً أو ثبوتاً من إدراكى لوجودى ؟ وإذا كنت أشك فى جميع الأشياء الأخرى، فإن هذا الشك بعينه هو ما يجعلنى أدرك وجودى وأستبعد شكى فيه .

وعلى ذلك فالخبرة تقنعنا وتؤكد لنا معرفتنا الحدسية بوجودنا ، وإدراكنا الداخلى الذى لا يخطئ يثبت لنا أننا موجودون .

وعلى ذلك فإننا نشعر بوجودنا فى كل عملية من عمليات التعقل والإحساس والتفكير ، وهى تعتبر أعلى درجة من درجات اليقين فى المعرفة[٢].

---

(١) نفس الموضع السابق — صفحة ١٤ .

(٢) Essay, B. IV, ch. IX, sec. 2, p. 527.

ويبدو تأثر لوك فى هذا المجال بكوجيتو ديكارت ، فديكارت حين قال « إننى أشك فى كل شىء أستطيع أن أشك فيه — ما لم أجد مبرراً لعدم الشك فيه » — اصطدم شعوره ووعيه بوجوده الذاتى فقال « إننى حين أشك — فهذا يعنى أننى أفكر ، وأنا حين أفكر أدرك مباشرة أننى موجود — هذا هو الشىء الذى لا يمكن الشك فيه ، لأن الإنسان مهما حاول ذلك فهو لابد واع بأنه يشك ، وبالتالى أنه يفكر وأنه موجود »[١] .

وهو نفس المعنى الذى ذهب إليه من قبل القديس أوغسطين فى كتابه « مدينة الله » وخاصة فى قوله إفحاماً للأريتابيين « إنه إذا أراد المرتاب أن يفكر فيلزم حتى لو أخطأ أن يكون موجوداً ، وأن يعرف أنه موجود . لأننى إذا أخطأت فأنا موجود[٢] Si fallor sum » .

(ب) المعرفة بوجود الله

أما فيما يتعلق بإدراكنا لفكرة الله . فمعرفتنا بها تعتبر معرفة يقينية بالرغم من أنها لا ترجع إلى أى انطباعات فطرية فى العقل .

لأن الله وهبنا من القدرات العقلية ما يؤهلنا لإدراكه إدراكاً واضحاً ما دام فينا إحساس وإدراك وعقل . . إذ كلها شواهد فينا تؤكد وجوده ، وعلى ذلك فليس لنا أن نشكو جهلنا بوجود الله — طالما كنا مزودين بالوسائل التى تساعدنا على اكتشافه ومعرفته[٣] .

ومع أن معرفتنا بوجود الله — كما يذكر لوك تعتبر معرفة واضحة يقينية — إلا أنها ليست من نوع المعرفة الحدسية التى يدرك بها الإنسان ذاته ووجوده لأنها تتطلب جهداً عقلياً يبذله العقل فى التفكير والانتباه ، كى يستدل على وجود الله

---

(١) ديكارت — للدكتور عثمان أمين ، طبعة ثانية ١٩٤٦ — صفحة ١٠١ —.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ١٢٣ .

(٣) Essay, B. IV, ch. X, sec. 1, p 527.

من المعرفة بالوجود الذاتى . . . ولذا فهى معرفة برهانية تقوم على الاستدلال والبرهان .

وهو فى هذا الطريق يقتفى أثر ديكارت خطوة خطوة — فديكارت يبدأ بعد أن شك فى كل شىء فى إثبات الذات ، ثم إثبات وجود الله بناء على وجود الذات ثم وجود العالم الخارجى أو الأشياء الأخرى . وهذا ما فعله لوك — فهو يبرهن على وجود الله بناء على وجود الذات .

برهان لوك على وجود الله : — يبرهن لوك على وجود الله بقوله « إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء من لا شىء ، وما دمت أنا موجودا — شيئا له وجود حقيقى — إذن لابد أن يكون هناك من أوجدنى ، وحيث إن العدم لا يمكنه أن ينتج أو يخلق أى وجود واقعى — فإن البرهان الآتى سيكون بديهياً واضحاً صريحاً ، وهو أنه لا بد من وجود شىء منذ الأزل — سابق فى وجوده على وجود كل ما هو قديم ، وعلة له — لأن كل ما هو ليس بأزلى له بداية ؛ وكل ما له بداية ينتج عن غيره .

وعلى ذلك فالله قديم منذ الأزل — بمعنى أنه بداية ، أو أساس لكل ما هو موجود ، وهو خالق هذا الوجود »[١] .

ومن الواضح تأثر لوك فى هذا الصدد — بالمبدأ القديم — الذى ينص على أنه لا يمكن أن يكون هناك شىء من لا شىء ex nihil nihilo فالأشياء الموجودة — لكى يكون وجودها وجوداً حقيقياً لابد وأن تكون ناتجة عن شىء آخر لأنها لا يمكن أن توجد من العدم .

وهو فى نفس الوقت يعتمد على مبدأ العلية الذى يجعل لكل شىء علة فى وجوده وحيث إن الموجودات الطبيعية بما فى ذلك الذات الإنسانية — موجودة وجوداً حقيقياً ، فلابد وأن تكون هناك علة لوجودها — هى العلة الفاعلة — أى الله .

ويبدو أن تأثر لوك بأرسطو فى هذا المجال كان كبيراً — إذ أن أرسطو

(١) Ibid, B. IV, ch. X, sec. 3, p. 528.

أثبت وجود الله عن طريق إثبات العلة المحركة الأولى التى تحرك ولا تتحرك على أساس أن كل محرك يتحرك ، وكل متحرك له محرك . . . حتى نصل إلى المحرك الأول أى العلة الفاعلة الأولى التى تحرك ولا تتحرك وهى الله .

ويستطرد لوك بعد ذلك فى بيان الصفات التى تتصف بها الذات الإلهية فيرى أن الله بالإضافة إلى أنه قديم كما ذكر ، وأنه مصدر أو أساس أول لكل ما هو موجود من حيث إنه علة وجوده وخالقه . يقول « إن الله مصدر لكل قوة موجودة فى هذا الوجود — لأنه من الواضح أن أى شىء يبدأ فى الوجود نتيجة لوجود شىء آخر سابق عليه — فإنه سيعتمد فى كل ما يتعلق بوجوده على ذلك الشىء الذى يعتبر سبباً أو أساساً لوجوده . . . أى أن كل القوى الموجودة فى ذلك الشىء تعتبر مستمدة أصلاً من الشىء الأول علة وجوده[1] — فإذا ما طبقنا ذلك على نطاق أوسع يشمل جميع الأشياء الموجودة فى العالم ، والتى تعتمد فى وجودها الأول على الله — نستنتج من ذلك أن الله هو القوة الكبرى أو أكثر الموجودات جميعاً قوة — لأنها جميعاً إنما تستمد قوتها منه»[٢] .

ويبدو أن أوك فى هذا الموقف كان يعتمد اعتماداً كلياً على المبدأ القديم المستمد من فكرة العلية وهو (أن العلة تلخص جميع الصفات الموجودة فى المعلول وقد تزيد عليها ؛ فالله من حيث هو علة فاعلة لجميع الموجودات . لابد وأن تكون فيه جميع الصفات التى توجد فى هذه الأشياء — فإذا كان الإنسان فيه قوة على التفكير أو الحركة أو غير ذلك . فإن هذه القوة لابد وأن تكون موجودة فى العلة الخالقة لهذا الإنسان . لأن العلة التى تؤثر لابد وأن يكون لها من الحقيقة والكمال مقدار ما لمعلولها على الأقل[٣] وإذا كانت فى النار قوة تؤدى إلى احتراق الخشب أو سيولة الشمع . . . إلخ فإن الله وهو علة كل شىء لابد وأن تكون فيه هذه القوة موجودة فيه — وبشكل أكبر وأعم

---

(١) Essay, B. IV, ch. X, sec. 4, p. 528.

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) تأملات ديكارت ، التأمل الثالث ، صفحة ١٢٥ — ترجمة دكتور عثمان أمين — القاهرة ١٩٥١ .

مما هي موجودة في معلولاته .

والله – في فلسفة لوك – أعلم الموجودات وأكثرهم معرفة ،[١] لأنه من من المستحيل أن نتصور أن الأشياء الخالية من أي معرفة أو حكمة ، والعمياء عن أي إدراك أو فهم – يمكنها أن تنتج – أو أن تكون علة لموجودات عاقلة فاهمة واعية أي أن الطبيعة غير العاقلة لا يمكن أن تنتج العاقل ، وأن غير العارف يستحيل عليه أن ينتج العارف أو القابل للمعرفة – إن ذلك مستحيل عقلياً بنفس درجة الاستحالة الرياضية التي نحس بها حين نتصور أن المثلث قد زاد في حجم زواياه بحيث أصبح مجموعها أكبر من زاويتين قائمتين ، وعلى ذلك فالموجود الأول لابد أن يكون عالماً ، بل لابد أن يكون أكثر الأشياء علماً ومعرفة بصفة عامة[٢] .

والله موجود منذ الأزل – وليس هناك صدق أوضح من هذا ، لأنه من المستحيل عقلا وبداهة أن نتصور أن اللاوجود أو العدم المطلق أو الخلاء التام من أي صفة من صفات الوجود قادر على إحداث هذه الموجودات الواقعية المحسوسة[٣] – ولأن الموجود المادي البحت – غير العارف أو غير القادر على التفكير لا يمكنه أن ينتج شيئاً على الإطلاق . ولنتصور مثلا لذلك قطعة ما من أي مادة سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، ولنتصور أنها قديمة منذ الأزل – وحيدة في هذا العالم – ليس معها أي شيء آخر ، سنجدها لا يمكن أن تتغير بل ستبقى كما هي منذ القدم حتى النهاية شيئاً ميتاً لا حياة فيه ولا نشاط – إنها لا يمكن أن تتغير لأنها لا يمكن أن تتحرك ، وذلك لأنها لا تستطيع أن تنتج الحركة بنفسها ، بل لابد وأن تضاف إليها الحركة من الخارج – وهي ما دامت كذلك غير قادرة على الحركة فلن تكون قادرة على إنتاج أي شيء آخر ، وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون المادة غير العاقلة هي التي أنتجت

---

(١) Essay, B. IV, ch. X, sec. 5, p. 529.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) نفس المرجع السابق – صفحة ٥٣٠ .

الموجودات الأخرى العاقلة ، وما دام هناك نوعان فقط من الموجودات التى نعرفها حتى الآن – مادة غير عاقلة ، وموجودات عاقلة مفكرة – فلابد وأن يكون الموجود الواعى العاقل هو أساس هذا الموجود المادى غير العاقل أو غير الواعى[١] .

ويلجأ لوك فى مناقشته لهذه الفكرة إلى الفهم المشترك Common sense فيقول « أيها أقرب إلى التصديق – أن يكون الفكر هو خالق المادة – أم أن تكون المادة هى خالقة الفكر ؟ من الطبيعى أن يكون الموجود العاقل هو الأسبق من ذلك الموجود غير العاقل[٢] » .

(جـ) المعرفة بالأشياء الأخرى

أما فيما يتعلق بمعرفتنا بوجود الأشياء الأخرى ، فهى تعتمد أساساً على الإحساس إذ لا يمكن لأى إنسان أن يدرك وجود أى شىء من الموجودات الطبيعية إلا إذا كان لهذا الشىء الموجود تأثير خاص على الإنسان بحيث يجعل إدراكه ممكناً .

وعلى ذلك فلابد من الإحساس لمعرفة الموجودات الواقعية لأن الاقتصار على أفكار الإنسان الموجودة فى ذهنه لا يمكن أن تبرهن على وجود العالم الخارجى تماماً كما لا تدل صورة إنسان ما على أنه ما زال موجوداً فى هذا العالم[٣] .

ولذا فملاحظتنا للأفكار التى تتكون فى الذهن نتيجة عن الإحساس – هى التى تجعلنا ندرك ونلاحظ الأجسام الخارجية ، وتجعلنا نعرف أن هناك شيئاً موجوداً فى تلك اللحظة – خارجاً عنا – فى العالم الواقعى ، أدى إلى تكوين هذه الأفكار عنه فى الذهن بالرغم من جهلنا بالطريقة أو الكيفية التى تم بها ذلك[٤] .

وهى تعتبر معرفة يقينية لا يداخلها الشك ولا يفضلها فى درجة اليقين

---

(١) Essay, B. IV, ch. X, sec. 10, p. 531.

(٢) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٣) Essay, B. IV, ch. XI, sec. 1, p. 536.

(٤) Ibid, B. IV, ch. XI, sec. 2, p. 537.

إلا معرفة الإنسان بذاته أو بوجود الله[١] .

حقيقة إنها ليست على درجة اليقين الموجود فى المعرفة الحدسية أو البرهانية — إلا أن بها من اليقين أو الإثبات ما يكفى لكى يجعل منها معرفة .

ولذا فهى نوع من المعرفة يعتمد اليقين فيها على استحالة شك الإنسان فى وجود ما حوله من الأشياء التى يسمعها ويراها ويتذوقها ويلمسها[٢] .

والمسألة كما يرى لوك مسألة ثقة فى الإنسان وفى قدراته الوظيفية . فالمفروض أننى لا يمكن أن أتصور أن حواسى أو قدراتى الحسية تخدعنى لأننى إن لم أثق فيها ، فهذا معناه أننى فقدت ثقتى فى نفسى .

ولكن ما هو الدليل على أن هذه الأفكار نتجت عن إحساسنا بما هو موجود فى الواقع ؟ أليس من الممكن أن تكون خيالات وأوهاما ؟

يجيب لوك قائلا إن الدليل على ذلك يرجع إلى :

أولا : إن هذه الأفكار لا يمكن إلا أن تكون نتيجة لتأثر حواسنا بعوامل خارجية عنا أى موجودة فى الواقع الحسى — والدليل على ذلك — أن أى شخص فاقد لأى حاسة من حواسه (بمعنى أنها معدومة فيه أصلا . وليس بمعنى أنها كانت موجودة فيه ثم فقدت) . لا يمكنه على الإطلاق أن يكون فى عقله صورة ذهنية أو فكرة معينة مرتبطة بهذه الحاسة بالذات[٣].

ويبدو أن لوك قد تأثر إلى حد كبير فى هذا المجال بالفيلسوف الفرنسى جسندى[٤] الذى ذهب إلى « أن كل فكرة توجد فى عقل الإنسان إنما تتولد فى حواسه من قبل ، وعلى ذلك فالشخص المولود أعمى — لن يعرف اللون طالما كانت تنقصه حاسة البصر التى تؤدى إلى تكوين مثل هذه الفكرة فى العقل . . وهكذا بالنسبة لفكرة الصوت للأصم ، وكذلك بقية الحواس الأخرى — لدرجة

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٣) Essay, B. IV, ch. XI, sec. 4, p. 538.

(٤) فيلسوف فرنسى عاش بين عامى ١٥٩٢ ، ١٦٥٥ واشتهر باعتراضاته على فلسفة ديكارت وخاصه فى المكان والأفكار الفطرية ، وكان له تأثير كبير فى فلسفة جون لوك .

أن الشخص الفاقد لجميع حواسه لن يمكنه أن يكوّن فى ذهنه أى فكرة أو أن يتخيل أى شيء على الإطلاق »[١] . وقد أثر بالتالى فى هيوم فى هذا الصدد — فنرى هيوم يذهب إلى « أن من حرم حاسة . حرم بالتالى الأفكار التى كان يمكن أن تترتب على انطباعات تلك الحاسة المفقودة . فالأعمى لا يعرف ما هو اللون ، والأصم لا يعرف ما الصوت — ثم رد للأعمى بصره وللأصم سمعه تفتح لهما طريقاً جديداً تنساب إليهما منه أفكار لم يكن لهما بها عهد[٢] » .

ثانياً : أن هذه الأفكار تدل فعلا على أشياء فى الواقع بدليل أننا يمكننا أن نميز بوضوح بينها وبين الأفكار القائمة فعلا على التذكر — والإنسان يمكنه أن يفرق بين الصورة الذهنية عن الضوء أو الشمس مثلا حين يغمض عينيه ويحاول تصورها وبين الصورة المنطبعة فى الذهن حين تكون عيونه مفتوحة وهو ينظر إلى الشمس — إن الفرق واضح بين الحالتين بما لا يدعو للشك [٣].

ثالثاً : وبالإضافة إلى هذا يقول لوك « إن كثيراً من أفكارنا الحسية حين تتكون فى العقل — غالباً ما تكون مصحوبة بشعور خاص قد يكون بعض الألم أو بعض اللذة فإذا ما حاولنا تذكرها بعد ذلك يمكننا استرجاعها وإحياءها مرة أخرى فى العقل بدون هذا الشعور المصاحب » . . . وهذا دليل كما يقول لوك على أن هذه الأفكار ترتبط بالحواس وتعتمد عليها — لأنها إن لم تكن كذلك لما أحسسنا بذلك الألم المصاحب لأى منهما .

رابعاً : إن حواسنا كذلك تعتبر أكبر شاهد على ذلك — حين تؤكد كل حاسة بقية الحواس الأخرى فى تثبيت أفكارنا الحسية وتوضيحها عن الأشياء المحسوسة فمثلا — الشخص الذى يرى أمامه ناراً مشتعلة إذا ما شك فى وجودها وظن أن عينيه تخدعانه وتجعلانه يرى أشياء ليس لها وجود يمكنه أن يدركها أيضاً إذا وضع يده فيها وأحس بالألم حين تحرق يده ، وهو فى تلك اللحظة لن

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 37.

(٢) David Hume, An Enquiry concerning Human understanding sec. 2, p. 351 (speculative philosophers, New York, 1954).

(٣) Essay, B. IV, ch. XI, sec. 5, p. 538.

يشك فى وجودها الحقيقى ، ولن يتوهم بأن هناك من الأرواح ما تخدعه حين يرى يده وقد احترقت ، ويحس بالألم فيها — من هذا نرى أن حواسنا تكمل بعضها البعض وتؤكد بعضها البعض . ويعتبر كل منها شاهداً على صحة الأخرى [١].

وبعد هذه الأدلة السابقة جميعاً — يقول لوك « أما بالنسبة لمن لا يزال يشك فى حواسه — ولمن يعتقد أن كل ما نراه ونتذوقه ونحس به ونسمعه ونفكر فيه ليس سوى حلم لا يدل على أى واقع — فإننى أطلب منه أن يضع أصبعه على لهب مشتعل ، وأنا معتقد أن الألم الذى سيحس به ، والأذى الذى سيصيبه سيوقظانه من حلمه الطويل على يقين قوى أكثر بكثير مما كان يطلبه بالمناقشة والتخيل حتى يقتنع بوجود الأشياء الخارجية »[٢] .

وهذا اليقين الذى وجدناه فى معرفتنا الحسية — ضرورى جداً فى حياتنا اليومية ومعرفتنا بصفة عامة — إذ أن هذه المعرفة الحسية هى التى تبنى عليها وتقوم جميع أفكارنا البسيطة ، وبالتالى تلك المركبة .

إلا أن لوك يستدرك قائلا « إن هذه المعرفة لا يمكنها أن تصل إلى أبعد من الإحساس الفعلى ولا تزيد عليه »[٣] بمعنى أن معرفتى الحسية تعتبر مقصورة على ما أدركه بحواسى فقط .

ولذا يرى لوك أن مدى معرفتنا اليقينية محدود جداً بهذا الشكل لدرجة أننا لا يمكننا أن نعيش فى هذه الحدود ، ولذا فهو يلجأ إلى الاحتمال — لكى نستكمل به ما يعجز العقل عن معرفته[٤] .

إذ أن المعرفة اليقينية كما يقول لوك معرفة محدودة ، قصيرة المدى ، قليلة بحيث لا يمكن أن تشمل كل نواحى حياتنا العقلية — فالإنسان قد يعرف أحياناً

---

(١) نفس الموضع السابق — صفحة ٥٣٩ .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٥٤٠ .

(٣) Essay, B. IV, ch. XI, sec. 9, p. 540.

(٤) Aaron, R. I., John Locke, p. 247.

أشياء كثيرة ولكنه لا يكون متأكداً منها يقيناً ، بل تكون مصبوغة بصبغة الظن أو الاحتمال ، وذلك فى حالة عجزه عن البرهنة على صحتها . . فإذا كان العقل عاجزاً عن أن يعرف شيئاً ما معرفة برهانية أو حدسية — أو كان بمعنى آخر عاجزاً عن إيجاد البراهين الكافية للتدليل على يقينها . فإنه سيلجأ إلى الحكم أو الظن والاحتمال — أى تغليب صحة بعض الأفكار أو القضايا بدون أن يبرهن على ذلك عقلياً[١] . وهذا ما سأتناوله بالتفصيل .

ثالثاً : الاحتمال

ويعرفه لوك بأنه عبارة عن الميل إلى تصديق قضايا معينة أو أفكار خاصة على أنها حقيقية صادقة — بدون أن يكون لدينا عنها معرفة يقينية ، وهذا ما يفرق بين مجرد الاحتمال ، وبين المعرفة[٢] فى نظر لوك — لأن الفارق الأساسى بين الاحتمال واليقين ، بين مجرد الاعتقاد والمعرفة — هو ذلك الحدس الذى نراه ونتبينه فى كل خطوة وكل جزء من أجزاء المعرفة البرهانية[٣] .

وحيث إن الاحتمال لا يعتمد على الحدس الموجود فى المعرفة البرهانية ، فهو بالتالى سيكون شيئاً مكملا للمعرفة — وخاصة إذا ما عجز الإنسان عن البرهان أو عن بلوغ اليقين فى المعرفة .

ويلخص لوك الأساس الذى يقوم عليه الاحتمال فى حالتين :

أولا : تشابه أو اتفاق أى شىء مع ما نعرفه من خبرتنا أو ملاحظتنا[٤]

فإذا كانت لدى معرفة صادقة يقينية من قبل عن شىء ما وليكن (ا) — ثم وجدت وجهاً للشبه بين هذه المعرفة وبين هذا الذى أراه أمامى وليكن (ب)

---

(١) Essay, B. IV, ch. XIV, sec. 3, p. 554.

(٢) Essay, B. IV, ch. XV, sec. 3, p. 556.

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٥٥٧ .

فإننى سأميل إلى تغليب الصدق فى الحالة (ب) بناء على صدق (ا) .

وعلى ذلك فالصدق فى الحالة (ب) لن يكون يقينياً – بل محتملا ، ولو أن احتماله يكون بدرجة كبيرة – وأذكر هنا على سبيل المثال قول لوك « بأن معرفتنا بوجود الملايين من البشر الذين يعيشون فى أمريكا وألاسكا والهند ونيوفوندلاند تعتبر مجرد احتمال فقط ولا يمكن أن تكون معرفة يقينية [١] . » وذلك بناء على أننى لم أدرك هؤلاء الناس . إنما استنتجت احتمال وجودهم بناء على إدراكى لوجود الناس المحيطين بى والذين أعرفهم عن قرب . فإذا كان أمامى (ا) وغيره من الأفراد (ب ، ج) . . . إلخ وأمكننى أن أدركهم عن قرب . فإن معرفتى بهم تعتبر معرفة يقينية صادقة فى هذه الحالة ، ويمكننى أن أستنتج بناء على وجودهم احتمال وجود أناس كثيرين مثلهم فى البلاد البعيدة التى لم أرها من قبل – ومع أن درجة الاحتمال فى هذه الحالة تعتبر عالية جداً وكبيرة جداً ، – إلا أنها لا يمكن أن تصل إلى اليقين الذى يجب أن يتوفر فى المعرفة .

ثانياً : شهادة الآخرين – التى ترجع إلى خبرتهم أو تجربتهم الخاصة [٢] :

فإذا قال لى شخص ما إن القضية ا هى ب صحيحة – وكان هذا الشخص موضع ثقتى ، وأعرف أنه صادق فى كلامه – فإننى سأميل إلى تصديقه وبالتالى إلى احتمال الصدق فى تلك القضية أو فى هذا الحديث .

ولنضرب لذلك المثل السابق الذى ذكره لوك من أن وجود كثير من البشر فى أمريكا والهند أمر محتمل إلى درجة كبيرة بالرغم من عدم إدراكنا لوجودهم إدراكاً مباشراً – فإذا ذكر لى شخص أعرف أنه سافر إلى الهند مثلا أنه رأى هناك أناساً يعيشون فى الهند ، وكنت أعرف أنه شخص صادق ، ثقة فى حديثه – فإن احتمال وجود هؤلاء الناس سيزيد إلى حد كبير ، بالرغم من أنه

---

(١) نفس المرجع السابق – صفحة ٥٤١ .

(٢) Essay, B. IV, ch. XV, sec. 4, p. 557.

لا يزال بالنسبة للوك مقصوراً عن باوغ اليقين الذى يجب توفره فى المعرفة .

ويقول لوك كذلك « إننى إذا رأيت رجلا يمشى على الجليد — فإن هذا يعتبر معرفة ، ولا يمكن أن يكون احتمالا . أما إذا أخبرنى شخص آخر أنه رأى رجلا فى إنجلترا أثناء الشتاء الماضى يمشى فوق الماء الذى تجمد بفعل البرودة فإن هذا شىء يتمشى أو يتفق مع ما نلاحظ أنه غالباً ما يحدث فى مثل هذه الأوقات من الشتاء . ولذلك فإننى غالباً ما أميل إلى الموافقة على ذلك[١] .

فإذا كان هذا الشخص موضع ثقة بالنسبة لى ، وأعرف أنه دائماً ما يصدق فى حديثه — فإن احتمال الصدق فى هذا الحديث سيكون كبيراً فى هذه الحالة .

أما إذا كان هذا الكلام — قد أخبر به شخص ولد فى المناطق المدارية ، أى لم ير فى حياته قط ولا سمع مثل هذا الخبر — فإن كل الاحتمال فى هذه الحالة يتوقف على شهادة الشهود الذين أدركوا مثل هذه الواقعة . وكلما كان عدد الرواة أكثر ، وكلما كانوا موضع ثقة السامع — ويعرف عنهم أنهم لا يذكرون إلا الصدق — كانت درجة الاحتمال أكبر وكان الميل إلى تصديق الكلام أكثر .

إلا أن تناقض خبرة السامع مع تجربة أو خبرة المتحدث أو الشاهد غالباً ما تقال من تصديق الكلام — وبالتالى إلى تقليل درجة الاحتمال إلى ما هو أقرب إلى التكذيب منه إلى التصديق — مثل ما حدث لسفير هولندة الذى كان يروى لملك سيام أن الماء فى هولندة يتجمد أحياناً فى الجو البارد ويصبح شيئاً صلباً لدرجة أن الناس تمشى عليه . ولدرجة أنه يتحمل أن يقف أو يمشى عليه فيل لو وجد — فقال له ملك سيام (إننى كنت أصدق الأشياء الغريبة التى أخبرتنى بها من قبل ، لأننى كنت أنظر إليك على أنك رجل عاقل حكيم عادل — أما الآن فإننى على يقين من أنك كاذب)[٢] . »

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — نفس الصفحة .

درجات الاحتمال : وللاحتمال درجات بالنسبة للوك . وخاصة ذلك الذى يعتمد على شهادة الشهود واتفاق خبرة الآخرين مع خبرة الإنسان الشخصية ، وأهم درجات الاحتمال فى نظره هى :

أولا : أن اتفاق خبرة الآخرين مع خبرة الفرد الشخصية — تنتج نوعاً من الاحتمال القوى الذى يصل إلى نوع من التأكد يقترب من اليقين الذى يوجد فى المعرفة (وهذه فى نظره أعلى درجة من درجات الاحتمال) ويضرب لذلك مثلا بقوله : « إنه إذا أجمع كل الإنجليز — الذين أتيحت لهم فرصة الملاحظة — على أن الماء قد تجمد فى إنجلترا فى الشتاء الماضى ، فإن هذا يكون أقرب إلى الصدق وأبعد ما يكون عن الشك فيه بل ويكاد يقارب درجة الصدق الموجود فى قولى إن ٧ + ٤ = ١١ »[1] .

ثانياً : والدرجة التالية من درجات الاحتمال — هى التى تنتج عن اتفاق خبرة أغلب الناس مع الخبرة الشخصية حول شىء معين — ويضرب لذلك مثلا بقوله « إذا كان التاريخ يذكر لنا أن الناس فى جميع العصور غالباً ما تفضل مصلحتها الشخصية على المصلحة العامة . وإذا كنت أنا قد أدركت ذلك بخبرتى — فإن احتمال الصدق فى هذه الحالة سيكون كبيراً[2] » .

ثالثاً : والدرجة التى تلى ذلك من درجات الاحتمال — ليست هى التى تنتج عن إجماع الناس كما هو فى (أولا) ولا عن اتفاق أغلب الناس وتمشى ذلك مع ما أدركه بخبرتى الشخصية كما هو فى (ثانياً) بل هو :

(ا) ما يرجع إلى قول الرجال الثقة — أى الذين لا نشك فى قولهم ، ونعرف أنهم يقولون الصدق مثل قول رجال التاريخ « أنه كان هناك فى إيطاليا منذ حوالى ١٧٠٠ سنة رجل يدعى يوليوس قيصر ، كان قائداً انتصر فى حرب ضد آخر يدعى بومبى . . » فهذا قول نعتمد فى احتمال تصديقه على الثقة فى رجال التاريخ الذين تناقلوا هذه الرواية واحداً بعد الآخر .

---

(١) Essay, B. IV, ch. XVI, sec. 6, p. 561.

(٢) Ibid, B. IV, ch. XVI, sec. 7, p. 562.

(ب) أو ما يرجع إلى ما يمكن أن يحدث بلا قصد مثل القول « بأن هذا الطائر سوف يطير فى هذا الاتجاه أو ذاك » أو « أن السماء سترعد من ناحية اليمين أو اليسار[١] » . ويذكر لوك أنه بجانب هذه القضايا السابقة جميعاً — التى لا تزيد عن مجرد الاحتمال مهما بلغت قوته ، هناك نوع من القضايا التى تتحدى كل نوع من أنواع الإجماع ألا وهى القضايا التى يكشفها الله للعقل الإنسانى — أى الوحى — revelation وهى لا يمكن الشك فى صدقها بأى حال .

رابعا : العقل

لما كانت المعرفة عند لوك تتوقف على إدراك ما بين الأفكار من تشابه أو اختلاف وخاصة عن طريق البراهينProofs أو الأفكار المتوسطة كما هو الحال فى المعرفة البرهانية ، فإن العقل يعتبر هو القوة التى يمكن للإنسان بواسطتها أن يجد أو يكتشف هذه الأفكار المتوسطة ، التى قد تربط بين أفكاره بحيث تؤدى إلى اليقين أو إلى مجرد الاحتمال والظن[٢] .

ويرى لوك أن هناك ٤ مراحل أو درجات للعملية العقلية الإنسانية :

١ — وهى أعلى درجات التعقل — اكتشاف البراهين (أى الأفكار المتوسطة) .

٢ — تنظيم هذه الأفكار المتوسطة بطريقة واضحة ومناسبة لتسهيل إدراك ارتباطها بغيرها من الأفكار .

٣ — إدراك الروابط بينها وبين بقية الأفكار الأخرى .

٤ — استنتاج النتائج الصحيحة[٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) Essay, B. IV, ch. XVII, sec. 2, p. 567.

(٣) Ibid, B. IV, ch. XVII, sec. 3, p. 568.

أسباب الخطأ فى التعقل :

١ – نقص البراهين أو الأفكار المتوسطة – أى قلة الأفكار الموجودة فى الذهن – والتى يمكن أن تكون وسيلة لربط بقية الأفكار الأخرى – وقد يرجع عدم تزود عقول الناس بكثير من هذه الأفكار إلى انشغالهم فى أمور حياتهم أو صراخ أطفالهم ، مما يبعدهم عن عمليات التعقل السليمة .

٢ – أو إلى عدم المهارة فى استعمال هذه الأفكار المتوسطة إن وجدت .

٣ – أو إلى عدم وجود الإرادة لاستخدامها – حتى لو توفرت المهارة .

٤ – أو إلى مقاييس الاحتمال الخاطئة وهذه قد ترجع إلى[١] :

(ا) استخدام القضايا المحتملة الشك – كمبادئ أولية – مثل القضايا ، وخاصة المتعلقة بالدين التى يتلقاها الأطفال منذ صغرهم من الوالدين أو المربين فتظل فى عقولهم حتى يكبروا وهم يستخدمونها كمبادئ أولية ثابتة مطلقة صحيحة لا يمكن الشك فى صحتها .

(ب) تقبل الافتراضات[٢] .

(ج) العواطف والإحساسات السائدة (فمثلا إذا ذكرت لرجل يحب بعاطفة جارفة – أنه مخدوع فى حبه – وأحضرت له شاهدين على خيانة حبيبته – فإنه سيزول من ذهنه كل شك إذا ما قالت له حبيبته بضع كلمات قليلة تبطل بها كل معنى للشك فى نفسه)[٣] .

(د) قوة السلطة – ويقصد بها لوك أن الإنسان غالباً ما يخلع موافقته على الأفكار أو القضايا الشائع استعمالها – سواء بين أصدقائه أو جماعته أو جيرته أو وطنه[٤] .

---

(١) Ibid, B. IV, ch. XX, sec. 5, p. 599.

(٢) Essay, B. IV, ch. XX, sec. 11, p. 602.

(٣) نفس الموضع السابق – صفحة ٦٠٣ .

(٤) نفس المرجع السابق – صفحة ٦٠٦ .

تأثير لوك فيمن عاصره أو جاء بعده

من الاعتبارات التي يجب أن ندخلها في تقديرنا عندما نتحدث عن أهمية فيلسوف ما — ذلك الأثر الذي يتركه فيمن يأتي بعده من الفلاسفة والمفكرين. سواء أكان هذا التأثير إيجابياً — فيسير الفكر الجديد في نفس الاتجاه الذي سار فيه الفيلسوف من قبل. مثل تأثير سقراط في أفلاطون . . . أم كان هذا الاتجاه عكسياً كأن يصبح الفكر الجديد رد فعل لما ذهب إليه الفيلسوف من نظريات أو لما توصل إليه من نتائج. مثل تأثير السوفسطائيين في أفلاطون.

ومما لا شك فيه أن لوك قد أثر تأثيراً كبيراً في الفكر الفلسفي — لا لأنه يعتبر أول من درس مشكلة المعرفة دراسة منفصلة مستقلة، وأفرد لها بحثاً خاصاً هو كتابه « محاولة في العقل البشري » — بل لتطبيقه المنهج التجريبي على بحثه في مشكلة المعرفة. ولذا فهو يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ الفلسفة أعقبته عدة اتجاهات أهمها ثلاثة: اتجاه حسي، اتجاه عقلي، اتجاه نقدي — وسأتناول هذا الأثر الذي تركه لوك فيمن جاء بعده من هذه الزوايا الثلاث.

أولا : تأثير إيجابي : — يتمثل في اتجاه فلسفي تناول تجريبية لوك وعمقها وطورها حتى وصل بها إلى نتائج قد تختلف أحياناً عما ذهب إليه لوك في فلسفته. مثل الفلسفة الحسية عند هيوم وكوندياك، التجريبية المتطرفة عند وليم جيمس، فلسفة الظاهريين وعند برتراند رسل.

ثانياً : تأثير عكسي : — يتمثل في اتجاه فلسفي معارض تناول تجريبية لوك بالنقد منتهياً إلى عقلية متطرفة — وسأتناول ليبنتز كمثل لهذه الفلسفة العقلية مقارناً إياه بلوك في ضوء ما بينهما من تشابه أو اختلاف.

ثالثاً : اتجاه نقدي — حاول أن يوفق بين الاتجاهين المتضادين — الاتجاه

الحسى من ناحية والعقلى من ناحية أخرى ، وخير من يمثله كانت بفلسفته المثالية النقدية ، وسأعقد مقارنة بينه وبين لوك خاصة فى تسليم كل منهما بضرورة الاعتماد على الحس والعقل معاً بالنسبة لعملية المعرفة .

أولا : التأثير الإيجابى المباشر

ويتمثل فى :

(ا) فولتير : الذى تأثر بالاتجاه التجريبى عند كل من لوك ونيوتن — معارضاً بذلك فلسفة ديكارت العقلية — فأخذ عن الأول منهجه التجريبى وفلسفته التحليلية للعقل الإنسانى[١] ، وأخذ عن الثانى منهجه العلمى وطريقة تفسيره للظواهر الطبيعية — ويبدو تأثر فولتير بلوك فى ثلاثة مواقف :

١ — اقتناعه بضرورة الاتجاه التجريبى الذى يناسب العلم الحديث وخاصة حين ذهب إلى أن كل ما يمكن أن يوجد فى العقل الإنسانى مرجعه الإحساس[٢] ولذا فالتجربة الحسية هى أصل المعرفة عند فولتير .

٢ — وحيث إن فولتير لا يشك فى أن ما هو موجود فى العقل إنما يستمد أصله من الإحساس[٣] ، فلا يمكن أن تكون هناك أفكار فطرية موجودة فى الذهن قبل التجربة الحسية — وهو فى هذا متأثر بنظرية لوك فى رفضه للأفكار الفطرية — معارضاً بذلك ديكارت والفلسفة العقلية .

٣ — إنه مثل لوك — لم يكن فيلسوفاً حسيًّا — إذ قد آمن ببعض القضايا الميتافيزيقية بالرغم من اتجاهه العلمى التجريبى ، مثل قوله إن الماهية الحقيقية للأشياء شىء غير معروف — فيقول فى القاموس الفلسفى « إن الله قد وهبك العقل

---

(١) Paul Janet & Gabriel Seaille, Histoire de la philosophie, p. 1047.

(٢) Hoffding, H., A History of Modern Philosophy, Vol. 2, p. 459 (Doiver edition, U.S.A., 1955).

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٦٠ .

أيها الإنسان لكى تعدل به من سلوكك وتحسن من تصرفك لا لكى تبحث به فى ماهية الأشياء التى خلقها »[١] .

على أساس أن العقل غير قادر على كشفها . وهو فى هذا متأثر برأى لوك فى أن جوهر الأشياء أو ماهيتها الحقيقية شيء غامض مجهول . ولذا فيجب على الإنسان أن يعرف حدود عقله فلا يبحث إلا فيما هو داخل هذه الحدود .

(ب) كونديلاك : — [٢] ويبدو تأثير لوك فى الفيلسوف الفرنسى الحسى كونديلاك واضحاً وخاصة فى كتابه « مقالة فى أصل المعرفة الإنسانية » الذى ظل فيه مخلصاً لاتجاه لوك التجريبى وأفكاره الفلسفية — إلا أنه عاد وخالف رأى لوك فى كتابه « الإحساس » فى اتجاهه التجريبى لأنه أصبح فيه أقرب إلى الناحية الحسية منه إلى النزعة التجريبية — وذلك حين أنكر على العقل وظيفته الإيجابية التى قال بها لوك ، زاعماً أن كل أفكارنا ، بل جميع قدراتنا ووظائفنا الحيوية تعتمد أساساً على الحس فقط — وعلى ذلك فالإحساس هو الأساس الأول فى جميع وظائفنا الحيوية[٣] .

(حـ) بركلى وهيوم : — إلا أن تأثير لوك فى كونديلاك كان أقل أثراً من تأثيره فى الفيلسوف الحسى الإنجليزى دافيد هيوم (سنة ١٨٠٤) إذ أن الأخير أخذ عن الأول اتجاهه التجريبى وعمل على تطويره حتى وصل به إلى آخر مداه بلا تحفظ ولا تقييد[٤] . فهو يسير فى كتابه « رسالة فى الطبيعة البشرية »[٥] فى نفس الطريق الذى سار فيه لوك من قبل فى كتابه « مقالة فى العقل البشرى » من حيث رفضه لكل معرفة فطرية أولية ، قائلا إن أى معرفة تعتمد أساساً على التجربة — إلا أن معنى التجربة عند هيوم أضيق بكثير من معناها عند لوك لأنه

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) يعتبر كونديلاك (+ ١٧٨٠) خير من يمثل الفلسفة الحسية فى فرنسا فى القرن السابع عشر وأهم مؤلفاته « الإحساس Traité des Sensations » ومقالة فى أصل المعرفة الإنسانية .
"Essai sur l'origine des Connaissances Humaines."

(٣) Paul Janet & Gabriel seaille, Histoire de la Philosophie, pp. 1048-1049.

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ١٠٤٥ .

(٥) A Treatise of Human Nature, 1738.

اعترف بجانبها الحسى فقط ، وأهمل جانبها العقلى الذى اعترف به لوك — وأنكره عليه كونديياك من قبل . . لذلك فهيوم ينكر أن يكون للعقل نشاط إيجابى لأن وظيفته مقصورة على مجرد تلقى الانطباعات الحسية التى وصلت إليه من الخارج — إذ أن الانطباعات تؤثر فى الذهن فتنطبع صورها فيه — فإن كان هذا الانطباع قوياً ، سميت إحساساً — وإن كان ضعيفاً — بمرور الوقت مثلا ، سميت أفكاراً . إذ أن الفكرة إدراك ضعيف عند هيوم[١] وهو فى هذا يخالف لوك . أما كيف تتم المعرفة عنده فذلك يتوقف على قوانين تداعى المعانى التى تترابط بناء عليها آلياً الانطباعات الموجودة فى الذهن[٢] ولذلك فهيوم ينكر أفكارنا عن الجواهر التى ذكرها لوك قائلا « إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء نسميه بالجوهر بحيث يختفى وراء المظاهر الحسية التى تؤدى إلى تكوين الانطباعات فى أذهاننا » وهى نفس النتيجة التى توصل إليها بركلى بالنسبة للجوهر المادى .

ويبدو أثر لوك فى بركلى وهيوم كبيراً حين رد جميع أفكارنا سواء البسيط منها أو المركب إلى الإحساس — مردداً نفس عبارة أرسطو الشهيرة « أن لا شىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الإحساس » .

إذ أن بركلى سار على نهج لوك — فرد المعرفة الإنسانية كذلك إلى مجموعة من الإحساسات . . لكن بمعنى أن الشىء الخارجى ليس سوى مجموعة من الإحساسات تعرضها علينا التجربة[٣] .

وهذا هو ما يفرقه عن لوك . فالأشياء الخارجية بالنسبة للوك أو الموضوعات الحسية موجودة فى الخارج ، ولذلك فنحن ندركها ، ونكوّن بناء على إحساساتنا بها — أفكاراً بسيطة . بينما الأمر على خلاف ذلك بالنسبة لبركلى — إذ أن الأشياء الخارجية موجودة لأننا ندركها[٤] ، وذلك لأننا لا ندرك بحواسنا الأشياء ذاتها —

---

(١) ديفيد هيوم — للدكتور زكى نجيب محمود — سلسلة نوابغ الفكر الغربى رقم ٧ ، القاهرة ١٩٥٨ ، صفحة ٣٥ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم — القاهرة ١٩٤٩ ، صفحة ١٦٥ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ١٦٠ .

(٤) Jessop, T.E., Berkeley — philosophical writings. p. 50, London 1952. فى مجموعة نلسون .

بل ندرك صفاتها أو كيفياتها كالألوان والأصوات ، وهذه كلها عند بركلى عقلية أو موجودة فى العقل[١] . ولذا فالموجودات الخارجية أى موضوعات الحس ليست سوى هذه المدركات perceptions أو الأفكار الموجودة فى الذهن[٢] . وبناء على ذلك فلا يمكن أن يكون هناك محل لوجود فكرة للجوهر المادى الذى لا يمكن إدراكه ، وهو فى هذا الصدد يقول : « إن الشيء الذى ننكر وجوده تماماً هو ما يسميه الفلاسفة باسم الجوهر المادى أو الجسمى »[٣] . ويؤكد هذا المعنى على لسان فيلونوس قائلا « إنه لا يوجد أبداً مثل ذلك الشيء الذى يسمونه بالجوهر المادى »[٤] طالما كان هذا الجوهر لا يمكن إدراكه[٥] . وطالما كان الوجود متوقفا على الإدراك بالنسبة لبركلى .

إلا أن بركلى يتفق مع لوك فى أنه لم ينكر وجود الجوهر الروحى – بل أثبته وأكد وجوده كعلة لوجود أفكارنا . وهو فى هذا الصدد يقول : « إن هذه العلة لا يمكن أن تكون صفة ، ولا فكرة ، ولا مركباً من مجموعة من الأفكار – ولذا فيجب أن تكون جوهراً وطالما ليس هناك جوهر مادى أو جسمى – فلن يبقى إلا أن تكون جوهراً نشطاً غير جسمى هو النفس »[٦] هو جوهر خالد غير فان[٧] ويعرفه بركلى بأنه شيء غير منقسم ولا ممتد يفكر ويعمل ويدرك[٨]...

---

(١) Russell, B., A History of Western Philosophy, p. 677.

(٢) Berkeley, G., A Treatise concerning the principles of Human Knowledge (in Nelson's edition : Berkeley — philosophical Writings) part I, sec. 34, p. 66.

(٣) Ibid, part I, sec. 35, p. 66.

(٤) Berkeley, G., Three Dialogues between Hylas and Philonous, First dialogue, p. 117. (مجموعة نلسون – بركلى ، كتاباته الفلسفية) .

(٥) Berkeley, G., A Treatise Concerning the principles of Human Know Ledge, part I, sec. 18, p. 57.

(٦) Ibid, part I, sec. 26, p. 62.

(٧) Ibid, part I, sec. 142, p. 107.

(٨) Leslie Paul, The English philosophers, p. 136.

أما الله فهو الجوهر الروحى المطلق الكامل[١] .

ويشترك هيوم مع كل من لوك وبركلى فى أن الإحساس أساس للمعرفة فيقول « إن مبدأ سبق الانطباعات للأفكار هو أول مبدأ يضعه فى علم الطبيعة البشرية [٢]» ولذلك فهو يذكر « أنه من المستحيل علينا أن نفهم فكرة ما دون أن نردها إلى أصلها ونفحص الانطباع الأول الذى صدرت عنه »[٣] .

إلا أنه لم يكتف بذلك فقط ، بل وصل إلى نتائج تتفق مع ما بدأ به من مقدمات — مخالفاً بذلك كلاً من لوك وبركلى — فنراه يرفض الجوهر المادى الذى نادى به لوك وأنكره بركلى ، بل وكذلك الجوهر الروحى أو النفس التى سلما بوجودها . . فيقول فى الفصل الخاص بالفلسفة القديمة فى كتابه « رسالة فى الطبيعة البشرية » « إن هناك كثيراً من الفلاسفة القدامى كانوا يذهبون إلى تأكيد أو إثبات وجود شىء ثابت ، مجهول ، غير منقسم — افترضوا وجوده وراء كل تغير فى خصائص أو صفات الموجودات الطبيعية . . ذلك الشىء الخفى هو ما يسمونه بالجوهر . أو بالمادة الأولى الأصلية »[٤] .

وهيوم يرفض وجود الجوهر المادى ويفسر ذلك فيقول « إن العادة التى جعلتنا نستدل على وجود علاقة بين العلة والمعلول — هى نفس العادة التى تجعلنا نستدل على وجود الجوهر من الصفات الموجودة فى الأشــياء »[٥] . فى حين أننا لو استبعدنا هذه الصفات الحسية من موضوعات الحس لما بقى هناك فى العالم أى شىء يسمى الجوهر[٦] . ذلك الجوهر المجهول الذى افترضوا وجوده كحامل

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ١٣٥ .

(٢) فلسفة هيووم بين الشك والإعتقاد — للدكتور محمد فتحى الشنيطى — القاهرة ١٩٥٦ صفحة ٦٦ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٨٧ .

(٤) Hume, D., A Treatise of Human Nature (Everyman's Library No. 548) Vol. one, : B. I, part IV, sec. III, p. 211.

(٥) Ibid, B. I, part IV, sec. III, p. 213.

(٦) Ibid, B. I, part IV, sec. IV, p. 221.

لتلك الصفات الخفية Occult Qualities [١] وهو يرفض كذلك وجود الجوهر الروحى أو النفسى قائلا فى الفصل الخاص بالفلسفة الحديثة من نفس الكتاب السابق « إن هناك بعض الفلاسفة يتصورون أننا نشعر فى كل لحظة شعوراً قوياً واضحاً بما نطلق عليه اسم النفس Self — نشعر بوجودها وباستمرار ذلك الوجود — ولذلك فنحن نتأكد دائماً بما لا يحتاج إلى دليل من كمال ذاتيتها وبساطتها »[٢] .

إلا أن هيوم يرفض ذلك الرأى ويقول إن ذاتية النفس أو جوهريتها شىء وهمى، ويشرح ذلك قائلا « أما عن نفسى — فإننى إذا ما توغلت فى هذا الذى أسميه (نفسى) توغلا أحاول أن أكون على صلة مباشرة بها — فلا أرانى إلا عاثراً على هذا الإدراك الجزئى أو ذلك ، كأن أقع على إدراك الحرارة والبرودة ، أو النور والظل أو الحب والكراهية أو الألم واللذة — ولم أستطع قط أن أمسك بنفسى فى أية لحظة من اللحظات دون أن تكون هناك حالة إدراكية معينة — ثم لم أستطع أبداً أن ألحظ فى نفسى إلا تلك الحالة الإدراكية وحدها — فإذا ما زالت إدراكاتى لفترة معينة — كما يحدث مثلا فى حالة النوم العميق ، فإنى لا أكون عندئذ على وعى بنفسى حتى ليمكن حقاً أن يقال عنى إنى لست موجوداً — ثم لو زالت كل إدراكاتى بالموت بحيث لا يعود فى مستطاعى أن أفكر أو أن ألمس أو أن أبصر أو أن أحب أو أكره بعد تحلل جسدى فإننى عندئذ أكون قد محيت محواً كاملا[٣] . فإذا زعم لى زاعم بعد هذا أنه يختلف معى فى الرأى وأنه يستطيع أن يجد له نفساً غير الإدراكات الجزئية التى تعرض له ، فإننى أعترف بأننى عاجز عن المضى معه فى حجاج عقلى ، وكل ما أسلم به له هو أنه قد يكون على صواب كما قد أكون أنا على صواب — وأننا مختلفان جوهرياً فى هذا الموضوع ، وأنه قد يكون مدركاً لشىء متصل الوجود بسيط التكوين — يقول عنه إنه نفسه —

---

(١) Ibid, B. I, part IV, sec. III, p. 213.

(٢) Ibid, B. I, part IV, sec. VI, p. 238.

(٣) Ibid, B. I, part IV, sec. VI, p. 239.

أما أنا فلست أشك فى أننى لا أجد عندى شيئاً كهذا »[١].

وعلى ذلك فالموضوعات الحسية ليست سوى مجموعة أو حزمة من الكيفيات المحسوسة طالما ليس هناك جوهر مادى ، وكذلك فالعقل ليس سوى مجموعة أو حزمة من المدركات — طالما ليس هناك جوهر روحى أو نفسى[٢].

وهيوم برفضه لفكرة الجوهر سواء المادى منه أو الروحى — يعتبر فى الواقع من أكبر الدعاة للمذهب الظاهرى[٣] ولم يكن ذلك كله من هيوم إلا تطويراً للاتجاه التجريبى ودفعاً له إلى آخر الطريق[٤] فكمل بذلك تجريبية لوك ، إن لم يكن قد صفاها مما يشوبها من أدران متافيزيقية — ولذلك يمكننا أن نقول بحق مع جرين T.H. Green إن فلسفة هيوم هى دون نزاع الكلمة الأخيرة فى فلسفة لوك[٥] وسأعود لمناقشة هذا الرأى أثناء الحديث عن التجريبية المتطرفة عند وليم جيمس .

(د) **برتراند رسل :** ويعتبر رسل خير من يمثل الاتجاه الظاهرى فى الفلسفة التجريبية الحديثة — من حيث هى امتداد للتجريبية الإنجليزية التى بدأها فرنسيس بيكون وجون لوك ، مطوراً إياها إلى نوع من التحليل يرد موضوعات الفلسفة إلى الأوليات البسيطة التى تتألف منها — حتى لا تتعدد الكائنات التى نفترض وجودها كمقومات للعالم — وذلك بحذف ما لا تستدعيه الضرورة إلى أن ننتهى إلى الحد الأدنى من المقومات التى لابد من افتراضها لنفسر بها العالم[٦] — معتمداً فى ذلك على مبدأ وليم الأوكامى المعروف بنصل أوكام O'ccam's Razor والقائل « إنه لا يجوز لنا أن نكثر من الكائنات بغير ضرورة تدعو إلى ذلك »[٧].

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) Basson A.H., David Hume, p. 137 (London, 1958, Pelican B.).

(٣) Paul Janet & Gabriel Seailles Histoire de la Philosophie, p. 1045.

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٥) فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، للدكتور محمد فتحى الشنيطى ، صفحة ٣٨ .

(٦) برتراند رسل ، للدكتور زكى نجيب محمود — سلسلة نوابغ الفكر الغربى رقم ٢ ، القاهرة ١٩٥٦ — صفحة ٧٠ .

(٧) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

ومن هذه الكائنات الميتافيزيقية الواجب حذفها بالنسبة لرسل — لاستحالة وقوعها فى الخبرة المباشرة — تلك العناصر التى افترض الفلاسفة أنها قائمة فى الأشياء لتلتف حولها ظواهر تلك الأشياء ، والتى تعتبر بمثابة الحقيقة الثابتة للأشياء فى مقابل ظواهرها المتغيرة .

وتطبيقاً لمبدأ أوكام — يرى رسل الاكتفاء فى تفسيره للعالم بمجموعات ظواهره مستغنياً عن العنصر أو الجوهر أو النواة التى يفرض وجودها فى كل شىء « ليسهل تصوره (شيئاً) متصل الوجود »[١].

فمثلا إذا قلت « إن هناك منضدة أمامى — وافترض فيها أنها شىء مادى على درجة تزيد أو تقل من الثبات والدوام — فهى اليوم ما كانت بالأمس وما ستكون غداً — ثم تساءلت عما يأتينى منها فى تيار خبرتى المباشرة — سأجد أن كل ما يأتينى منها لمعات متلاحقة من اللون تختلف درجة لمعانها باختلاف الضوء الساقط عليها — وباختلاف وقفتى منها ، ودرجات من الصلابة أحسها حين أضغطها بأصابعى ، ودرجات من الصوت أسمعها إذا ما نقرتها بيدى أو بغيرها وهكذا . . . إلى آخر هذه المعطيات الحسية التى تأتينى من المنضدة فى خبرتى المباشرة — متتابعة فى مجموعات تختلف بعضها عن بعض كثيراً أو قليلا »[٢] . . والتى افترض الفلاسفة أن وراءها جوهراً خفياً مجهولا . يعتبر بمثابة الركيزة (Substratum) التى ترتكز عليها صفات الأشياء ، أو مظاهرها[٣] . فإذا ما تساءلنا عن معنى المنضدة عند رسل تطبيقاً لنصل أوكام . فلن نجدها سوى ظاهراتها الحسية تتجمع فى مجموعات لا يربطها رباط سوى (وجهة النظر) إليها[٤] . وهو مضطر إلى الاكتفاء بهذه الظاهرات ما دام يحدد نفسه بحدود خبرته المباشرة لأن هذه الظاهرات وحدها هى التى تجىء عن طريق الخبرة المباشرة —[٥] . وكما ذهب

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٧٦ .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٧٥ .

(٣) نحو فلسفة علمية ، للدكتور زكى نجيب محمود — طبعة أولى ١٩٥٨ ، صفحة ٢٤٤ .

(٤) Russell, B., The Analysis of Mind, p. 98 (London 1952, 5th. impression, Unwin edition).

(٥) برتراند رسل ، للدكتور زكى نجيب محمود — صفحة ٧٦ .

رسل إلى استبعاد فكرة الجوهر المادى ، انتهى إلى نفس النتيجة بالنسبة للجوهر الروحى أو الذات الإنسانية التى يعتبرها فرضاً لا ضرورة له ما دام التزامنا بالمعرفة اليقينية يقتضينا أن نقف عند الخبرة الحسية المباشرة ، وليس فى هذه الخبرة المباشرة (ذات) بل كلها معطيات حسية تأتينا من الخارج[١] دون عنصر أو جوهر نفرض وجوده داخل كيان الإنسان لمسك تلك الظاهرات الجزئية فى فرد واحد له وجود متصل ثابت — إذ أن نصل أوكام الذى نبتر به هذه الكائنات الزائدة التى نسرف فى افتراضها يقتضى التخلص من هذه الفروض التى ليس لها ضرورة منطقية تقتضيها[٢] ، وهى نفس النتيجة التى توصل إليها تقريباً هيوم من قبل بإنكاره لفكرة الجوهر — وذلك نتيجة لتطوير البداية التجريبية التى بدأ بها لوك تطويراً دفع بها إلى نتائج تتفق مع المقدمات التجريبية — وخير من يمثل نهاية الطريق التجريبى الذى بدأه لوك هو وليم جيمس .

(ه) وليم جيمس : فكما كانت الفلسفة التجريبية الحديثة امتداداً للتجريبية الإنجليزية وخاصة عند لوك — كذلك يمكننا اعتبار الفلسفة التجريبية المتطرفة امتداداً طور فيه وليم جيمس التجريبية الإنجليزية تطويراً اتفق فيه معها فى المقدمات ، إلا أنه اختلف عنها فى النتائج .

فالتجريبية المتطرفة تذهب إلى أن كل مناقشة فلسفية يجب أن تنحصر فى موضوعات مما يقع فى الخبرة البشرية[٣] — حقيقة إنه قد يكون فى الكون ما لا يقع للناس فى خبراتهم ، لكن حديثنا عنه عندئذ يصبح بغير معنى . . ولذا فوليم جيمس لا يدعى أن وجود الشىء متوقف على خبرتنا به — بل يذهب إلى أن الشىء لا يكون مفهوماً لنا ، أو ذا دلالة فى حديثنا عنه إلا إذا كان جزءاً فعلياً أو ممكناً من أجزاء الخبرة الإنسانية ، وهو لو كان قد توقف عند هذا الحد — لكان على اتفاق مع التجريبية الإنجليزية — لأنهم يرون أن ما يستطاع معرفته هو الذى

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٧٧ .
(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٧٦ .
(٣) حياة الفكر فى العالم الجديد — للدكتور زكى نجيب محمود ، صفحة ١٨٤ .

يقع فى حدود خبرات[١] الإنسان . إلا أنه لا يقف عند هذا الحد فقط – بل يمضى ويقرر حقيقة – هى التى ميزت تجريبيته وجعلتها تجريبية متطرفة كما أسماها – وهذه الحقيقة أننا حين ندرك أشياء العالم بالخبرة المباشرة ، فإننا ندرك الأشياء وما يربطها من علاقات – فالعلاقات القائمة بين الأشياء هى كالأشياء نفسها مما ندركه فى عناصر الموقف الذى يتاح لنا أن ندركه ، وليست هى كما كان الظن من صناعة عقولنا[٢] ولا هى شىء خارج عن طبيعة الموقف جاءه من أعلى ، بل هى جزء منه لا يتجزأ – يدركه الإنسان أو يدرك الموقف بكل ما فيه من عناصر : أشياء وعلاقات – بمعنى أن العلاقات تدرك فى الخبرة المباشرة كالأشياء المرتبطة بتلك العلاقات سواء بسواء[٣] .

وهو فى هذا مختلف عن لوك – إذ أن العلاقة بالنسبة للوك مجرد رابطة ذهنية من صنع العقل وليس لها وجود فى الواقع – فإذا قلت – إن الكتاب فوق المنضدة – فليس هناك فى الواقع الحسى سوى كتاب ومنضدة فقط ، بينما لا توجد فى الخارج فوق أو تحت أو أعلى أو أسفل إلخ . .

كما أن العلاقة ليست إلا مجرد صفة تضاف للجوهر – إلا أنها لا تكون جزءاً من ماهيته[٤] ، بمعنى أننى إذا قلت إن (ا) والد (ب) – فهذا يعنى أن (ا) يتصف بصفة تجعله يرتبط بابنه بعلاقة ما هى علاقة الأبوة – إلا أننا نلاحظ أن (ا) لم يزد عليه شىء ولم تتغير ماهيته عما كانت عليه بعد أن أصبح والداً ، كما أنها لن تتغير بعد أن يموت ابنه ويصبح بلا ابن – إذ أن ماهية (ا) هى هى لم تتغير . فإذا ما جاء وليم جيمس ليقول إن الإنسان يدرك العلاقات إدراكاً مباشراً مع الأشياء نفسها المرتبطة بتلك العلاقات – يكون قد سار بتجريبيته خطوة أخرى بعد التجريبية الإنجليزية ، وخاصة تجريبية لوك التى قصرت المشاهدة على (الحالات) المتقطعة المتجزئة وحدها ثم جعلت العلاقات التى تربطها تتم فى

---

(١) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ١٨٥ .

(٣) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .

(٤) Essay, B. II, ch. XXV, sec. 8, p. 236.

الداخل ، ولا تأتى مع بقية المدركات من خارج . . ومن ثم كانت تجريبية وليم جيمس تجريبية متطرفة [١] . من كل ما سبق يمكننا القول إن تجريبية لوك كانت مرحلة متوسطة مهدت إلى الاتجاه الحسى عند كونديلاك وهيوم ، كما كانت مرحلة انتقال ضرورية لابد منها للتمهيد لظهور التجريبية الحديثة ، والتجريبية المتطرفة فى الفلسفة .

ثانيا : التأثير العكسى

تعتبر فلسفة ليبنتز Leibniz العقلية امتداداً تطوريـاً للاتجاه العقلى عند ديكارت بقدر ما هى رد فعل مباشر للاتجاه التجريبى الذى بدأه بيكون وطبقه لوك فى بحثه فى نظرية المعرفة فى القرن السابع عشر — ولذلك فقد كان التعارض بين كل من لوك وليبنتز واضحاً فى الموضوعات التى تبدو فيها تجريبية لوك ظاهرة وخاصة فى الكتابين الأول والثانى من « مقالته فى العقل البشرى » مثل إنكاره للأفكار الفطرية أو المعرفة الأولية بمعنى أسبقيتها على الإحساس .

إلا أنه بالرغم من هذا التعارض الموجود بينهما — يمكننا أن نلحظ تشابههما أو اتفاقهما بالنسبة لبعض المشكلات الفلسفية مثل فكرة الجوهر ، وفكرة العلاقات ، ومعنى المعرفة البرهانية ، والمجال الذى يمكن استخدامها فيه — وهى تقريباً نفس الموضوعات التى تمثل أغلب ميتافيزيقا لوك — فقد تناول ليبنتز ذلك الجانب من فلسفة لوك وطوره ونماه بما يتفق ونزعته العقلية .

هذا ويمكن تلخيص التشابه بينهما فى الآتى :

(١) فى فكرة الجوهر : فلوك يعتبر الجوهر العقلى فى حكم الأشياء التى لا يمكن معرفتها unknowable شأنه شأن الجوهر المادى — إلا أننا يمكن أن نعرف العقل تجريبيـاً عن طريق ملاحظة أفكاره وعملياته وتجاربه ، وعلى ذلك فهو يفرق بين العقل فى ذاته — أو الجوهر العقلى من ناحية — وهو غير معروف ، وبين

(١) حياة الفكر فى العالم الجديد ، للدكتور زكى نجيب محمود ، صفحة ١٨٨ .

وظيفة العقل من ناحية أخرى — وهى ما يمكن أن نعرفها عن طريق الملاحظة والخبرة .

وقد أيد ليبنتز فكرة الجوهر العقلى عند لوك ذاهباً إلى أن القدرة على الإدراك هى الصورة الأساسية التى تكون ماهية الجوهر — تلك الماهية التى يتضمنها العقل بغض النظر عن محتوياته الشعورية فى أى لحظة ، وحتى فى حالة غياب هذا المضمون الشعورى فإن استمرار الحياة اللاشعورية ، أو الموجودة فى حالة ما قبل الشعور أوما دونه sub-Consciousness تؤكد لنا حقيقة الروح[١] وهو بهذا يفرق بين ماهية العقل من جهة ، وبين المدركات الشعورية أو ما قبل الشعورية التى تعتمد على عملياته ونشاطه من جهة أخرى .

وبالرغم من اتفاق ليبنتز مع لوك فى وجود الجوهر ، إلا أنه يختلف معه فى معناه . إذ أن الجوهر عند لوك يعتبر بمثابة المحور الذى تستند إليه أو تعتمد عليه محتويات التجربة ومضمونها (أى الصفات الحسية) — أما عن ماهية هذا الجوهر أو طبيعته ، فهذا ما يمسك لوك عن ذكره لأنه يدخل فى نظره فى نطاق الأشياء المجهولة أو غير المعروفة .

بينما ينقد ليبنتز موقف لوك قائلا: « إن الشكوى من جهلنا بطبيعة الجوهر ترجع إلى أننا نطلب نوعاً من المعرفة يسمح به الموضوع الذى نتكلم عنه ، وذلك لأننا جردنا فكرة الجوهر منذ البداية من كل صفة يمكن أن تحددها — ثم بعد ذلك نبحث عن الصفات التى يمكن أن تحدد معناها أو مفهومنا عنها »[٢] .

ولذا يرى ليبنتز أنه بدلا من اعتبار الجوهر شيئاً سا كناً Statically له وجوده الذاتى المستقل يجب أن ننظر إليه على اعتبار أنه شىء ديناميكى Dynamically وعلى أنه مبدأ الفاعلية أو النشاط فى الوجود — وهذه الفاعلية أو النشاط يمكن أن تتكشف لنا من خلال تجربتنا الداخلية .

وعلى ذلك فبينما يحاول لوك أن يتبين معنى الجوهر من وجهة النظر التجريبية

---

(١) Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge, p. 279.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٩١ .

منتهياً من ذلك إلى أنه شيء له وجوده المستقل ، بمعنى أنه قادر على الوجود بذاته per se نجد أن ليبنتز — نتيجة لتحليله الميتافيزيقى يعرض لنا فكرة الجوهر على أنه مبدأ مصاحب للتجربة داخل فيها مباطن لها Immanent .

ولذا فليبنتز لا يرى أن فكرته عن الجوهر فكرة فارغة عقيمة مثل التى افترضها لوك بل هى فكرة خصبة تعتبر مصدراً لعدد كبير من الحقائق الأولية الميتافيزيقية[١] . كما أن ليبنتز لا يوافق لوك فيما ذهب إليه من تفرقه بين الماهية الاسمية للجوهر وبين ماهيته الحقيقية على أساس أن ما يمكن معرفته عن الجوهر هو ماهيته الاسمية فقط لا الحقيقية — قائلا إن الشىء لا يمكن إلا أن تكون له ماهية واحدة فقط مع وجود كثير من التعريفات التى يفسر كل منها هذه الماهية بدرجة أكثر أو أقل من الآخر . . وكلما تقدم العلم أصبحت هذه التعريفات الاسمية أكثر ملاءمة لذلك الجوهر المعرّف[٢] .

(ب) فى معنى أفكارنا عن العلاقات : يتفق كل من ليبنتز ولوك فى قبولهما لمعنى العلاقات — لا على أنها موجودة فى الواقع بين الأشياء الطبيعية in rerum natura إنما بمعنى أن وجودها وجود ذهنى فقط entia mentalia بحيث تتوقف على نشاط العقل الذى يقوم بالمقارنة بين الأشياء أو الأفكار[٣] .

إلا أن هناك فارقاً بينهما وخاصة من الناحية الميتافيزيقية — فقد ذهب لوك إلى أن العلاقات ليس لها وجود فى الواقع — إذ أن كل ما هو موجود فى العالم الخارجى مجرد أشياء ، ولذا فالعلاقات ليست منفصلة أو مستقلة عن العقل الإنسانى — بل موجودة فيه ، لأنها من صنعه — بمعنى أنها مجرد إضافات يضيفها الذهن إلى الجوهر بحيث لا تكون جزءاً من ماهيته[٤] .

وهذا ما يذهب إليه ليبنتز على أنه يضيف قائلا : « إنها لا يمكن أن تكون من صنع العقل نفسه — لأن أساسها موجود فى العقل الإلهى — أو العقل الأعلى

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٩٢ .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٠٥ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٩٢ .

(٤) ..say, B. II, ch. XXV, sec. 8, p. 236.

الذى يحددها جميعاً باستمرار »[١] .

وبذلك ينتهى ليبنتز إلى حل دوجماطيقى لمشكلة العلاقات — هو أبعد ما يكون عن فلسفة لوك النقدية ، وذلك تمشياً مع اتجاهه العام فى الفلسفة وهو الاتجاه العقلى الذى يؤمن بفطرية الأفكار .

وهذا ما سأتناوله بالتفصيل فى الأجزاء التالية .

(ح) فى المعرفة البرهانية : كما يتفق كل من ليبنتز ولوك فى أن البرهان أو (المعرفة البرهانية) لا يجب تطبيقها على العلوم الكمية ، لأن ميدانه علوم المنطق والأخلاق والميتافيزيقا[٢] . هذا من ناحية التشابه — أما من ناحية الاختلاف فيمكن تلخيصه فيما يأتى :

١ — فى معنى المعرفة : فقد تناول ليبنتز مشكلة المعرفة من الناحية الصورية المنطقية من جهة ، ومن الناحية الميتافيزيقية من جهة أخرى — وكان نتيجة لاتجاهه الأول سيره فى المنهج المجرد الذى تنادى به الفلسفة الديكارتية العقلية ، وذلك بقبوله مبدأ عدم التناقض الصورى كأعلى مبدأ تقوم عليه المعرفة العقلية[٣] .

بينما تناول لوك مشكلة المعرفة من الزاوية التجريبية ، وكان نتيجة لذلك معارضته للفلسفة الديكارتية العقلية — وخاصة فى إنكاره لفطرية المبادئ الأولية أو المعرفة الفطرية بصفة عامة .

ولذا فالمعرفة عند لوك مكتسبة من التجربة — بينما هى ليست كذلك بالنسبة لليبنتز . فقد رفض ليبنتز تعريف المعرفة عند لوك الذى جعلها (مجرد إدراك لما بين الأفكار من تشابه أو اختلاف)[٤] قائلا : « إننا يمكننا أن نصل إلى المعرفة بالرغم من أننا لا ندرك مثل هذا الاختلاف أو التشابه بين الأفكار ، بل بمجرد الشعور بها دون إدراكها »[٥] .

---

(١) Gibson, J., Locke's Theory of Know Ledge, p. 293.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٩٩ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٧٠ .

(٤) Essay, B. IV, ch. I, sec. 2, p. 424.

(٥) نقل جيبسون هذا النص عن كتابه ليبنتز "Nouveaux Essais" — صفحة ٣٠١.

وكان الهدف الذى يسعى إليه ليبنتز من إنكاره لتعريف لوك للمعرفة — هو تأكيده لنظريته التى تتفق وما ذهب إليه من فطرية المعرفة ، ووجود الأفكار والمبادئ الأولية ضمن المحتويات العقلية اللاشعورية أو قبل الشعورية . لأن عملية المعرفة عنده تعتبر بمثابة تطور يبدأ من مستوى ما دون أو قبل الشعور حتى يصل إلى أكمل وأتم أنواع المعرفة ، وهى الحدسية[١] .

ولم يكن معنى التطور عند ليبنتز مقصوراً على كونه مجرد عملية نمو تظهر فيها أو من خلالها هذه المحتويات . إنما هى إحالة ما كان منذ البداية فى النفس أو العقل وهو أقل وضوحاً — إلى حالة من التميز والوضوح فى المستوى الإدراكى .. وعلى ذلك فالمعرفة بالنسبة له ليست شيئاً أكثر من عملية إظهار ما كان موجوداً بشكل غامض أو غير واضح ، أو ما كان مختفياً غير مدرك فى النفس — إظهاره فى المجال الشعورى الإدراكى . . بمعنى أنه ليست هناك فى عملية المعرفة أية إضافة إلى ما هو أولى فى النفس ، ولذا فدرجات المعرفة المختلفة عنده ليست سوى درجات فى الوضوح والتميز التى ندرك بها الأفكار — أو ما كان موجوداً فى النفس أو العقل من قبل[٢] .

وكما رفض ليبنتز تعريف المعرفة عند لوك ، فقد رفض كذلك ما ذهب إليه لوك من تماثل بين المعرفة واليقين — على أساس أن ما أعرفه هو ما أنا على يقين منه ، وما يقصر عن بلوغ اليقين لا يكون معرفة — كما رفض بالتالى النتيجة المترتبة على هذا القول بالفصل بين المعرفة وبين أعلى درجات الاحتمال . إذ أن الظن المبنى على الاحتمال يجب أن يسمى معرفة أيضاً فى نظره ، وعلى ذلك فيجب أن تكون درجات المعرفة أربعاً بدلا من الثلاث التى ذهب إليها لوك وهى الحدسية والبرهانية والحسية — بإضافة درجة رابعة هى المعرفة الاحتمالية[٣] .

---

(١) Gibson, J., Locke's Theory of Know Ledge, p. 301.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٠٢ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٠٠ .

٢ — فى فطرية الأفكار : يؤيد ليبنتز نظرية أفلاطون فى التذكر Reminiscentia ويرى أن الإنسان عنده إحساس أو شعور سابق بكل أفكارنا المستقبلة — بمعنى أن جميع الأفكار التى سيعرفها فى المستقبل موجودة فى النفس بطريقة ما — وعلى ذلك فجميع أفكارنا بما فيها إحساساتنا لها أصل فى نفوسنا أو أرواحنا[١] وهذا ما أنكره لوك ، وخاصة فى نقده للمعرفة الفطرية الأولية السابقة على التجربة والتى أفرد لها الفصل الثانى من الكتاب الأول من « مقالته فى العقل البشرى » وقد حاول ليبنتز تفسير فطرية الأفكار والمبادئ — مع تجنب الإحراج الذى أظهره لوك حين تساءل كيف يمكن للأفكار أن تكون فطرية ولا يعرفها أو يكون واعياً بها مدركاً لها[٢] ؟ قائلا إنه بالرغم من أن هذه المبادئ أو الأفكار لم تكن ماثلة بوضوح فى مجال الشعور منذ البداية ، إلا أننا يمكننا أن نعتبرها بمثابة قدرة كامنة تظهر فيما بعد فى المجال الشعورى[٣] .

ولذا فالفطرية فى نظره تعتبر مجرد طبيعة أو ميل لتكوين فكرة عن موضوع[٤] ولكن إذا كان ذلك كذلك . فهل تكون كل الأفكار التى تتكون فى العقل لها أصولها الأولية المفطورة فيه — أى هل جميع الأفكار فطرية فى نظر ليبنتز بهذا المعنى . أم أن بعضها فطرى والبعض الآخر ليس كذلك ؟

يتلخص موقف ليبنتز تجاه هذا الموضوع فى الآتى :

أولا : أن ميتافيزيقاه والنتيجة المترتبة على مقدماته السابقة تتطلب منه أن يقرر أن معرفة الفرد وخبرته ليست أكثر من تطور ذاتى لطبيعته Selfevolution لأن التطور يمكن اعتباره بمثابة العملية التى تكشف ما كان موجوداً فى النفس منذ البداية فى شكل غامض غير معروف ، وهذا ما ذهب إليه فعلا فى أول تأملاته الفلسفية المتعلقة برسالة لوك فى الفهم الإنسانى[٥] .

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٦٩ .

(٢) Essay, B. I, ch. II, sec. 5, p. 14.

(٣) Gibson, J., Locke's Theory of Know Ledge, p. 280.

(٤) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٥) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٨١ .

ثانياً : ثم تغير موقفه بعد ذلك . وخاصة فى كتابه « المقالات الجديدة » — الذى فرق فيه بين نوعين من الأفكار :

(ا) الأفكار الذهنية Intellectual ideas .

(ب) الأفكار الحسية (الناتجة عن الإحساس) Sensible ideas .

فالأفكار التأملية والحقائق الضرورية التى تعتمد عليها ، يجب اعتبارها فطرية تماماً . بينما الأفكار الحسية ، وحقائق الواقع التى تعمتد عليها — يجب أن تعتبر نتيجة للتجربة والخبرة ، وعلى ذلك فهى ليست فطرية[١] .

ويلاحظ ليبنتز أن الأفكار العقلية التأملية قد لا تكون واضحة تماماً — وذلك فى حالة وجودها فى منطقة ما دون أو قبل الشعور الغامضة — إلا أنها تصبح واضحة تماماً ومتميزة فى حالة انتقالها إلى المستوى الشعورى ، ولذا فالفكرة الواحدة البسيطة قد تكون غامضة أحياناً ، واضحة متميزة أحياناً أخرى[٢] .

ويمثل ليبنتز للمعرفة الفطرية —بمعرفة الذات — مهاجماً بذلك المبدأ الأرسطى الذى استخدمه لوك فى فلسفته ، والقائل بأنه لا شىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس (Nihil est in intellectu quod non fuerit in sensu) وذلك بأن أضاف إليه ما عدا العقل نفسه nisi ipse intellectus ويوضح ذلك بقوله طالما كان العقل فى حد ذاته جوهراً متصفاً بصفات الوحدة والذاتية والاستمرار فى الزمان . . . إلخ فإن أفكارنا عن الجوهر ، والوحدة والذاتية والاستمرار الزمنى Duration وأفكار أخرى كثيرة مشابهة يمكن أن يدركها العقل بدون الاعتماد أو الرجوع إلى أى شىء آخر سوى ذاته[٣] .

ويناقش ليبنتز معنى الفطرية — مبرهناً عليها بالشكل الآتى :

١ — إن ضرورة وجود بعض الحقائق المعينة — برهان فى حد ذاته على فطريتها ، قائلا إن هذه الحقائق لا يمكن البرهان عليها أو إثباتها بالتجربة —

---

(١) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٨٤ .

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٨٢ .

لأن التجربة لا تزودنا إلا ببعض الأمثلة الجزئية – التى بناء عليها يمكنا أن نصل بالاستقراء إلى بعض العموميات – إلا أن هذه الكليات أو العموميات لا يكون صدقها ضرورياً ، ولذا فهى لا يمكن أن ترتفع إلى مثل هذه الحقائق العامة الضرورية [١] .

٢ – ويعرض ليبنتز حجة أخرى لفطرية الأفكار والمبادئ . ذاهباً إلى أن هناك من الأفكار ما هو متضمن فى كل معرفة تعرض للعقل مهما كان موضوعها – مثل أفكارنا عن الوجود والإمكان possibility والذاتية ، ولذا فهى أفكار فطرية لأنها تدخل فى تكوين جميع أفكارنا وعملياتنا العقلية .

حقيقة إن هذه الأفكار قد لا تكون واضحة تماماً – إلا أنها موجودة فى العقل بحيث يعتمد عليها فى تفكيره وتكوينه لأفكاره وقيامه بعملياته ونشاطه ، وهى ضرورية بالنسبة له – كما أن الأعصاب والعضلات ضرورية بالنسبة لعملية المشى .

وعلى ذلك فهى موجودة فى العقل – حتى ولو لم تكن ماثلة أمامه بوضوح كاف لأنه ليس من السهل تمثلها أمام العقل وهى منفصلة بوضوح وتميز . ويشبهها ليبنتز بالمقدمة الكبرى المحذوفة فى القياس المضمر – التى بالرغم من كونها مختفية غير ظاهرة أو واضحة فى القياس . . إلا أن نتيجة القياس لا يمكن أن تتم بدون الاعتماد عليها [٢] . وقد نتج عن قول ليبنتز بفطرية المعرفة تأييده للاتجاه الديكارتى القائل إن الروح دائمة التفكير [٣] والذى أنكره لوك ونقده [٤] وقبله ليبنتز على أنه مبدأ أولى ، وذلك تمشياً مع تفسيره للنشاط الذهنى – وفى أنه ليس مقصوراً فقط على التفكير فى المدركات الكامنة فى الذاكرة والتى تمثل المضمون الدائم للمعرفة بالرغم من أنها ليست ماثلة دائماً أمام العقل . وقد استنتج ليبنتز من ذلك أنه كما أن تجارب وخبرات حياتنا الماضية لا تزال موجودة فى المجال

---

(١) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٨٣ .

(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٨٤ .

(٣) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٦٩ .

(٤) Essay, B. II, ch. I, sec. 10, p. 62.

دون الشعورى — بمعنى أنها ليست ماثلة أمام العقل دائماً فإننا يمكن أن نفترض أن هذه المنطقة الغامضة (أى مجال ما دون أو قبل الشعور) يجب أن تتضمن أشياء أو دلالات functions مشابهة — منذ القدم ولم ترتفع بعد إلى مستوى الأفكار الشعورية[١] .

ومن الملاحظ أن ليبنتز قد اضطر نتيجة لموقفه الميتافيزيقى إلى التوسع فى فكرته أو تصوره عن النشاط العقلى فى الإنسان — فالحياة العقلية بالنسبة لليبنتز لا تقتصر على الجانب الشعورى أو الإدراكى فقط بل كذلك تمتد إلى الحياة دون الشعورية . أى تلك الإدراكات الدقيقة التى تكون المضمون الأساسى فى حياتنا العقلية[٢] — وهى تقريباً نفس فكرة اللاشعور التى تبناها فرويد فيما بعد .

ثالثا : التأثير النقدى (تأثير لوك فى كانت)

يبدو أثر لوك فى كانت كبيراً إذا قارنا مؤلفات كانت ، وبصفة خاصة كتاب نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason بكتاب لوك «مقالة فى العقل البشرى» [٣] وخاصة فى الاتجاه النقدى الذى رد مضمون المعرفة الإنسانية إلى كل من الحس والعقل معاً — لا الحس فقط أو العقل وحده — بل كل منهما يكمل الآخر .

فكما كانت نقدية لوك — موقفاً وسطاً بين النزعة المادية الحسية عند هوبز وجسندى وبين الاتجاه العقلى عند ديكارت .

كانت نقدية كانت — موقفاً وسطاً بين النزعة الحسية عند هيوم وكونديباك ، وبين الاتجاه العقلى عند ليبنتز . . . إلا أن نقدية لوك كانت تجريبية — بينما كانت بالنسبة لكانت مثالية — إذ أن التجريبية النقدية Critical Empiricism الممثلة فى فلسفة لوك ترد أصل المعرفة إلى التجربة التى تبدأ بالإحساس — إلا أن

---

(١) Gibson, J., Locke's Theory of Know Ledge, p. 279.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٢٧٧ .

(٣) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

وظيفة العقل فى تكوين الأفكار ، وخاصة الأفكار المركبة تأتى بعد ذلك — طالما لم تكن من قبل فى الحس . بينما نقدية كانت تعتبر مثالية Critical Idealism لاعتماد المعرفة على المقولات الأولية الموجودة فى العقل — والتى تعتبر بمثابة الإطارات الفكرية التى تصب فيها كل الانطباعات الحسية — وهذا ما يفرق لوك عن كانت .

إذ أن المعرفة عند لوك يمكن ردها إلى مجموعة من الأفكار البسيطة التى لم تتكون فى العقل إلا بناء على التجربة والخبرة — بينما لا يمكن رد المقولات العقلية عند كانت إلى التجربة ، وإنما كل ما يمكن رده إلى الخبرة والتجربة بالنسبة لكانت هو المادة التى تصب فى هذه القوالب أو الإطارات الفكرية — أى الانطباعات فقط — وهذا ما جعل نقدية لوك تجريبية ، وجعل نقدية كانت مثالية .

ويمكن تلخيص أوجه التشابه بين لوك وكانت فى الآتى :

أولا : (ا) فى تناول مشكلة المعرفة بالبحث : إن كلا منهما حين بحث مشكلة المعرفة — لم يذهب إلى أن الإنسان قادر على أن يعرف كل شىء — بل جعل حدود بحثه قاصرة على ما يمكن أن نعرفه على أساس أن هناك ما لا يمكن معرفته ، مثل الماهية الحقيقية للجوهر عند لوك ، أو الشىء فى ذاته عند كانت لأنه مجهول غير معروف .

(ب) إن بحث كل منهما كان متجهاً لبيان فساد وأخطاء الفلسفة الاعتقادية Dogmatism أى الفلسفة التى تهدف إلى بلوغ اليقين سواء عن طريق الحس فقط ، أو العقل فقط — وكذلك خطأ فلسفة الشك[1] .

(ج) إن كلا منهما قرر بأن بحث مشكلة المعرفة يجب أن يكون منفصلا عن حقيقة الواقع reality وكل ما يتعلق به من افتراضات[2] .

ثانياً : فى معنى الجوهر : فقد أخذ كانت عن لوك تفرقته بين الخصائص

---

(١) أسس الفلسفة — للدكتور توفيق الطويل ، طبعة أولى — القاهرة ١٩٥٢ — صفحة ١٦٥ .

(٢) Gibson, J., Locke's Theory of Know ledge, p. 312.

الأولية والثانوية للأشياء ، وقسمته لها إلى جواهر وأعراض .

فالأعراض فى فلسفة لوك هى الظواهـــر Les phenomenes فى فلسفة كانت — والجواهر فى فلسفة لوك هى الشىء فى ذاته La chose en soie أو النومين Noumenon فى فلسفة كانت[١] .

وكما أننا ندرك الأعراض عن طريق الحواس فى فلسفة لوك — فنحن كذلك لا ندرك إلا الظواهر الخارجية للأشياء عند كانت .

وكما أن ماهية الجوهر الحقيقية مجهولة بالنسبة للوك ، فنحن كذلك لا يمكن أن نعرف الشىء فى ذاته بالنسبة لكانت .

وكما أن الشىء فى ذاته عند كانت يمثل الجوهر المادى عند لوك — فقد طبق كانت نفس الفكرة (أى التفرقة بين المظهر والجوهر) على العقل — لأننا إذا لاحظنا ما بداخل أنفسنا ، سنجد أن هناك وراء مظهر الإحساس الداخلى الذى نعرف بواسطته النفس التجريبية Empirical-self سنجد هناك شيئاً جوهرياً لا يمكننا أن نجعل منه موضوعاً لمعرفتنا — هو ذلك الجوهر أو النومين Noumenon الذى يمثل أساس إدراكنا ومعرفتنا بأنفسنا .

ولذا فالروح بالنسبة لكانت جوهر — بمعنى أنها الأساس المجهول — والذى لا يمكن معرفته Unknowable والذى تتضمنه عملياتنا العقلية الشعورية[٢] .

وتأثير لوك واضح جداً فى هذا الصدد — إذ أن كانت يسير فى نفس الاتجاه الذى سار فيه لوك من قبل حين ذهب إلى القول بوجود جوهر روحى بناء على وجود الجوهر المادى — اللذين لا نعرف شيئاً عن الماهية الحقيقية لأى منهما .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المعرفة بالمظهر Phenomenon عند كانت — أو بالإعراض عند لوك ، بالرغم من أنه لا يمكن اعتبارها معرفة ذاتية — لأن أصلها مستمد من الموضوعات الخارجية — إلا أنها لا يمكن أن توجد وهى منفصلة

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٣١٣ .

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٣١٥ .

عن الوظيفة العقلية (أى عن العقل) – أو ذلك النشاط التأليفى Synthetic الذى تقوم به الذات لتكوين الأفكار أو المعرفة بالمظهر ، والذى سيتوقف إذا لم يكن هناك شىء لإدراكه .

وقد نتج عن القول بأن العقل يجهل الماهية الحقيقية للجوهر . أن أصبح العقل عاجزاً عن معرفة حقيقة الأشياء – وعلى ذلك فالفصل بين المعرفة وحقيقة الواقع reality إنما يعتبر محاولة لتأجيل أو تجميد البحث فى مشكلة الحقيقة ، وبالتالى تناول المعرفة من وجهة نظر مجردة عنها تماماً – مما أدى بكل من لوك ، وكانت من بعده إلى التردى فى النزعة الدوجماطيقية التى أنكراها من قبل[1] .

ثالثاً : ضرورة الاعتماد على التجربة فى المعرفة : كما يبدو تأثر كانت بلوك حين ذهب كلاهما إلى أن كل معرفة تتضمن الأستناد إلى التجربة بالرغم من اختلافهما فيما بعد فى تفاصيل هذه التجربة[2] .

فالمعرفة بالنسبة للوك لابد أن تستمد جذورها أوترجع فى أصلها إلى التجربة – أما كانت فهو يفرق بين ما سماه بالعوامل الخالصة pure factors وبين العوامل التجريبية فى كل معرفة – على أساس أن الأولى لا يمكن أن تستمد أصلها من التجربة .

وعلى ذلك يجب أن نفهم استناد المعرفة إلى التجربة فى ضوء ضرورة تزويد هذه الوظيفة الصورية البحتة بما يملؤها من مضمون أو محتوى[3] على أساس أن هذه المقولات الفطرية أو الإطارات العقلية الصورية الضرورية – موجودة فى العقل أولياً ، بحيث تزودها التجربة الحسية التى تملؤها – أى تزودها بالمحتوى الواقعى أو الانطباعات الحسية التى تصلنا من الخارج[4] .

وعلى ذلك فالمعرفة بالنسبة لكانت تبدأ مع التجربة (with) بينما تنبع المعرفة من (from) التجربة بالنسبة للوك[5] .

---

(١) نفس المرجع السابق – صفحة ٣١٤ .
(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ٣٢٠ .
(٣) نفس المرجع السابق – صفحة ٣١٤ .
(٤) نفس المرجع السابق – نفس الموضع .
(٥) نفس المرجع السابق – صفحة ٣٢٩ .

ويمكن تلخيص أهم نقاط الاختلاف بينهما فى :

١ – **فى معنى التجربة** : فهى بالنسبة للوك أساس لكل معرفة – بينما هى بالنسبة لكانت مجرد مصدر يزود المقولات العقلية الأولية بالانطباعات الحسية التى لا يمكن أن تصبح معرفة واضحة – إلا إذا انتظمت فى هذه الإطارات العقلية أو المقولات الأولية – ولذا فالمعرفة فى نظره تتضمن نوعين من العناصر – عناصر أو عوامل خالصة فطرية أولية ضرورية ، وأخرى تجريبية حسية مستمدة من الحس[١] .

٢ – **فى المعرفة الفطرية** : فقد ذهب كانت إلى وجـود المقولات العقلية الضرورية فى الذهن وجوداً أولياً سابقاً على التجربة – بينما أنكر لوك كل معرفة سابقة على التجربة – على أساس أنه لا يمكن أن يكون هناك شىء فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس وطالما لا يبدأ الإنسان فى نظره فى التفكير إلا حالما يبدأ فى الإحساس[٢] .

٣ – **فى معنى الكليات** : فلوك يعتبر أن التعميم الموجود فى الألفاظ الكلية شىء صناعى – لأنه من عمل العقل ، وليس له وجود فى الواقع – بمعنى أن كل ما هو كلى أو عام ليس له ما يشير إليه أو يدل عليه بين الموجودات الطبيعية . وعلى ذلك فطبيعة هذه الكليات بصفة عامة – ليست أكثر من القدرة على الدلالة على عدد من الجزئيات الموجودة فى الواقع والتى يضفى العقل عليها علاقة معينة .

والباعث الذى يدفع العقل لإضافة مثل هذه العلاقة إلى مجموعة من الجزئيات هو ضرورة البحث عن طريقة أخرى غير إيجاد عدد غير محدود من الأسماء يقابل كل منها فكرة من أفكارنا الجزئية – ولذا فهو يلجأ إلى ربط مجموعة من هذه الأفكار الجزئية بعلاقة ما مثل علاقة التشابه – لكى يكون منها فكرة كلية واحدة تنطبق وتشمل كل هذه الجزئيات المتشابهة جميعاً[٣] .

---

(١) نفس المرجع السابق – صفحة ٣٢٠ .

(٢) Essay, B. II, ch. I, sec: 23, p. 69.

(٣) Ibid, B. III, ch. III, sec. 2, p. 326.

بينما يرى كانت أن وظيفة العقل أثناء معرفته بالكليات لا تكون فقط من مجرد إضافة الكلى إلى التجربة التى لا تتضمنه ، أو تجريده منها — بل تتوقف على رفع مستوى الخبرة أو التجربة الحسية نفسها . وذلك عن طريق التعرف على الكلى السابق وجوده فى الذهن أوليا — بالرغم من عدم كونه مدركاً (١) .

وهذا الاتجاه يتفق تماماً مع منهج كانت الذى يبرهن فيه على أن البناء العام Universal structure أو الهيكل الكلى متضمن منطقياً فى معرفتنا بالوقائع الجزئية للتجربة الموضوعية — وعلى ذلك فالمعطيات الأولية للمعرفة هى الخبرة أو التجربة الواحدة كلها — لا الموضوعات الجزئية المنفصلة المنعزلة الذى ظن لوك أنه يجب البداية منها — لأنها غير قادرة بذاتها على أن تكون موضوعات لمعرفتنا على الإطلاق وحيث إن الموضوعات الجزئية لتجربتنا المعرفية — تفترض مقدماً وجود البناء العام أو الهيكل الكلى لهذه التجربة أو الخبرة — فإن جميع القضايا التى توضح طبيعة هذا البناء المجرد ، وكل القضايا التى يتوقف وجودها على هذا الكلى — لابد أن تكون قضايا أولية تتصف بالضرورة والعمومية والشمول (٢) .

---

(١) Gibson, J., Locke's Theory of Know ledge, p. 325.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٢٦ .

السياسة عند لوك

عبر لوك عن أفكاره فى السياسة فى :

مقالتيه فى الحكومة المدنية

وهو الاسم المختصر الذى عرفتا به . أما اسم الرسالتين بالكامل فهو :

Two Treatises of Government, in the former the false principle and foundation of Sir Robert Filmer and his followers are detected and overthrown — the latter is an essay concerning the original, extent and end of civil government.

وقد بدأ فى كتابتهما بعد ظهور كتاب روبرت فيلمر Patriarcha[١] عام ١٦٨٠ — وانتهى منهما عام ١٦٩٠ — وكان يهدف من ورائهما إلى تثبيت فكرته الأصيلة فى الحرية الفردية — وقد أفرد المقالة الأولى لمهاجمة المبدأ النظرى القديم ، الذى نادى به روبرت فيلمر Robert Filmer من قبل فى كتابه « الأبوة Patriarcha » —[٢] والذى كان سائداً فى أوربا فى عصورها الوسطى — وهو مبدأ حق الملوك المقدس الذى يعطى للملك الحق فى حكم رعاياه حكماً مطلقاً استبدادياً ، دون أن يكون لأى فرد من أفراد الشعب الحق فى أن يعارض أو يثور ضده ، طالما كان الملك مفوضاً من قبل الله لحكم هذا الشعب أو ذلك — ولذا فلابد وأن يطاع فى كل أوامره وأحكامه .

وبالإضافة إلى ذلك — فالملك من حيث إنه مفوض للحكم تفويضاً إلهياً — فله الحق فى أن يضع القانون الذى يراه مناسباً لهذا الشعب ، والذى يحكمه بناء عليه — وعلى ذلك فهو لابد وأن يكون فوق القانون — لأن الإنسان فى نظر فيلمر لا يمكنه أن يضع بنفسه قانوناً يقيد به حريته .

وكذلك فالملك من حيث إنه مفوض من الله للحكم ، ومن حيث إنه هو

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 276.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٣٩ .

الذى يسن القانون — فالمفروض أن يستمد هذا القانون قوته من السلطة الإلهية ذاتها — وعلى ذلك فليس لأفراد الشعب أن يثوروا ضده أو يحاولوا تغييره لأنه من صنع الملك ظل الله فى الأرض[١] .

وقد هاجم لوك كذلك الفكرة التى دعا إليها فيلمر من قبل من أن الدولة ليست سوى امتداد طبيعى للأسرة الحاكمة . . قائلا إنه من المستحيل أن ننسب سلطة الحكومة فى الدولة إلى أصل مفتعل هو سلطة الأسرة القديمة ونظام الحكم فيها . وكان هذا وما ترتب عليه من نتائج — موضوع رسالته الثانية عن الحكومة المدنية . التى ذهب فيها إلى أن الناس كانوا يعيشون قديماً فى حالة تسمى بحالة الفطرة أو الحالة الطبيعية التى تتميز على الأقل بميزتين أساسيتين هما الحرية والمساواة[٢] . فالناس فى حالة الفطرة كانوا يعيشون فى ظل من الحرية والمساواة المطلقة لا يحكمهم إلا القانون الفطرى الذى يناسب تلك الحال وهو القانون الطبيعى . وحرية الإنسان الطبيعية فى نظره يجب أن لا تكون خاضعة لأى سلطة أعلى من الإنسان — لأنه فى هذه الحالة يستمتع بحريته فى ظل قانون الفطرة أو الطبيعة[٣] — وعلى ذلك فكل إنسان يولد حراً ، ولا يمكن أن تقيد من حريته أية سلطة يمكن أن توجد على الأرض إلا بعد موافقته[٤] .

وحتى فى تكوين المجتمعات السياسية — ستكون حرية الإنسان فى حدود السلطة التشريعية التى أقامها الناس بموافقتهم واختيارهم . ولذا فهى ليست الحرية التى ذهب إليها روبيرت فيلمر فى كتابه « ملاحظات على أراء أرسطو السياسية » المتعلقة بأشكال الحكومات ١٦٧٩ . .

Observations upon Aristotle's politiques, touching forms of Government. (1679)

---

(١) Russell, B., A History of Western Philosophy, p. 642.

(٢) John Locke, An Essay concerning the true, original, extent and end of civil government. (in political philosophers, Saxe Commins edition, New York, 1954) ch. II, sec. 4, p. 58.

(٣) Ibid, ch. IV, sec. 22, p. 69.

(٤) Ibid, ch. VIII, sec. 119, p. 125.

من أن يحيا الإنسان كما يريد ، أو أن يفعل كما يحلو له بدون أن يرتبط بأى قانون على الإطلاق[١].

والمساواة فى حالة الفطرة تعتبر فى نظر لوك أهم صفة يمكن أن يتصف بها الإنسان — بل إنها كما ذهب هوكر Hooker أمر واضح بذاته لا يحتاج إلى أى مناقشة — بحيث جعلها أساساً للحب المتبادل بين الناس فى المجتمع — وبالتالى أساساً لقيامهم بواجباتهم مما يحقق العدل والإحسان[٢]، ولذا كانت حالة الفطرة حالة سلام وسعادة وإرادة خيرة ، خاصة إذا ما أخضع الناس رغباتهم لقانون الطبيعة الذى يتلخص فى معرفة كل فرد أن له حقوقاً معينة فى الحياة والحرية والملكية الخاصة وفى بلوغ السعادة — وأنه يجب ألا يعتدى أى إنسان على حقوق غيره من الناس أثناء ممارسته لحقوقه الشخصية[٣] .

والملكية الخاصة تعتبر من أهم حقوق الإنسان فى حالة الفطرة — حقيقة أن الله — كما يروى الملك سليمان الحكيم — قد أعطى الأرض لأبناء الإنسان أى أنه منحها ملكاً مشتركاً لجميع أفراد النوع الإنسانى ، كما منحهم كذلك العقل كى يستفيدوا من استغلالها لفائدتهم ولتحسين حالهم وحياتهم — إلا أن كل إنسان أصبحت له ملكيته الخاصة متمثلة فى الجزء الذى يعمل فيه بيديه ، ويبذل فيه جهداً لاستغلاله — وذلك بناء على موافقة بقية أفراد الناس على أن يتملك كل منهم الجزء الذى يقوم باستغلاله والعمل فيه[٤] .

بيد أن المحافظة على الملكية الخاصة كانت تعتبر أمراً على جانب من الخطورة فى حالة الفطرة — لأن البعض لم يرع حقوق غيره — بل كانوا يغتصبونها ويعتدون على ملكية غيرهم ويسخرونهم طبقاً لأهوائهم ورغباتهم الأنانية ، فنزعوا بذلك إلى الشراهة والحسد والكسل والشهوة والسيطرة على الآخرين مما حول حالة الفطرة —

---

(١) Ibid, ch. IV, sec. 22, p. 69.

(٢) Ibid, ch. II, sec. 5, p. 59.

(٣) Sterling P. Lamprecht, Locke, Selections, Int. p. XXVIII.

(٤) John Locke, An Essay.. of civil government, ch. V, sec. 25, p. 71.

من حالة سلام وأمن – إلى حالة نزاع وحرب[١] . بمعنى أن ممارسة الإنسان لحقوقه ، وخاصة فى الحرية والمساواة والملكية الخاصة – لم يكن أمراً ممكناً فى حالة الفطرة لأنه كان دائم التعرض للغزو أو الإغارة من الآخرين . وهذا ما جعله يتخلى برغبته عن حالة الفطرة التى كان يستمتع فيها بحريته وملكيته الخاصة إلى البحث عن غيره والانضمام إليهم لتكوين المجتمع السياسى أو المدنى[٢] .

أى أن ظهور الحاجة إلى تنظيم الحرية وضمانها ، وحماية الملكية الخاصة ، وإقامة العدالة – اضطر الأفراد إلى الانضمام بعضهم إلى بعض برغبتهم بعد أن تنازل كل منهم عن جزء من حريته وبعض حقوقه وأهمها :

(ا) حق الدفاع عن النفس والملكية الخاصة .

(ب) حق عقاب الغير حين يعتدون عليه أو على ملكيته الخاصة[٣] .

إلى المجتمع أو إلى الحكومة – كى تسهر على رعايتهم وتنظيم حقوقهم وحرياتهم ومساواتهم وملكياتهم الخاصة – وبذلك يصبح العقد الاجتماعى وهو أساس المجتمعات المدنية أو السياسية[٤] عقداً له طرفان – الطرف الأول فيه هو الشعب ، والثانى هو الحكومة أو الملك[٥] . وحيث إن أساس الحكم هو التعاقد – فالمفروض أنه إذا أخل أى طرف من أطرافه به فإنه يصبح لاغياً ، وعلى ذلك إذا أخل الملك أو أخلت الحكومة بتعهداتها للشعب ، أو أهملت فى مسئولياتها نحوه أو تخطت سلطاتها التى خولها لها الأفراد ، وجب عزلها أو عزله[٦] . وعلى ذلك فالشعب وحده يجب أن يكون هو مصدر السلطات ، وبالتالى فهو وحده المرجع فيمن يولى هذه السلطة .

وقد كان نتيجة لذلك – أن نادى لوك بجعل السلطة التشريعية فى يد الشعب

---

(١) Sterling P. Lamprecht, Locke - Selections, Int. p. XXVIII.

(٢) John Locke, An Essay .. of Civil Government, ch. IX, sec. 123, p. 128.

(٣) Ibid, ch. IX, sec. 129, p. 130.

(٤) Sterling P. Lampracht, Locke - Selections, Int. p. XXIX.

(٥) Leslie Paul, The English Philosophers, p. 112.

(٦) Paul Janet et Gabriel Seaille, Histoire de la philosophie, p. 1044.

وأصر على أن تكون هى السلطة العليا فى الدولة ، وفصلها عن بقية السلطات الأخرى – لأنها إن لم تنفصل – فستنقلب الحكومة إلى نوع من الطغيان[١] . لأن المفروض أن يضع الشعب من التشريعات ويسن من القوانين ما يكفل التقييد من حرية الملك أو سلطة الحكومة لمصلحة الشعب – فاقترح لوك أساساً لتقسيم السلطة إلى ثلاثة أقسام[٢] :

١ – **السلطة التشريعية :** ويجب أن تكون فى يد ممثلى الشعب الذين يكتسبون هذا الحق إما بالانتخاب أو الوراثة .

٢ – **السلطة التنفيذية :** هى التى تنفذ القوانين التى يضعها الشعب عن طريق سلطته التشريعية ، وتتضمن القوانين الإدارية والقضائية .

٣ – **السلطة الفدرالية :** وهى السلطة التى تتمم السلطة التشريعية ، وتتكون من مندوبين عن المدن أو المقاطعات الإنجليزية – بعضهم من الفرسان والآخرون من رجال الدين ويعينهم الملك ، وهم النواة الأولى للمجلس المعروف حالياً باسم مجلس اللوردات .

وهاتان السلطتان الأخيرتان خاضعتان للحكومة – وعلى رأسها الملك ، ولكن إذا كان من حق الملك أن يتدخل فى السلطة القضائية فما ذلك إلا فى حدود ضيقة بحيث تكون الكلمة العليا دائماً لممثلى الشعب .

ومما هو جدير بالذكر أن تقسيم السلطات فى المجتمع إلى ثلاث وفصلها كان له تأثير كبير فى مونتسكيو الذى بلور هذا الاتجاه فى نظريته الشهيرة فى كتابه « روح القوانين » عن فصل السلطات وتقسيمها إلى تشريعية وتنفيذية وقضائية .

والواقع أن أفكار لوك السياسية – التى نشرها ،فى رسالتيه سالفتى الذكر ترتبط ارتباطاً أساسياً بجوهر نظريته فى المعرفة ، فهو قد ربط بين فكرته الفلسفية التى ذكرها فى كتابه « مقالة فى العقل البشرى » عن رفض الأفكار الفطرية ، وبين فكرته عن المساواة والحرية فى السياسة – لأنه حين رفض الاعتراف بوجود

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 208.

(٢) نفس المرجع السابق – صفحة ٢٠٩ .

أفكار فطرية فى عقل الإنسان – قد أثبت أن جميع الأفراد من حيث طبائعهم الواعية متساوون – ليس هناك شخص متميز عن غيره بمعرفة سابقة ، ولا شخص أقل من غيره فى هذه المعرفة – وعلى ذلك ، فإذا كان الأفراد متساوين فى عدم المعرفة ساعة الميلاد – فإنهم لابد وأن يكونوا متساوين فى كل شىء – لأن فكرة المساواة دائماً فى الحياة الاجتماعية – تستتبع هذه الفكرة فى الحياة السياسية .

التسامح عند لوك

وكما كانت المساواة والحرية بمثابة الهدف العام الذى سعى لتحقيقه لوك من مقالتيه عن الحكومة المدنية ،كان الدفاع عن الحرية الشخصية ، وخاصة فيما يتعلق بحق العبادة — والحرية المدنية . كان هدفه من نشر خطاباته الثلاثة فى التسامح Letters sconcerning Toleration — فى شتاء ١٦٨٥— ١٦٨٦ أرسل لوك خطاباً إلى ليمبورخ Philip Van Limborch[١] وكان موضوعه عن فكرة التسامح ،وقدنشر هذا الخطاب باللغة اللاتينية عام١٦٨٩ تحت عنوان Epistola de Tolerentia[٢] وترجمه إلى اللغة الإنجليزية بعد ذلك بوبل Popple باسم «أول خطاب فى التسامح First letter concerning Toleration »[٣] إلا أن جوناس بروست Jonas Proast نقدهذه الرسالة سنة ١٦٩٠ فى كتابه The Argument of the ''Letter Concerning to leration'' briefly considered and answered. فاضطر لوك أن يرد على هذا النقد برسالته الثانية فى التسامح فى السنة التالية عام ١٦٩١ — ثم ظهرت بعد ذلك رسالته الثالثة سنة ١٦٩٢ — اللاحق منها يكمل السابق ويزيده توضيحاً .

وبعد اثنى عشر عاماً — عاود جوناس بروست الهجوم مرة أخرى ، فبدأ لوك فى كتابة رسالته الرابعة التى لم يعش لينشرها[٤] .

وقد اعتمد لوك فى تأكيده لنظريته فى التسامح على دليلين :

١ — **الدليل الخلقى** : ويتلخص فى أن كل فرد له الحق فى أن يعتقد وأن يؤمن بملء حريته ، وبلا خوف أو تردد — وفى أن الحرية الدينية والشخصية يجب أن تكون مكفولة للجميع ، فليس للكنيسة الحق فى أن تضطهد أى شخص

---

(١) وهو رجل دين هولندى عرف بحبه للحرية الدينية ، وبعدائه لمذهب كلفن .

(٢) Aaron, R. I., John Locke, p. 24.

(٣) نفس المرجع السابق - نفس الموضع

(٤) نفس المرجع السابق — هامش صفحة ٣٩ .

بسبب عقيدته ، كما أنه ليس للدولة أن تضطهد أى شخص — إذ أن الكنيسة فى نظره لا تمثل إلا نوعاً من التنظيم الإرادى للمجتمعات ، وخاصة من الناحية الروحية الدينية — وحال الشخص الذى يخضع لها كحال الشخص المنضم لأحد أندية الكريكيت — ليس له الحق فى اضطهاده ، بل كل ما هناك استبعاده عنه إذا انحرف عن تعاليمه أو خرج على نظمه وقواعده[١] . فإذا لم يكن للكنيسة الحق فى اضطهاد أى فرد بسبب عقيدته أو دينه ، وهى السلطة الدينية فى الدولة — فمن الأولى ألا يكون للحكومة — وهى السلطة المدنية — مثل هذا الحق — لأن رعاية الأرواح وحماية النفوس لا يمكن أن تكون خاضعة لسلطة الحكومة المدنية ، كما أنها لا يمكن أن تخضع لرأى شخص آخر كائناً من كان[٢] .

وعلى ذلك فليس للدولة أن ترغم الناس على عقيدة معينة ، ولا أن تتدخل فى عباداتهم أو مذاهبهم ، ولا أن تتحيز لمذهب دون آخر — فكلما كان المذهب الدينى أقرب إلى الحق — كان أبعد عن حاجته إلى مساعدة الدولة له .

٢ — **الدليل المعرفى** : وهو أقوى من سابقه لارتباطه أساساً بنظريته فى المعرفة وبفلسفته بصفة عامة — فلوك يذكر فى كتابه « مقالة فى العقل البشرى[٣] » :

إن حدود المعرفة الإنسانية ضيقة ، وإن احتمال الخطأ فيها كبير ، وخاصة بالنسبة للأمور التأملية — لدرجة أننا لا يمكننا أن نجزم بيقين ما بأية حال فيما يتعلق بآرائنا الدينية بحيث نقطع بأنها هى الصحيحة ، بينما آراء الآخرين مخطئة . فإذا كان ذلك كذلك ، وإذا كان من الصعب أن ندرك وجه اليقين فى معرفتنا الروحية — فإن من الأصعب فى نظر لوك أن نتحامل على الآخرين لمجرد أنهم لا يعتقدون فى آرائنا[٤] .

إلا أن لوك بعد أن ذكر هاتين الحجتين كى يدلل بهما على فكرة التسامح

---

(١) O'connor, D.J., John Locke, p. 211.

(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٢١٢ .

(٣) Essay, B. IV, ch. XVI, sec. 4, p. 560.

(٤) Sterling P. Lamprech, Locke - Selections, p. 46.

الدينى ، وعلى حرية الفرد فى الرأى والعقيدة والاعتقاد — عاد مرة أخرى واستثنى من تسامحه بعض الأفراد ومنهم [١] :

١ — الملحدون — أو غير المؤمنين The Atheists .

٢ — وكل شخص تتضمن عقيدته الدينية الولاء لسلطة خارجية أجنبية .

٣ — والأفراد الذين لا يتسامحون مع معارضيهم فى حين أنهم يطلبون التسامح من الغير .

ومن المعتقد أن لوك كان يقصد باستثناءاته من التسامح — الكاثوليك — لأنهم فى نظره خاضعون لسلطة خارجية أجنبية عن الكنيسة الإنجليكانية ، وهى كنيسة روما — وبالتالى فكل كاثوليكى فى نظره يدين بالولاء الاعتقادى لسلطة خارج إنجلترا .

وهو حين يتحدث عن النوع الثالث من الاستثناءات — أى الأشخاص الذين يطلبون التسامح — بينما هم أنفسهم لا يتسامحون مع الغير ، وحين يتساءل عنهم قائلا « هل من الصواب . أن يتسامح المجتمع بالنسبة لآراء البعض — الذين لو أتيحت لهم الفرصة وأوتوا قوة وسلطاناً — لن يظهروا مثل هذا التسامح ؟ »[٢] . إنما يشير مرة أخرى إلى كنيسة الرومان الكاثوليك[٣] .

هذه هى فكرة لوك عن التسامح كما عرضها فى رسائله الثلاث وهى كما تبدو ضعيفة[٤] ويرجع ضعفها إلى تلك الاستثناءات التى ذكرها — والتى يمكن نقدها فى ضوء فلسفة المسيحية نفسها . . فالدين المسيحى إنما يقوم أساساً على فكرة التسامح والمحبة ، والمسيح عليه السلام يقول فى موعظة الجبل « أن أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى المسيئين إليكم » فأين هذه الفلسفة التى تدعو

---

(١) نفس المرجع السابق — صفحة ٥٠ .
(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٤٩ .
(٣) O'connor, D.J., John Locke, p. 214.
(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٢١٥ .

إلى الحب والإخاء من تلك الاستثناءات التى ذهب إليها لوك ؟

ويمكن أن ألخص ضعف نظرية لوك فى التسامح فى الآتى :

١ — فمن حيث إنه فيلسوف — قد ناقض اتجاهه الأساسى ونظريته الأصيلة فى التسامح ، وحرية الاعتقاد .

٢ — ومن حيث هو إنسان كان أولى به — طالما كان يدافع عن حرية الفرد بالمعنى الإنسانى الواسع ، وطالما ذهب إلى أنه لا يمكن الإساءة إلى أى شخص بسبب عقيدته سواء كان ذلك الشخص مسيحياً أم وثنياً [١] كان أولى به أن يظل على تمسكه بالمعنى الإنسانى فى فكرة التسامح التى يجب أن تتسع لكل إنسان بوصفهم بشراً لكل منهم حريته فى أن يعتقد فى الدين الذى يراه أو العقيدة التى يقتنع بها .

٣ — ومن حيث هو مسيحى ناقض ما تنص عليه المسيحية صراحة — فأخذ يستثنى من محبة الدين المسيحى من يريد ويطرد من جنة هذا التسامح من يراه غير جدير به .

---

(١) Sterling P. Lamprecht, Locke - Selections, p. 46.

التربية

نشر لوك كتابه «آراء فى التربية Some Thoughts Concerning Education» عام ١٦٩٣ . وكان يهدف من ورائه إلى الدفاع أيضاً عن حرية الفرد ، ولكن من الناحية الفكرية — فطالب فيه باستقلال التعليم عن الكنيسة ، بل حتى عن الحكومة — ولذا يشترط لوك أن يكون التعليم خاصاً فى المنازل بدلا من المدارس ويقترح لوك فى كتابه هذا — وهو فى الحقيقة مجموعة من الخطابات كانت مرسلة إلى صديقه كلارك[١] — بعض الأفكار القيمة التى أخذها عنه روسو من بعده ونظمها وألبسها ثوباً جديداً وأخرجها فى كتابه « إميل Emile » مثل الاهتمام بالناحية العلمية أكثر من النظرية — ويمكن تلخيص أهم أفكار لوك التربوية فيما يلى :

١ — أراد لوك أن يغير من الطريقة الروتينية القديمة التى كانت تحتم على التلاميذ قراءة وكتابة النثر والشعر — بمجموعة من الدراسات المتعلقة بالحياة[٢] مثل الجغرافيا والفلك والتشريح بجانب بعض التاريخ [٣] لأنه يمثل هذه العلوم يجب أن تكون أساس معرفتنا — لا بالأفكار المجردة الموجودة فى المنطق أو الميتافيزيقا[٤] .

٢ — كما أنه كان يرغب فى تزويد التلاميذ بنتائج العلوم الطبيعية التى كانت تشير إلى التقدم الملحوظ فى العلوم فى القرن السابع عشر[٥] .

٣ — وكان يرى غرس الفضائل الاجتماعية فى نفوس التلاميذ بجانب العلوم

---

(١) Aaron, R. I., John Locke, p. 52.

(٢) Sterling P. Lamprech, Locke - Selections, Introduction, p. XXXIII.

(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٨ .

(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٩ .

(٥) نفس المرجع السابق — نفس الموضع .

التى يدرسونها ، وهو بهذا يؤكد أهمية العنصر الأخلاقى شأنه شأن العنصر العقلى — فى التربية السليمة — إذ أن الرجل المثقف فى نظره يجب أن يكون نبيلا على مستوى أخلاقى عال — يمكنه من السيطرة على دوافعه وإنكار ذاته فى سبيل الخير ، والتضحية بالرغبات القريبة فى سبيل الأهداف أو الغايات الصعبة — كما يجب أن يكون مثابراً ، هادئاً ، شجاعاً ، متزوداً بالعادات الحسنة[١]

٤ — وكان يرى ضرورة الاهتمام بتربية الأجسام وقوتها — إذ ليست التربية قاصرة فى نظره على تربية العقول بقدر ما هى ترمى كذلك إلى تربية الأجسام ، وخاصة عن طريق الحركات الجسمية والدراسات العملية والألعاب الرياضية التى تساعد الطفل على تحمل الصعاب والمثابرة على العمل[٢] .

٥ — كان يرى البعد عن تخويف الطفل أثناء تربيته — إذ أنه لن يتعلم الطاعة وشبح العصا أمام عينيه ، والبعد كذلك عن القسوة الزائدة التى تهدد عقل الطفل وتحطم روحه[٣] . وكان يعتقد أن طريقة التربية الصحيحة يجب أن تكون بضرب الأمثلة أكثر من ذكر القواعد والأحكام[٤] .

٦ — وكان لا يرى جدوى من دراسة التلاميذ للغتين اللاتينية واليونانية — وخاصة الأولى — حقيقة إنها قد تعتبر شيئاً ذا فائدة بالنسبة لأبناء السادة Gentlemen الذين قد يسمح لهم وضعهم الاجتماعى بفرص الاستفادة منها ، إلا أنها ستكون عديمة القيمة بالنسبة لابن التاجر أو التلميذ العادى الذى لن تتيح له الحياة بعد ذلك فرصة استخدام هذه اللغات أو الإفادة من معرفتها — ولذا فدراستها فى هذه الحالة ستكون بمثابة ضياع لوقت التلميذ فى تعلم أشياء لن يستخدمها فى حياته بعد ذلك[٥] .

---

(١) نفس المرجع السابق — المقدمة صفحة ٣٤ .
(٢) نفس المرجع السابق — صفحة ٤ .
(٣) نفس المرجع السابق — صفحة ٦ .
(٤) نفس المرجع السابق — صفحة ٤ .
(٥) نفس المرجع السابق — صفحة ٨ .

والواقع أن أفكار لوك التربوية على النحو السالف الذكر — تعتبر بمثابة إعداد للتلميذ أو للفرد لمواجهة الحياة — وهذا ليس أكثر مما تهدف إليه التربية الحديثة الآن — بإعداد الفرد لمواجهة الحياة بحيث يكون هذا الإعداد شاملا للشخصية الإنسانية من كافة نواحيها : عقلية وخلقية وجسمية والبعد عن حشو ذهن التلميذ بالحقائق الجافة والمعلومات الميتة .

والواقع أن أى علم من العلوم لن يكون له أية فائدة بالنسبة للإنسان إلا إذا كان مرتبطاً بحياته ، وثيق الصلة بها — وهذه الفائدة لن تتحقق إلا إذا كان لتلك العلوم جوانب تطبيقية عملية ، وعلى ذلك فالخبرة هى أساس التربية وهذا ما ذهب إليه لوك .

وقد ذكر لوك أنه تجب الملاءمة بين طريقة التدريس فى المدارس وبين شخصية الطفل نفسه ، فيجب ألا تكون جافة نظرية — بل مرنة مناسبة له ، ولدرجة نموه . . وحيث إن الطفل يميل إلى اللعب ، فيجب أن يتحول العمل فى مدارس الأطفال إلى لعب — حتى يتناسب مع روح الطفل ، وهذا ما تنادى به التربية الحديثة الآن مثل طريقة فروبل وهداياه العشرة .

وحين ذكر لوك ضرورة الاهتمام بالألعاب الرياضية والتربية الجسمية — إنما كان ينادى بما تهتم به التربية الحديثة الآن ، إذ أن الألعاب الرياضية تعتبر من أهم العوامل التى تؤدى إلى تكامل الشخصية الإنسانية . فالرياضة تقوى الجسم ، وتنشط الفكر ، وتهدئ الانفعالات ، وتنفس عن بعض الغرائز المكبوتة فى الإنسان ، وتقوى فى الطفل بعض القيم الخلقية والاجتماعية كالتعاون والغيرية والصبر ، وحب الجماعة — وتقوى من أواصر العلاقات الاجتماعية بين الفرد والجماعة وخاصة عن طريق النشاط الجماعى .

قائمة بأهم مؤلفات لوك مرتبة ترتيباً زمنياً

١٦٧١

1. Draft A.

وقد نشرت المسودة الأولى من « المقالة فى العقل البشرى » عام ١٩٣٦ بعنوان :

An Early Draft of Locke's Essay, together with excerpts from his journals.
edited by : Aaron and Gibb., Oxford, 1936.

2. Draft B.

كما نشرت المسودة الثانية للمقالة عام ١٩٣١ بعنوان :

An Essay concerning the Understanding, Know ledge, opinion and assent.
edited by : Benjamin Rand, Harvard, 1931.

سنة ١٦٨٩

رسالة فى التسامح :

3. Epistola de Tolerantia ad Clarissimum Virum.

وقد ترجم إلى الإنجليزية فى نفس العام ١٦٨٩ بعنوان :

A Letter Concerning Toleration (Translated by W.M. Popple, edited by : Awnsham and Churchill).

كما كتب لوك رسالتين أخريين فى التسامح ظهرت إحداهما باسم :

رسالة ثانية فى التسامح A Second Letter concerning Toleration.

طبعة أونشام وتشرشل عام ١٦٩٠ .

وظهرت الأخرى بعنوان :

رسالة ثالثة فى التسامح A Third Letter for Toleration.

طبعة أونشام وتشرشل عام ١٦٩٢ .

كما ظهر جزء من الرسالة الرابعة التى مات قبل أن يكملها ، فى مجموعة المؤلفات التى نشرت بعد وفاته Posthumous Works عام ١٧٠٦ .

سنة ١٦٩٠

مقالتان فى الحكومة المدنية .

4. Two Treatises of Government.

وقد ظهرت لها طبعة ثانية عام ١٦٩٤ .

سنة ١٦٩٠

مقالة فى العقل البشرى .

5. An Essay Concerning Human Understanding.

وقد نشر الطبعة الأولى كل من Eliz. Holt, Thomas Basett — ثم ظهرت الطبعة الثانية بزيادة بعض الإضافات عام ١٦٩٤ — ثم الطبعة الثالثة عام ١٦٩٥ والرابعة نشرها أونشام وتشرشل عام ١٧٠٠ ، ثم ظهرت الطبعة الخامسة بإضافات أكثر ونشرها أونشام وتشرشل عام ١٧٠٦ .

سنة ١٦٩٣

بعض أفكار عن التربية .

6. Some Thoughts Concerning Education.

طبعة أونشام وتشرشل — وقد ظهرت طبعته الثانية عام ١٦٩٥ .

سنة ١٦٩٥

معقولية المسيحية .

7. Reasonableness of Christianity, as delivered in the Scriptures.

طبعة أونشام وتشرشل .

وقد كتب لوك دفاعين عن رأيه فى هذا الموضوع — ظهر الأول عام ١٦٩٥ بعنوان :

A Vindication of the Reasonableness of Christianity etc. From Edwards's Reflections.

وظهر الدفاع الثانى عام ١٦٩٧ بعنوان :

A Second Vindication of the Reasonableness of Christianity etc. By the author of the Reasonableness of Christianity.

سنة ١٧٠٦

نشرت الكتب التالية للوك فى مجموعة المؤلفات التى طبعت بعد وفاته باسم :

Posthumous Works of Mr. John Locke.

طبعة تشرشل — لندن عام ١٧٠٦ وتتضمن :

١ — فى كيف يعمل العقل .

I. Of the conduct of the Understanding.

٢ — دراسة لرأى مالبرانش فى رؤية الأشياء فى الله .

II. An Examination of P. Malebranche's Opinion of Seeing all things in God.

٣ — بحث فى المعجزات .

III. A Discourse on Miracles.

٤ — جزء من رسالة رابعة فى التسامح .

IV. Part of a fourth Letter on Toleration.

٥ — ذكريات خاصة بحياة أنتونى أول إيرل لشافتسبرى .

V. Memoirs relating to the life of Anthony, first Earl of Shaftesbury.

سنة ١٧١٤

الآثار الباقية من جون لوك

8. The Remains of John Locke.

طبعة تشرشل — لندن — ١٧١٤ .





نصوص مختارة من مؤلفات جون لوك



النص الأول :

فى المعرفة الفطرية

٥ — إنها (أى الأفكار) ليست مطبوعة على العقل بطبيعتها — لأنها ليست معروفة بالنسبة للأطفال والبلهاء وغيرهم .

أولا : لأنه من الواضح أن جميع الأطفال والبلهاء ليس لديهم أدنى فهم أو فكر عنها . وهذا النقص كاف لإبطال تلك الموافقة العامة : التى يجب أن تكون ملازمة بالضرورة لكل الحقائق الفطرية : ويبدو لى أنه أقرب إلى التناقض أن نقول بأن هناك حقائق مطبوعة على الروح — وهى لا تدركها . لأن الطبع إن كان يعنى شيئاً — فلن يعنى أكثر من جعل حقائق معينة — شيئاً يمكن إدراكه . لأنه يبدو لى أمراً من الصعوبة فهمه — أن نطبع شيئاً على العقل ، بدون إدراك العقل له .

فإذا كان للأطفال والبلهاء أرواح وعقول طبعت عليها هذه الانطباعات ، فإنهم لا محالة مدركون إياها ، وبالتالى يعرفون هذه الحقائق ويوافقون عليها . وطالما أنهم لا يفعلون ذلك — فمن الواضح أنه ليس هناك مثل هذه الانطباعات .

---

5. *Not on the mind naturally imprinted, because not known to children, idiots, &c.* —

For, first, it is evident, that all children and idiots have not the least apprehension or thought of them; and the want of that is enough to destroy that universal assent, which must needs be the necessary concomitant of all innate truths : it seeming to me near a contradiction to say, that there are truths imprinted on the soul which it perceives or understands not; imprinting, if it signify any thing, being nothing else but the making certain truths to be perceived. For to imprint any thing on the mind, without the mind's perceiving it, seems to me hardly intelligible. If therefore children and idots have souls, have minds, with those impressions upon them, they must unavoidably perceive them,

لأنها إذا لم تكن أفكاراً مطبوعة بطبيعتها — فكيف تكون مفطورة ؟ وإذا كانت أفكاراً مطبوعة — كيف تكون غير معروفة ؟ إن القول بأن هناك فكرة مطبوعة فى العقل ، ثم نقول فى نفس الوقت إن العقل جاهل بها ولم يلحظ وجودها على الإطلاق ، معناه أن هذا الانطباع ليس شيئاً بالمرة . . .

* * *

(مقالة فى العقل البشرى — الكتاب الأول — الفصل الثانى — الفقرة ٥ — صفحة ١٣)

---

and necessarily Know and assent to these truths; which since they do not, it is evident that there are no such impressions. For if they are not notions naturally imprinted, how can they be innate ? And if they are notions imprinted, how can they be unknown ? To say, a notion is imprinted on the mind, and yet at the same time to say that the mind is ignorant of it, and never yet took notice of it, is to make this impression nothing.

Essay, B. I, ch. II, sec. 5, p. 13.

النص الثانى :

فى الصفات الأولية والثانوية

٩ — الصفات الأولية :

إن الصفات التى تعتبر موجودة فى الأجسام هى : —

أولا : تلك التى لا تنفصل إطلاقاً عن الجسم — مهما كانت حالته ، وتظل موجودة فيه دائماً مهما كانت التغييرات التى تعتريه ، وهى التى يجدها الحس دائماً فى كل جزء من أجزاء المادة طالما كان لها حجم يكفى لإدراكها ، والتى يجدها العقل غير منفصلة عن كل جزء من أجزاء المادة ، التى لا نستطيع إدراكها على حدة — بالحواس لصغر حجمها : فمثلا ، خذ حبة من القمح وقسمها إلى قسمين — تجد أن كل جزء ما زالت به صفات الصلابة، والامتداد ، والشكل ، والحركة . قسمها ثانية — سنجد أنها ما زالت محتفظة بنفس الصفات — واستمر فى التقسيم حتى تصبح هذه الأجزاء غير محسوسة — فإن كل جزء منها لابد وأن يكون محتفظاً بكل هذه الصفات .

لأن التقسيم (سواء كان ذلك بواسطة طاحونة أو مدق أو أى جسم آخر يقوم بتحويل هذا الشىء إلى أجزاء غير محسوسة) لا يمكن أن يزيل عن أى

---

9. *Primary qualities.*

Qualities thus considered in bodies are, First, such as are, utterly inseparable from the body, in what estate soever it be; such as, in all the alterations and changes it suffers, all the force can be used upon it, it constantly keeps; and such as sense constantly finds in every particle of matter which has bulk enough to be perceived, and the mind finds inseparable from every particle of matter, though less than to make itself singly be perceived by our senses : v.g., take a grain of white, divide it into two parts, each part has still solidity, extension, figure, and mobility; divide it again, and it retains still the same qualities : and so divide it on till the parts become insensible, they must retain

جسم صفات الصلابة والامتداد والشكل والحركة — إنما يجعل فقط من الجسم الذى كان شيئاً واحداً — كتلتين أو أكثر من المادة — تنفصل كل منهما عن الأخرى وتتميز بحيث تكوّن جميع هذه الكتل المتميزة — بعد التقسيم عدداً معيناً .

وهذه هى ما أسميها بصفات الجسم الأصلية أو الأولية ، التى تحدث فينا — وهذا ما يمكنا ملاحظته فيها أظن — الأفكار البسيطة : مثل أفكارنا عن الصلابة والامتداد والشكل والحركة والسكون والعدد .

١٠ — الصفات الثانوية :

ثانياً : وهى تلك الصفات — التى فى حقيقتها — ليس لها وجود فى الأشياء نفسها — بل هى قوى تحدث فينا إحساسات مختلفة بواسطة صفاتها الأولية — أى بواسطة حجم وشكل وتركيب وحركة أجزائها الغير محسوسة . . مثل الألوان ، والأصوات ، والطعوم . . . وغير ذلك — وهذه أسميها بالصفات الثانوية .

(مقالة فى العقل البشرى — الكتاب الثانى — الفصل ٨ — الفقرة ٩ ، ١٠ — صفحة ٨٥ — ٨٦)

---

still each of them all those qualities. For, division (which is all that a mill or pestle or any other body does upon another, in reducing it to insensible parts) Can never take away either solidity, extension, figure, or mobility from any body, but only makes two or more distinct separate masses of matter of that which was but one before; all which distinct masses, reckoned as so many distinct bodies, after division, make a certain number. These I call original or primary qualities of body, which I think we may observe to produce simple ideas in us, viz., Solidity, extension, figure, motion or rest, and number.

10. *Secondary qualities.*

Secondly. Such qualities, which in truth are nothing in the objects themselves, but powers to produce various sensations in us by their primary qualities, i.e., by the bulk, figure, texture, and motion of their insensible parts, as Colours, Sounds, tastes & c. these I call secondary qualities.

Essay, B. II, ch. VIII, secs 9-10, pp. 85-86.

النص الثالث :

فى الجوهر

٢ – فكرتنا عن الجوهر بصفة عامة .

ولذا فإن من يختبر نفسه بالنسبة لفكرته عن الجوهر البحت بصفة عامة – لن يجد فى نفسه إلا افتراضا فقط ، لما لا يعرفه كدعامة لهذه الصفات القادرة على أن تحدث فينا الأفكار البسيطة – تلك الصفات التى تسمى عادة باسم « الأعراض » .

وإذا سئل شخص ما « ما هو الموضوع الذى يرتبط به اللون أو الوزن ؟ » لن يجد ما يقوله سوى « الأجزاء الصلبة الممتدة » – فإذا ما سئل « وما هو ذلك الشيء الذى ترتبط به صفتا الصلابة والامتداد » فلن يكون أحسن حالا من الهندى السابق ذكره الذى رأى أن العالم مرتكز على فيل كبير – ولما سئل « وعلى أى شيء يقف الفيل ؟ » كانت إجابته على ذلك « سلحفاة كبيرة » – وحين اضطر إلى معرفة تلك الدعامة التى تحمل هذه السلحفاة ذات الظهر العريض – أجاب بأنها شيء لا يعرفه .

---

2. *Our idea of Substance in general.*

So that if any one will examine himself concerning his notion of pure substance in general, he will find he has no other idea of it at all, but only a supposition of he knows not what support of such qualities which are capable of producing simple ideas in us; which qualities are commonly called "accidents". If any one should be asked, "what is the subject wherein colour or weight inhers ?" he would have nothing to say but, "The solid extended parts." And if he were demanded, "What is it that solidity and extension inhere in", he would not be in a much better case than the Indian before mentioned, who, saying that the world was supported by a great elephant was asked, what the elephant rested on ? to which his answer was, "A great tortoise :" but being again pressed to Know what gave support to the broad-

وهكذا فنحن فى هذه الحالة ، كما فى الحالات الأخرى التى نستخدم فيها ألفاظاً بدون أن يكون فى أذهاننا أفكار واضحة متميزة عنها – نتكلم مثل الأطفال حين يسألون عن شيء ما لم يعرفوه من قبل – فيجيبون بهذه الإجابة المرضية – « إنه شيء ما » – تلك الإجابة التى لا تعنى فى حقيقتها – سواء استخدمها الأطفال أو الرجال – إلا أنهم لا يعرفون ما هو هذا الشيء ، وأن هذا الشيء الذى يتظاهرون بمعرفته ويتحدثون عنه – ليس لديهم عنه أية فكرة متميزة على الإطلاق ، ولذا فهم جاهلون به جهلا تاماً – وفى ظلام .

وعلى ذلك فالفكرة التى نطلق عليها الاسم العام « الجوهر » لن تعبر عن شيء سوى تلك الدعامة المجهولة التى نفترض وجودها لترتكز عليها تلك الصفات التى ندرك أنها موجودة ، والتى لا يمكن أن نتخيل وجودها « بدون شيء يدعمها » – ونحن نسمى هذه الدعامة أو الركيزة باسم « الجوهر » – الذى يعنى تبعاً للدلالة الحقيقية للكلمة فى اللغة الإنجليزية الواضحة أنه «ما يقف تحت» أو « ما يدعم » .

(مقالة فى العقل البشرى – الكتاب الثانى – الفصل ٢٣ – فقرة ٢ – صفحة ٢٠٨ ، ٢٠٩)

---

backed tortoise replied, — something, he knew not what. And thus here, as in all other Cases where, we use words without having clear and distinct ideas, we talk like children; who being questioned what such a thing is which they know not readily give this satisfactory answer, that it is Something; which in truth signifies no more, when so used, either by children or men, but that they know not what; and that the thing they pretend to know and talk of, is what they have no distinct idea of at all, and so are perfectly ignorant of it, and in the dark.

The idea, then, we have, to which we give the general name "substance", being nothing but the supposed, but unknown, support of those qualities we find existing, which we imagine cannot subsist sine re substante, "without something to support them", we call that support substantia; which, according to the true import of the word, is, in plain English, "standing under", or "upholding".

Essay, B. II, ch. 23, sec. 2, pp. 208-209.

النص الرابع :

المعرفة بالذات

٣ — إن معرفتنا بوجودنا — معرفة حدسية .

فيما يتعلق بوجودنا — فإننا ندركه بدرجة من الوضوح واليقين بحيث لا تحتاج أو تحتمل أى برهان . لأنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أوضح لنا من وجودنا — فأنا أفكر ، وأتعقل وأحس بالسرور والألم — هل يمكن أن تكون أى من هذه (العمليات) أكثر وضوحاً بالنسبة لى — من وجودى ؟ وإذا أنا شككت فى جميع الأشياء الأخرى ، فإن هذا الشك بعينه هو ما يجعلنى أدرك وجودى — ويكفينى عناء الشك فيه .

لأننى إذا كنت أعرف أننى أشعر بألم ما ، فمن الواضح أننى مدرك يقيناً لوجودى ، تماماً مثل إدراكى لوجود الألم الذى أشعر به : أو إذا كنت أعرف أننى أشك ، فإننى أدرك يقيناً وجود ذلك الشىء الشاك — تماماً مثل إدراكى لتلك الفكرة التى أسميها بالشك . وعلى ذلك فالخبرة تقنعنا بأن لدينا معرفة حدسية بوجودنا ، وكذا الإدراك الداخلى الذى لا يخطئ يقنعنا بأننا موجودون .

---

3. *Our Knowledge of our own existence is intuitive.*

As for our own existence, we perceive it so plainly and so certainly that it neither needs nor is capable of any proof. For nothing can be more evident to us than our own existence. I think, I reason, I feel pleasure and pain : Can any of these be more evident to me than my own existence ? If I doubt of all other things, that very doubt makes me perceive my own existence, and will not suffer me to doubt of that. For, if I know I feel pain, it is evident I have as certain perception of my own existence, as of the existence of the pain I feel : or if I know I doubt, I have as certain perception of the existence of the thing doubting, as of that thought which I call "doubt". Experience, then, convinces us that we have an intuitive Knowledge of our own existence, and an internal infallible perception that we are. In every act of sensa-

فنحن نشعر بوجودنا فى كل عملية إحساس أو تعقل أو تفكير ، وفى هذا الصدد ــ لن تكون معرفتنا قاصرة عن بلوغ أعلى درجات اليقين .

(مقالة فى العقل البشرى – الكتاب الرابع – الفصل ٨ – فقرة ٢٣ صفحة ٥٢٧)

---

tion, reasoning, or thinking, we are conscious to ourselves of our own being; and, in this matter, come not short of the highest degree of certainty.

Essay, B. IV, ch. VIII, sec. 3, p. 527.

النص الخامس :

المعرفة بوجود الله

٣ – وهو (أى الإنسان) يعرف كذلك أن اللاوجود – لا يمكن أن ينتج أى وجود ، ولذا فهناك شيء أزلى .

فالإنسان يعرف باليقين الحدسى أن اللاوجود المطلق لا يمكنه إنتاج أى وجود حقيقى ، أكثر من معرفته بأن هذا اللاوجود يساوى زاويتين قائمتين ، فإذا لم يكن الإنسان يعرف أن العدم – أو غياب الوجود كله – لا يمكن أن يكون مساوياً لزاويتين قائمتين ، فمن المستحيل عليه أن يعرف أى برهان من براهين أقليدس .

وعلى ذلك ، فنحن إذا عرفنا أن هناك نوعاً من الوجود الحقيقى ، وأن العدم لا يمكنه أن ينتج أى موجود حقيقى ، فسيكون برهاناً واضحاً – القول بأنه لابد من وجود شيء ما منذ الأزل – طالما أن كل ما هو ليس منذ الأزل – له بداية ، وكل ما له بداية يجب أن يكون ناتجاً عن شيء غيره .

---

3. *He knows also that nothing cannot produce a being, therefore something eternal.*

In the next place, man knows by an intuitive certainty that bare nothing can no more produce any real being, than it can be equal to two right angles. If a man knows not that nonetity, or the absence of all being, cannot be equal to two right angles, it is impossible he should know any demonstration in Euclid. If therefore we know there is some real being, and that nonentity cannot produce any real being, it is an evident demonstration, that from eternity there has been something; since what was not from eternity had a beginning; and what had a beginning must be produced by something else.

٤ — إن الموجود الأبدى يجب أن يكون هو الأكثر قوة .

يتضح بعد ذلك أن ما يستمد وجوده وبدايته من شيء آخر — يجب أن يكون كذلك كل ما فيه ، وكل ما يتعلق بوجوده — من شيء آخر أيضاً . فيجب أن تكون جميع ما فيه من قوى متوقفة على نفس المصدر ومستمدة منه . ولذا فإن هذا المصدر الأزلى لكل ما هو موجود — يجب أن يكون كذلك مصدراً وأصلا لكل قوة ، وهكذا فالموجود الأزلى يجب أن يكون كذلك هو الأكثر قوة .

٥ — والأكثر معرفة وعلماً .

ومرة ثانية — فالإنسان حين يجد فى نفسه هذا الإدراك ، وهذه المعرفة — فإن هذا يجعلنا نخطو خطوة أبعد ، ونصبح متأكدين من أنه لا يوجد فقط موجود ما — بل إن هناك موجوداً عارفاً — ذكيًّا .

(مقالة فى العقل البشرى — الكتاب الرابع — الفصل العاشر — فقرة ٣ ، ٤ ، ٥ — صفحة ٥٢٨)

---

4. *That Eternal being must be most powerful.*

Next, it is evident, that what had its being and beginning from another, must also have all that which is in and belongs to its being from another too. All the powers it has, must be owing to and received from the same source. This eternal source, then, of all being, must be also the most powerful.

5. *And most Knowing.*

Again : a man finds in himself perception and know ledge. We have then got one step farther and we are certain now that there is not only some being, but some Knowing, intelligent being in the world.

Essay, B. IV, ch. X, secs. 3, 4, 5. p. 528.

النص السادس :

الحدود الكلية

٦ – كيف تتكون الألفاظ الكلية :

إن الشيء الذى يجب أن ندخله فى اعتبارنا بعد ذلك ، هو كيف تتكون الألفاظ الكلية – لأنه طالما كانت كل الأشياء الموجودة – جزئية فقط – فكيف نصل إلى الحدود الكلية ، أو أين نجد هذه الموجودات الطبيعية الكلية التى من المفروض أن تشير إليها هذه الحدود ؟

إن الألفاظ تصبح كلية عامة – بجعلها علامات لأفكار عامة ، والأفكار تصبح أفكاراً عامة – حين نفصل عنها كل ظروف الزمان والمكان وأى أفكار أخرى يمكن أن تحددها وتقصرها على هذا الموجود الجزئى أو ذاك .

وعن طريق هذا التجريد – تصبح الفكرة قادرة على أن تمثل أكثر من فرد واحد – كل منهم متماثل مع الفكرة المجردة (التى نسميها) بالنوع .

(مقالة فى العقل البشرى – الكتاب الثانى – الفصل الثالث – فقرة ٦ – صفحة ٣٢٨)

---

6. *How general words are made.*

The next thing to be considered is, how general words come to be made. For, since all things that exist are only particulars, how come we by general terms, or where find we those general natures they are supposed to stand for ?

Words become general by being made the signs of general ideas : and ideas become general by separating from them the circumstances of time, and place, and any other ideas that may determine them to this or that particular existence. By this way of abstraction they are made capable of representing more individuals than one; each of which, having in it a conformity to that abstract idea, is (as we call it) of that sort.

Essay, B. II, ch. III, sec. 6, p. 328.

النص السابع :

الامتداد الزمنى

٣٢ – وهكذا – فإنه من الواضح فيما أظن – أننا يمكننا أن نصل إلى أفكارنا عن الامتداد الزمنى ومقاييسه – عن طريق هذين الينبوعين الأساسيين لكل أنواع المعرفة السالف ذكرها – وهما الإحساس والتأمل الذاتى – لأنه : –

أولا : بملاحظة ما يجرى فى عقولنا – وكيف تتلاحق الأفكار فيها بطريقة دائمة – فيختفى البعض ويبدأ البعض الآخر فى الظهور – يمكنا أن نصل إلى فكرة التتابع .

ثانياً : بملاحظة المسافة أو البعد بين أجزاء هذا التتابع – نصل إلى فكرة الاستمرار الزمنى .

ثالثاً : بملاحظة ظواهر معينة – بواسطة الإحساس – تظهر بنظام معين وعلى أبعاد زمانية متساوية – نصل الى أطوال أو مقاييس معينة للامتداد الزمنى ، مثل الدقائق ، والساعات والأيام والسنوات . . . وغير ذلك .

---

32. And thus I think it is plain, that from those two fountains of all knowledge before mentioned. (viz) reflection and sensation, we get the ideas of duration, and the measures of it.

For, First, by observing what passes in our minds, how our ideas there in train constantly some vanish, and others begin to appear, we come by the idea of succession.

Secondly : by observing a distance in the parts of this succession, we get the idea of duration.

Thirdly : by sensation observing certain appearances, at certain regular and seeming equidistant periods, we get the ideas of certain lengths or measures of duration, as minutes, hours, days, years, & c.

رابعاً : ولأننا نستطيع تكرار هذه المقاييس الزمنية ، أو أفكارنا عن الأطوال المذكورة عن الامتداد الزمنى فى عقولنا كيفما أردنا ـ يمكننا أن نتخيل الامتداد الزمنى حيث لا يوجد فيه شيء بالفعل، وهكذا يمكننا أن نتخيل الغد أو السنة القادمة أو السنوات السبع التالية . .

خامساً : ولأننا يمكننا تكرار أى فكرة عن طول زمنى ، كالدقيقة أو السنة أو العصر ـ كيفما أردنا ذلك فى عقولنا ـ وذلك بأن نضيف الفكرة إلى الأخرى ـ بدون أن نصل إلى حد لهذه الإضافة بحيث نكون أقرب إلى نهاية العدد الذى يمكن أن نضيفه دائماً ـ فإننا نصل إلى فكرة الأبدية مثل الامتداد الزمنى الأبدى لأرواحنا فى المستقبل، ومثل أبدية ذلك الموجود اللامتناهى الواجب الوجود بحكم الضرورة دائماً (أى الله) .

سادساً : ولأننا إذا أدخلنا فى اعتبارنا أى جزء من أجزاء هذا الامتداد الزمنى اللامتناهى مما يمكن حصره بالمقاييس الفترية ـ يمكننا أن نصل إلى فكرتنا عما نسميه « بالزمن » بصفة عامة .

(مقالة فى العقل البشرى – الكتاب الثانى – الفصل ١٤ – فقرة ٣٢ – صفحة ١٣٣)

Fourthly : by being able to repeat those measures of time, or ideas of stated length of duration in our minds, as often as we will, we can come to imagine duration where nothing does really endure or exist; and thus we imagine to-morrow, next year, or seven years hence.

Fifthly : by being able to repeat any such idea of any length of time, as of a minute, a year, or an age, as often as we will in our own thoughts, and add them one to another, without ever coming to the end of such addition, any nearer than we can to the end of number to which we can always add, we come by the idea of eternity, as the future eternal duration of our souls, as well as the eternity of that infinite Being which must necessarily have always existed.

Sixthly : by considering any part of infinite duration, as set out by periodical measures, we come by the idea of what we call "time" in general.

Essay, B. II, ch. XIV, sec. 32, p. 133.

النص الثامن :

فى المعرفة بصفة عامة

٢ – المعرفة إدراك لما بين أى فكرتين من اتفاق أو اختلاف .

ولذا فالمعرفة لا تبدو لى شيئاً أكثر من إدراك الارتباط والاتفاق – أو الاختلاف والتنافر بين أفكارنا ، وهى تقوم على هذا فقط .

وحيث يوجد هذا الإدراك ، توجد المعرفة – أما إذا لم يوجد هذا الإدراك ، فإننا نقصر عن بلوغ المعرفة دائماً بالرغم من أننا يمكننا أن نتخيل أو نظن أو نعتقد .

إذ ما الذى ندركه – حين نعرف أن الأبيض ليس بالأسود – أكثر من أن هاتين الفكرتين غير متفقتين ؟

وما الذى نفعله حينما نطمئن أنفسنا إلى أقصى حد بصحة البرهان القائل بأن الزوايا الثلاث لأى مثلث تساوى زاويتين قائمتين ، أكثر من أننا ندرك أن فكرة المساواة بالزاويتين القائمتين ليس من الضرورى أن تتفق ، أو أن تكون غير منفصلة عن فكرتنا الخاصة بزوايا المثلث الثلاث ؟

(مقالة فى العقل البشرى – الكتاب الرابع – الفصل الأول – فقرة ٢ ، صفحة ٤٢٤)

---

2. *Know ledge is the perception of the agreement or disagreement of two ideas.*

Knowledge then seems to me to be nothing but the perception of connection and agreement, or diragreement and repugnancy, of any of our ideas. In this alone it consists. Where this perception is, there is know ledge; and where it is not, there, though we may fancy, guess, or believe, yet we always come short of knowledge. For, when we know that white is not black, what do we else but perceive that these two ideas do not agree ? when we possess ourselves with the utmost security of the demonstration that the three angles of a triangle are equal to two right ones, what do we more but perceive, that equality to two right ones does necessarily agree to, and is inseperable from, the three angles of a triangle.

Essay, B. IV, ch. I, sec. 2, *p.* 424,

النص التاسع :

غايات المجتمع السياسى والحكومة

١٢٣ —

إذا كان الإنسان حراً بهذه الدرجة فى حالة الفطرة — كما ذكرنا من قبل ، وإذا كان سيداً مطلقاً على نفسه وممتلكاته — مساوياً لأكبر شخص ، وليس تابعاً لأحد — فلماذا يتخلى عن حريته ، وسلطانه ، ويخضع نفسه لسيطرة وقيادة أى قوة أخرى ؟

من الواضح أن الإجابة على ذلك هى أن الإنسان بالرغم من أن لديه مثل هذا الحق فى حالة الفطرة — إلا أن استمتاعه به ليس مؤكداً إلى حد كبير ، وأنه معرض بصفة دائمة لإغارة الآخرين .

لأنه طالما كان الجميع ملوكاً مثله — كل ند له — ولم يكن هناك فى الأغلب — مراقبون حازمون لتحقيق المساواة والعدالة — فإن استمتاعه بملكيته الخاصة فى هذه الحالة يكون أمراً غير مأمون الجانب أو مضمون إلى حد كبير .

وهذا ما جعله راغباً فى أن يترك هذه الحالة — التى مهما كان فيها حرًّا —

Of the Ends of Political Society and Government.

123. If man in the state of nature be so free, as has been said, if he be absolute lord of his own person and possessions, equal to the greatest, and subject to nobody, why will he part with his freedom, this empire, and subject himself to the dominion and control of any other power ? To which, it is obvious to answer, that though in the state of nature he hath such a right, yet the enjoyment of it is very uncertain, and constantly exposed to the invasions of others. For all being kings as much as he, every man his equal, and the greater part no strict observers of equality and justice, the enjoyment of the property he has in this state is very unsafe, very unsecure.

This makes him willing to quit this condition, which, however free,

إلا أنها مماوءة بالمخاوف والأخطار الدائمة ، ولم يكن بلا سبب إذن بحثه ورغبته فى الانضمام إلى مجتمع ما مع آخرين اتحدوا فعلا أو يفكرون فى الاتحاد من أجل المحافظة المتبادلة على أرواحهم وحرياتهم وأملاكهم التى أسميها باسم عام هو « الملكية » .

(مقالة فى الحكومة المدنية – الفصل التاسع – فقرة ١٢٣) – صفحة ١٢٨ فى كتاب « الفلاسفة السياسيين » نشر ساكس كومينز .

---

is full of fears and continual dangers; and it is not without reason that he seeks out and is willing to join in society with others, who are already united, or have a mind to unite, for the mutual preservation of their lives, liberties, and estates, which I call by the general name, property.

"An Essay concerning the True Original, extent and end of civil government, ch. IX, sec. 123, p. 128 (in Political Philosophers, edited by Saxe Commins)".

المراجع

(ا) مؤلفات لوك

1. Draft A.
"An Early Draft of Locke's Essay, together with excerpts from his journals".
edited by : Aaron and Gibb. Oxford, 1936.
وبه بالإضافة إلى مسودة المقالة ـــ بعض المقالات والخطابات المتبادلة بينه وبين أصدقائه .

2. Draft B.
"An Essay Concerning the Understanding, Knowledge, opinion and assent."
edited by : Benjamin Rand, Harvard, 1931.

3. An Essay concerning Human Understanding, "with the notes and illustrations of the author".
London, (Word, Lock & Co. edition), 1920 — The World library

4. An Essay Concerning the True Original, Extent and End of Civil Government.
فى سلسلة ـــ "The World's Great Thinkers" فى كتاب :
Political Philosophers, edited by : Saxe Commins, New York, 1954.

(ب) مختارات من مؤلفات لوك وملخصات لها

١ ـــ مختصر مقالة لوك فى العقل البشرى ـــ الصادرة فى مجموعة
Everyman's Library
رقم ٩٨٤ ـــ تلخيص ونشر ريموند ويلبورن .

٢ ـــ مختصر مقالة لوك فى العقل البشرى فى كتاب « الفلاسفة التجريبيين الإنجليز » :

Ayer, A. and Winch : British Empirical Philosophers.
London, Kegan Paul's edition, 1952.

وهو يتضمن بالإضافة إلى ذلك — مختصرات لبعض الأعمال الفلسفية لبركلى وهيوم وريدوميل مع مقدمة عن الاتجاه التجريبي بصفة عامة .

٣ — بعض المقتطفات الهامة من كتابات لوك ومؤلفاته :

(ا) مقتطفات من كتابه « أفكار عن التربية »

Some Thoughts Concerning Education

(ب) « « قيادة العقل الإنسانى »

Conduct of Understanding.

(ج) « « رسائله فى التسامح — بعنوان « روح التسامح » .

The spirit of Toleration

(د) « « رسالته فى الحكومة المدنية

Treatise ... of civil Government

بعنوان « الحرية السياسية »

Liberalism in Politics

(هـ) « « دفاعه عن معقولية المسيحية — بعنوان « الحرية فى الدين » .

Liberalism in religion.

وهى جميعاً منشورة فى كتاب لامبرخت :

Sterling, P. Lamprecht. Locke - Selections.
(Scribner's edition, New York, 1956).

ومعها مقدمة فى ٤٦ صفحة — تلخص تلخيصاً دقيقاً اتجاه لوك الفلسفى ، وكيفية معالجته لأهم المشكلات المتعلقة بنظرية المعرفة .

(ج) مراجع عن لوك

1. Aaron, R. I., John Locke.
(Oxford University Press, London, 1937).

ويعتبر من أهم الكتب التى أوضحت أفكار لوك الفلسفية بطريقة نقدية . وقد ظهرت الطبعة الثانية من هذا المرجع القيم سنة ١٩٥٤ .

2. Fox Bourne, The life of John Locke.
London, 1876, 2 Vol.

3. Gibson, J., Locke's Theory of Knowledge.
Cambridge University Press, Second edition, 1931.

وقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩١٧ — ويعتبر كذلك من أهم الدراسات التى كتبت عن فلسفة لوك وخاصة من حيث الدراسات المقارنة التى أفرد لها جيبسون فصولا كاملة فى كتابه .

4. Gibson, J., John Locke, London, 1933.

وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها جيبسون فى أكاديمية هنريت هيرتز H. Hertiz عن جون لوك — وهى تكاد تكون مكملة لكتابه السابق « نظرية المعرفة عند لوك » .

5. Kenneth Matthews, British Philosophers.
London, William Collins's edition.

6. Krakowski, E., Les Sources Médiévales de la philosophie de Locke,
Paris, 1915.

7. Leslie Paul, The English Philosophers.
London, Faber & Faber edition, 1952.

وقد أفرد فيه فصلا خاصاً عن لوك — تناوله فيه من حيث منهجه فى التفكير ، باعتباره مؤسس الفلسفة التجريبية وذلك تحت عنوان :

John Locke, The founder of Empiricism.

وهو لا يتناول لوك بالتفصيل كما فعل كل من آرون وجيبسون — بل من حيث اتجاهه التجريبي — حتى يبرز وضعه وأهميته بين الفلاسفة الإنجليز .

8. Morris, C.R., Locke, Berkeley and Hume.
Oxford University Press, 1931.

وبه دراسة مقارنة لكل من الفلاسفة الثلاثة الإنجليز — لوك وبركلي وهيوم — أوضح فيها موريس ما بينهم من تشابه واختلاف .

9. O'Connor, D.J., John Locke.
(A Penguin book No. A 267), London, 1952.

وبه دراسة قيمة لفلسفة لوك — وإن كان يعتمد في مصادره على آرون وجيبسون .

10. Sorley, W.R., A History of English Philosophy.
Cambridge University Press, second edition, 1937.

وكانت طبعته الأولى عام ١٩٢٠ — ويعتبر من المراجع القيمة في تاريخ الفلسفة الإنجليزية وفي الاتجاه التجريبي بصفة عامة .

هذا بالإضافة إلى الكثير من المراجع والدراسات التي ذكرها آرون في كتابه « جون لوك » وكذا جيبسون في كتابه « نظرية المعرفة عند لوك » .

(د) مراجع عامة

1. Harold Hoffding, A History of Modern Philosophy.
2 Vol., Dover publications edition, U.S.A., 1955.

وقد ترجمه عن الألمانية Meyer, B.E.

2. Paul Janet et Gabriel Seaille, Histoire de la Philosophie, Les problemes et les écoles.
Quatorzieme edition, Paris, 1928.

وهو يتناول تاريخ الفلسفة عن طريق استعراض أهم مشكلاتها ، ورأى الفلاسفة فى كل من هذه المشكلات منذ اليونان حتى المحدثين — ثم عن طريق العرض للمدارس الفلسفية والاتجاهات الفكرية التى تمثلها (وقد ظهرت ترجمة لإحدى هذه المشكلات التى تناولها الكتاب — وهى المشكلة الميتافيزيقية باسم. « مشكلات ما بعد الطبيعة » — قام بترجمتها دكتور يحيى هويدى عام ١٩٦١)

3. Russell, Bertrand, A History of Western Philosophy.
London, Allen & Unwin, fourth edition, 1954.

وقد أفرد رسل فصلا خاصاً عن لوك متناولا إياه من خلال الاتجاه التجريبى الذى بدأ ببيكون واتضحت معالمه عند لوك ونيوتن — وانتهى إلى نزعة حسية عند هيوم .

4. Wilhelm Windelband, A History of Philosophy. 2 Vol. a Harper Torch book, New York, 1958.

وقد ترجمه عن الألمانية جيمس تافت Tuft, J.H. .

5. Wolf, A., Recent Contemporary Philosophy.

ونقله إلى العربية الدكتور أبو العلا عفيفى بعنوان « فلسفة المحدثين والمعاصرين» سنة ١٩٣٦ .

(هـ) مراجع مختلفة

1. Allan, D.J., The Philosophy of Aristotle.
   Oxford University Press, 1952.

2. Aristotle's Metaphysics.
   edited & translated by : John Warrington, London, 1956
   (Everyman's Library No. 1000).

3. Ayer, A.J., The Revolution in Philosophy.
   London, Macmillan's edition, 3rd impression, 1957.

4. Basson, A.H., David Hume.
   London, 1958. (a Pelican book No. A 428).

5. Burtt, E.A., The Metaphysical Foundations of Modern Science.
   (Doubly Anchor books, No. 41).

6. Charles Hendel, Hume - Selections.
   Scribner's impression, New York, 1955.

7. Compleston, F.C., Aquinas.
   (a Palican book No. A 349) London, 1959.

8. Curtis, S.J., A short History of Western Philosophy in middle ages.
   (London, Macdonald edition, 1950).

9. Harold, H. Joachim, The Nature of Truth.
   London, 1939, second edition.

   وخاصة فى الفصل الخاص بالعلاقة بين الصدق والتطابق :

   "Truth as a Correspondence".

10. Hume, David, A Treatise of Human Nature.
    (everyman's Library No. 548) — 2 Vol., London, 1951.

11. Jessop, T.E., Berkeley — Philosophical Writings.
(Nelson's edition, London, 1952).

12. John Burnet, Greek Philosophy — Thales to Plato.
London, Macmillan's edition, eleventh impression, 1960.

13. Moore, G.E., Some Main Problems of Philosophy.
London, Allen & Unwin, second impression, 1958.

14. Ormond, A.T., Concepts of Philosophy.
London, Macmillan's edition, 1906.

15. René Descartes, Discourse on Method.
(in The Philosophers of Science) Saxe Commins impression, New York, 1954.

16. Ross, W.D., Aristotle.
Methuen edition, seventh impression, London, 1956.

17. Russell, Bertrand, The Analysis of Mind.
London, Allen & Unwin edition, fifth impression, 1949.

18. Russell, B., The Scientific Outlook.
London, Allen & Unwin edition, second impression, 1934.

19. Saw, Ruth, Leibniz.
(A Pelican book No. A 305), London, 1954.

20. Saxe Commins — (editor.), Speculative Philosophers.
New York, 1954.

ويتضمن المؤلفات الفلسفية التالية كاملة غير مختصرة :

I. St. Augustin, On the immortality of the Soul.

II. St. Thomas Aquimas, Treatise on Divine Government.

III. George Berkeley, A Treatise Concerning the principles of Human Knowledge.

IV. David Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding.

21. Stace, W.T., A Critical History of Greek Philosophy.
London, Macmillan's edition, 1950.

22. Warnock, G.J., Berkeley.
(A Pelican book, No. A 286), London, 1953.

23. William Green (editor), The Dialogues of Plato.
(from the third Jowett translation) — Oxford University Press,
New York, 1926.

المراجع العربية

١ – أرسطو – كتاب النفس – نقله إلى العربية الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢ – أفلاطون – محاورات أفلاطون – عرّبها عن الإنجليزية الدكتور زكى نجيب محمود ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٥ .

٣ – الغزالى – الرسالة اللدنية (فى كتاب الجواهر الغوالى من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى) جمع وتحقيق محيى الدين صبرى الكردى القاهرة ١٩٣٤ .

٤ – أوزفلد كلبه – المدخل إلى الفلسفة – تعريب الدكتور أبو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٢ .

٥ – برتراند راسل – الفلسفة بنظرة علمية – ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود القاهرة ١٩٦٠ .

٦ – توفيق الطويل (دكتور) – أسس الفلسفة ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٢ .

٧ – ديكارت – التأملات فى الفلسفة الأولى – ترجمة الدكتور عثمان أمين بالقاهرة ١٩٥١ .

٨ – زكى نجيب محمود (دكتور) برتراند راسل ، القاهرة ١٩٥٦ (سلسلة نوابغ الفكر الغربى رقم ٢) .

٩ – زكى نجيب محمود (دكتور) – حياة الفكر فى العالم الجديد ، القاهرة (طبعة مؤسسة فرانكلين) .

١٠ ــ زكى نجيب محمود (دكتور) ــ ديفيد هيوم ، القاهرة ١٩٥٨ (سلسلة نوابغ الفكر الغربى رقم ٧) .

١١ ــ زكى نجيب محمود (دكتور) ــ نحو فلسفة علمية ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٢ ــ عبد الرحمن بدوى (دكتور) ــ أرسطو ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٤ .

١٣ ــ عبد الرحمن بدوى (دكتور) ــ أفلاطون ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٤ .

١٤ ــ عبد الرحمن بدوى (دكتور) ــ ربيع الفكر اليونانى ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٦ .

١٥ ــ عثمان أمين (دكتور) ــ ديكارت ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٦ .

١٦ ــ محمد فتحى الشنيطى (دكتور) ــ المعرفة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٧ ــ محمد فتحى الشنيطى (دكتور) ــ فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٨ ــ يوسف كرم ــ تاريخ الفلسفة الحديثة ــ القاهرة ١٩٤٦ (طبعة دار المعارف)

١٩ ــ يوسف كرم ــ تاريخ الفلسفة اليونانية ــ ط ٢ ، القاهرة ١٩٦٤ .

الفهرس

صفحة

جون لوك

يعتبر الفيلسوف الإنجليزى جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) علماً من أعلام الفكر فى القرن السابع عشر . إذ أن موقفه الإنسانى الشامل قد انعكس على فلسفة الحرية التى نادى بها متمثلة فى كل صورها ومختلف ميادينها - عقلية وسياسية ودينية وتربوية ، الأمر الذى جعل منه فيلسوفاً إنسانياً بدفاعه عن حرية الإنسان وتأكيد أصالته .

هذا وترجع أهمية لوك الفلسفية إلى أنه كان أول من أفرد لمشكلة المعرفة الإنسانية بحثاً خاصاً هو كتابه : « مقالة فى العقل البشرى » بعد أن كان البحث فيها مرتبطاً أو متضمناً فى مشكلات فلسفية أخرى ، وإلى أنه كان أول من طبق الاتجاه التربوى بالنسبة للبحث فى هذه المشكلة ، وإلى أن منهجه فى الفلسفة كان له أثر بالغ فى الفلسفة التجريبية الحديثة والفلسفة التحليلية المعاصرة بصفة عامة .

مجموعة نوابغ الفكر الغربى

● ظهر منها :

١ - نيتشه
٢ - برتراند رسل
٣ - برجسون
٤ - بسكال
٥ - أفلاطون
٦ - جون ستيورت مل
٧ - ديفد هيوم
٨ - شيلر
٩ - تايلور
١٠ - وليم جيمس
١١ - جون ديوى
١٢ - ديكارت
١٣ - باركلى
١٤ - سان سيمون
١٥ - كولردج
١٦ - جون لوك



٤٠ قرشاً ج . ع . م .	٤٠٠ فلس فى العراق والأردن	٥٦٠ فرنكاً فى المغرب
٣٢٠ ق . ل	٤٠٠ فلس فى الكويت	٤,٨ ريالات سعودية
٤٠٠ ق . س	٤٨٠ مليماً فى تونس	٨ شلنات } فى البلاد الأخرى
٤٠٠ مليم فى ليبيا والسودان	٥٦٠ فرنكاً فى الجزائر	٠,٩١٦ دولار } فى البلاد الأخرى